

A L I B A D E R
رواية
NOVEL
ketab.me
علي بدر
Twitter: @ketab_n
24.1.2012
الجريمة، الفن،
وقاموس بغداد
Eqla3 Library
All rights reserved - eqla3.com





عَلِي بَدْر

الجَرِيمة، الفَنُّ، وقَامُوس بَغْدَاد



الجريمة ، الفنّ ، وقاموس بغداد / رواية عربيّة
علي بدر / مؤلّف من العراق
الطبعة الأولى ، 2010



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب :5460-11 ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : 751438 / 752308
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب : 9157 ، هاتف : 5605432 ، هاتفاكس : 5685501
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
التنفيذ والإشراف الفنّي :
®

لوحة الغلاف : **يحيى الواسطيّ / فنّان عربيّ من العصر العبّاسيّ**
الصفّ الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان**
التنفيذالطباعيّ : **ديمو برس / بيروت، لبنان**

ISBN 978-9953-36-101-0

الإهداء

إلى شعبي في العراق

«الخواجة تعني المعلم، أطلقها أهل بغداد
في العصر العباسي على الفيلسوف ابن
سينا،
وسموه الخواجة الرئيس، ثم صاروا
يطلقونها على الفلكيين والأطباء والنقاشين
وأهل الحرف»

معجم المهن والحرف في العصر العباسي

الجزء الأول

«الخواجية هي فرقة سرية ضمت أصحاب
المهن في بغداد في زمن الخليفة العباسي
المستنصر بالله،
وتم القضاء عليها في آخر حقبة من العصر
العباسي»

المستشرق جون كرال

١٨٥١

الجزء الأول

تخطيطات فلسفيّة وتاريخيّة عن الطائفة

الفصل الأول

من أوراق الخواجة نصري عن قاموس بغداد

I
الجريمة

عند دخولي مباشرةً إلى ديوانهِ ، وقبل أن ألقي عليّه التحيّةَ ، وأُثني ركبتي أمامهُ ، وأقبّل خاتمَ الولاية بخنصرِ يدهِ اليمنى كما تنصّ عليهِ تعاليمُ طائفتنا ، التفتَ الخواجة عبّاسُ بن محمّد الطُغْرلي إليّ وقال بصوتٍ خفيض :

«اطعنهُ» .

أطرق قليلاً بعينيهِ المتوهّجتين ، ثمّ قالَ :

«اقتلهُ» .

قالَ ذلكَ ، وبقيَ وجههُ هادئاً ووقوراً ، يذكّرُ بوجوهِ أشراف بغداد الذين كسبوا مجدَهم من انتصار سلاحهم ضدّ الكفرة ، وجنوا ثرواتهم الخياليةَ من تجارتهم مع خراسان .

**

لقد كان الخواجةُ عبّاس ذلك اليوم أشبهَ بعجوزٍ يباريني مباراةً أفلاطونيّةً طويلةً ، يدور حولي بخفّةٍ ويتكلّمُ معي بصوتٍ خفيض وحكيم أيضاً .

قالَ ليْ أنّ قَتلَ الخواجة سنان يجعلُ كتابةَ قاموس بغداد الذي تكفلّت بكتابته الجماعة الخواجية بعيداً عن مؤثّراته

الفاسدة ، ثم حدّثني عن أوامرَ أخرى خرجَ بها مجلسُ الخواجات ، غير أنّه لم يطلعني عليها ، فليسَ من المفترض أن أسأل ، ذلك أنّي لم أكن إلاّ عضواً في مجلس الحكماء ، وهو أدنى رتبةً من مجلس الخواجات الذي هو أعلى رتبةً في التنظيم .

ثم استرسل معي في موضوعات أخرى ، متأجّجاً بتهويم له سمةُ توشك أن تكون دينيةً ، ومتقيّداً بعظمة كامنة وبشعورٍ واعٍ بالمأساة الباطنية ، ولكن ما كان مهمّاً نسبةً لهُ ذلكَ الوقتَ هوَ تنفيذ هذه المهمّة على نحوٍ صارم ، وأن أسير بها إلى منتهاها ، وأن لا أتركها أو أعبث بها .

بل عليّ أنْ لا أفكّر بأيّ شيءٍ سواها .

**

كنتُ لحظتها متأكداً من يقيني ، ومن إيماني بالطائفة وبمبادئها وأفكارها ، ولم أكن حسّاساً ولا شكّاكاً في النظام .

غير أنّ الخواجة عبّاس لمْ ينهِ حديثه معي بسرعة كما توقّعتُ ، بل استمرّ طويلاً في الكلام معي ، وكان يعدّلُ عمامتهُ البيضاءَ على رأسهِ ، ويمسكُ ذيلَ قفطانهِ الأسود الذي ارتداهُ حزناً على مقتل الخواجة عماد الدين بن أبي ريحانة النقّاش ، بيديهِ ، ويتحرّك بخفّة وتبختر أمام الخواجات الذين وقفوا على مقربةٍ منهُ ، مظهراً أمامهم كلَّ مهاراته التي اكتسبها من الدرس والتأمّل وتهذيب الذات ، لينفذ إلى أعماقي ، موضّحاً في شعوري وبعمق ذلكَ الشيءَ الذي كان ينبري للدفاع بحماسة وتطرّفٍ عنهُ ، وهو قتل الخواجة سنان ، وبلغةٍ

Twitter: @ketab_n

تفوق كلّ وصف من البلاغة والفصاحة ، معتمداً على تحمّسه وتأجّجه الطبيعيين ، ومستعيناً بمهارة دنيويّة فائقة .

**

قالَ لي إنّهُ فعل المستحيل كي يمنعَ الخواجة سنان من الخيانة والانشقاق والانغماس في الرذيلة ، إلاّ أنّه فشل في مهمّته ، ذلك لأنّ هذا الأمر كان أشبهَ بالقدر نسبةً إليهِ .

ثمَّ أطرق قليلاً وهو يشربُ من كوز الماء الموضوع في ركن الديوان ، وأخذَ يمسحُ بضع قطرات على لحيته ، ثم فسّر لي لماذا استحقّ الخواجة سنان الموت ، قالَ لي :

«إن النزعة الفرديّة وأنانية الخواجة سنان هي التي أحالته إلى أتونٍ من اللهيبِ الوجداني الذي أحرقهُ ، وكواهُ بنيرانٍ قوية»

ثمّ سار قليلاً ليقفَ عند اصطرلابه ، وأخذَ يشرحُ ليً هذه النزعةَ الفرديّةَ والأنانيةَ التي انتزعتْ واحداً من أمهر وأبرع خواجات الطائفة ورمتهُ في دوّامةٍ مَرَضَيّة ، وكان يلوم هذه النزعة التي لم ينفلت منها إلا القليلُ من الخواجات ، وقال لي إنّها هيِ التي مزقّت الخواجة سنان بأشكال مختلفة ، وجعلتهُ متناقضاً في تكوينه ، فأصبحت سيطرته على نفسه مستحيلةً ، وأصبحت رؤيته لوجدانه الجماعي كعنصرٍ واحد في التنظيم عسيراً ؛ كما أنّهُ لم يكن مهيّئاً ليكون قويّاً ، وبالتّالي له القدرة أو الهيمنة على لجم تلك القوّة المتضاربة في نفسه ، فانحرفَ وانشقَّ وخان ، وبالتالي استحقّ الموت .

**

كان حديثه طويلاً معي هذه المرّة ، وأكثر تشعّباً من كلّ مرّة كنتُ زرتهُ فيها ، وقد استمعتُ إليه بشغف فريد من نوعه ، وأصغيتُ إلى هذا التنبّه المستديم والقادم من تنفّسه المسموع لفرط انفعاله ، وفي لمح البصر جال بخاطري أنَّ هذه الكلمات هي نهايةٌ أكيدةٌ للخواجة سنان ، ونهايةٌ لكلّ هذه المهارات التي اكتسبناها من كلّ تأمّل ، ومن كلّ تمرين على الاستغراق في الفكر ، ومن كلّ درسٍ ، وهي نهايةٌ حتميّةٌ للبراءة الممنوحة لنا كبشر ، والتي تجعلنا قبلٍ واقعة الموت في حالٍ من الرخاء المستديم ، لنلهو ونمرح طويلاً في خيالاتنا .

ومن جانبهِ هو فقد أحسّ إلهاماً ثانياً في حديثه ، فقد تحوّل بفضل صقل هذه السنين وسبكها إلى شخصيّة فريدةٍ من نوعها ، فهذه السنوات التي تعرّفتُ فيها عليه شاباً نقلتنيٍ إلى الينابيع الفيّاضة للفكر ، والتي اتخذت في حياتي شكلاً بهيجاً من المعرفة والعلم والفلسفة والشعر ، ولم أعد أتعرّضْ كما كنتُ أتعرّضُ في صباي للضلال .

ومع أنّي قابلتهُ أوّل الأمر بانحناءة عميقة ، وصمت طويل ، إلاّ أنّه لم يصمتْ ، وقد استمرّ في الحديث معي متتبّعاً آثار هذه الهزّة العميقة التي أصابتنا نحن أعضاء الطائفة بعد مقتل الخواجة عماد الدين ، ومستغلاً هذه الفورةَ من الحقد الأعمى التي أصابتنا على المذبحة التي نفّذها حرس الخليفة العبّاسي بالتنظيم ، وفي النهاية شرح لي تنفيذ هذا القتل ببساطة شديدة ، وبأكثر الكلمات تقشّفاً ، فقتل هذا الخواجة – الخواجة

سنان – الذي كان واحداً من أبرع أتباع الرسام يحيى الواسطي ، هو نوع من الذبح العادي ، وإن كان حكيماً متربّعاً على مجلس الخواجات عشرين عاماً ، إلاّ أنّه لم يكن سوى صبي فجّ ذي نزوات قاتلة ، منع ضوء الحقيقة أن يتسلّل إلى قلبه ، وحتّى واقعةُ قتله ، لا لتكونَ عبرةً للآخرين ، نسبة للخواجة عبّاس ، إنّما ليكون قرباناً لهذه القوّة الأخلاقيّة التي دفعتنا للالتحاق بالطائفة .

ثمّ ختم حديثهُ معي بزفرةٍ حرّى ، وأمهلني تنفيذ هذه المهمّة في غضون أربعة أيام ، دون أن أزيد عليها يوماً واحداً ، أبداً .

أوامر مجلس الخواجات

لقد كان أمرُ القتلِ صادراً عن مجلسِ الخواجات .

وقد أصدرَ الخواجةُ عبّاس بن محمّد هذا القرارَ نحوي بنبرةٍ شبيهةٍ بالأوامر التّي لا تقبل التأجيل ، موضّحاً لي طريقة عملي ، وهو الاستمرار والإصرار على التنفيذ دون السماح للنفس أن تضلّ أو تضعف أو تزلّ . وقال إن تصميمي يجب أن يكون حرّاً ، لأنّ ما تعلّمناهُ من قاموس بغداد الذي كتبهُ حكماء الطائفة ، هو صقلُ النفوس المتقشّفة ، والإرادةُ الحرّةُ ، وتركُ اللّواذ المستمرّ بالذات ، والتخلّي عن النزعة الفرديّة التي ولّدتْ على الدوام قوّةً هدّامةً للباطن ، كما حصل مع الخواجة سنان .

**

أعترفُ بأنّي استمعتُ إليهِ مشغوفاً بأسلوبهِ المذهل ، وبراعته المتأججة على ترويض القلوب والعقول معاً ، ومهاراته المتدفّقة في الكلام ، وقدرته على تحليل الأحداث ، ولغته التي كان يتلاعب بها بصورة عذبة .

لقد سردَ لي اليقينَ تلو اليقينِ حتّى جمّدني ، وعرض أمامي لغتهُ الفريدةَ التّي استقاها من لغة قاموس بغداد والتّي هي مزيجٌ مذهلٌ من الرياضيات والموسيقى ، ولم يكن قد عرّفني بنفسهِ على نحوٍ جديدٍ وفريدٍ فقطْ إنّما عرّفني على مبادئ هذه الطائفة العظيمة التي لم تكن يوماً موجودة لمنفعة شخصٍ واحدٍ ، إنّما هي للجميع ، هي لمدينة عظيمة استحقّتْ منّا أن نخدمها ، ونجود لها بكلّ ما نملك ، وبكلّ ما نستطيع .

فما هو مهمٌّ ذلك الوقت هو القاموس ، قاموس بغداد ، الذي سيحفظ بغداد من التهاوي ، والتقهْقر والانهزام والتهدّم والضياع والتلاشي .

فقاموسُ بغداد ، هو الكتاب الذي جمعتْهُ الفرقةُ الخواجيّةُ ، طائفتُنا السريّةُ التي تؤمنُ بأنّ اللهَ هو الصانع الأعظمُ ، وتؤمنُ بالرياضيّات ، والفنِّ ، والحكمةِ الأزليّة .

وهو موضوعٌ في صندوقٍ خشبيٍّ من السفرجل المزخرف بالذهب والفضّة ، كأعظم تركةٍ في الحكمة والفنّ ، منذُ أنْ أنزلَ اللهُ آدم على وجه الخليقة ، كما أنّنا في الطائفة ، طائفة الخواجيّة ، نعتقد أن هذا القاموس هو كنزٌ إلهيٌّ عظيمٌ يحتوي على كلّ أسرارِ بغداد وألغازها ، وهو سرُّ وجودها وبقائها وعدم زوالها .

طريقٌ ومهمّةٌ وعرة

لقد كنتُ أسيراً لمشاعر متناقضة في هذه الجلسة السرّيّةِ لمجلس الخواجات ، لا أقولُ إنّي سررت بما قالهُ الخواجة عباس بن محّمد الطغرلي ، على الإطلاق ، ولا أقولُ إنّي انزعجتُ ، إنّما شعرتُ بالاحساسين معاً ، وبالقوّة المّمزقةِ للنفس ذاتها .

ذلك لأنّي لم أكن واثقاً تماماً من قدرتي على قتل واحد من أبرع الخواجات في طائفتنا وأكثرهم حكمةً وفنّاً ، ليس هذا حسبْ ، إنما يتعلّق الأمرُ أيضاً بفعل القتل بشكلٍ أكيد ، ويتعلّق بما تعلمّناه من قيم أخلاقية في الطائفة ، وما أخذناهُ عن الخواجات من احترام فظٌ للروح ، وتقديس خشنٍ للنفس .

بل أقولُ ، لا أعرف كيف ، شعرتُ لحظتها بأنّي ممزّقٌ بهذا السرّ ، متردّدٌ ، ومضطربٌ . لقد تجمّدتُ وتلبكّتُ أمام هذا الصوت المهذّب المرتفع قليلاً ، واللغة الواضحة التلفظ والعارية عن أيّ تكلّف ، وهي تأمرني بقتل الخواجة سنان ، فشعرتُ للوهلة الأولى ، كما لو كنتُ في مواجهة الريح السوداء مضطرباً وممحّواً بالضياء المهجوس ، والذي يتجسّس عبرَ نوافذ المدينة في اللّيل ، بحثاً عن مكانٍ يكشفه ، وشعرت بأنّ من الحكمة أن أقول للخواجة عبّاس «نعم» ، وأقدّم للخواجات في المجلس موافقتي الصريحةَ كما لو كنتُ مغيّباً عن الوعي .

الموافقة على التنفيذ

لقد جلستُ لحظتها على تختٍ قريبٍ مغطّى بالسجاد

الأصفهاني الفاخر ، لأنظرَ مباشرةً إلى عينيّ الخواجة عبّاس بن محمّد المتوهجتين بشكلٍ ثابتٍ ، وكنتُ أتحسّس البغضاء الخفيّةَ التي كانت تمضغُ وجوه بعضَ الخواجات المحيطين به . ما كان لي أن أقول لهم بأنّي قد أُخذتُ بهذا القرار بغْتةً ، ولمْ أكنْ متهيّئاً لهُ على الإطلاق ، ما كانَ لي أن أنطق بهذا التصريح أو أكشفَ عن تردّدي في هذا الزمن العصيب الذي تمرّ به الطائفة ، وبدلاً من ذلك خرجتْ جملةٌ من فمي من دون السيطرة عليها ، جملةٌ عفويّةٌ خرجتْ من شفتيّ بشكلٍ خفيضٍ منطوقةٍ بتلعثّم كما لو كانت قادمةً من حلم :

- ماذا تقولُ؟ . . أقتلُ الخواجة سنان؟

كان الخواجات ممّن يحيطون به ، ينظرون في وجهي باستغرابٍ كامل ، وكنتُ أقلّب بعينيّ في وجوههم ، فتقدّم نحوي الخواجة عبّاس ، ووقف أمامي جامداً بعمامته البيضاء الكبيرة وبقفطانه الأسود ، كان يرمقني بنظرته المعبّرة ؛ وهو يهزّ أمام عيني بوجهه الشاحب إلى حدٍّ بعيد ؛ وأنا كمَن أصبتُ بدوار مديد ، فاقد القدرة على ضبط مشاعري .

- ما قولُكَ ، لماذا صمتٌ يا خواجة نصري؟ قال لي أحد الخواجات الواقفين خلفهُ ، فنظرتُ إلى الخواجة عبّاس بن محمّد وقلتُ لهُ مباشرةً دون أن أنظر للخواجة الذي صدر منه الصوت :

-سمعاً وطاعةً يا خواجة عبّاس . . . سأنفّذ أمرك وأوامر الطائفة .

فانفرجتْ أسارير وجهه العابسة .

II
اللقاء الآخير

عليّ أنْ أقول إنّ هذه هي المرّة الأولى (وهي المرّة الأخيرة بطبيعة الأمر) التي أرى فيها الخواجةَ عبّاس بهذه الصورة الرائعة ، والجديرة بأنْ تكونَ صورةَ آخر حكيمٍ لهذه الطائفة العظيمة .

لقد تكلّم معي طويلاً ، ظهيرةَ ذلك اليوم ، ومن خلفه استبانتْ لي أشرعةُ الزوارق البيضُ وهي تعبرُ دجلةَ ، كان هذا المشهد رائعاً ومتناسقاً مع كلام الحكيم الذي كان يستخدم ألفاظهُ معي بعناية كبيرة ، يستخدم المعنى والكلمة والحركة ليكون بطلاً جديراً في النظّام ، ويستخدم عدّتهُ كاملةً ليكون المثال الأعلى في الجدارة والتماس الحبّ ، والذي كاد يضيع ضياعاً تاماً بعد مقتل الخواجة عماد الدين بن ريحانة النقّاش مؤسس الفرقة ومبتكر النظام .

**

وقد قال لي الخواجة عبّاس ذلكَ اليوم إنّ انشقاق الخواجة سنان عن الطائفة وخيانته للتنظيم ذلك لأنّه قد أغمضَ عينيه متجاهلاً الحقائق التي تتمثل في محاولة الطائفة أن تستخلص

قوانين وعادات حياتنا الفكريّة ، من الرسالة الأخيرة الباقية من رسائل إخوان الصفا ، والتي تتخذ من البناء الروحي مثلاً أعلى ، وتقترب من تحقيق مثلنا في السياسة والحياة والفنّ وتجعلها لفتية بغداد نموذجاً صارماً .

وقد قال لي بأنّه أراد أن يفهمهُ بأنّ سعي طائفتنا كان يتحدّدُ بتحرير الفكرِ والعقيدةِ من أيّ سلطةٍ تعسفيّة ، وكلُّ ما واجهته طائفتُنا من شدائد ، كان بسببِ محاولاتها لتشريع الحريّة .

كانت طائفتنا تريد للعقل أن يكافح في تبرير هذه الحريّة الممنوحة لهُ ، وأن طائفتنا وفي كل ما بذلتْ ، وحتّى في هذا المجهود اليائس والدامي ضدّ السلطات التعسفيّة التي بطشت بها ، كانت تريد أن ترتفع بالإنسان إلى مكانةٍ تليقُ به ، وأنها لن تكون إلا بإقامة حرية متعاظمة الكمال ، وهذه الحرية هي التتمة المنطقية للنزوع القيامي ، وما أرادهُ اللهُ في نهاية هذا العالم أن يكون عليه الإنسان .

**

حين خرجتُ من منزله شعرتُ كما لو أصبتُ بدوارٍ مديد ، شعرتُ لحظتها أنّ أمر القتل والموافقة عليه استغرق منّي وقتاً ، ولكن فعل القتل ربما لن يستغرق مني وقتاً أطول من هذا ، ويا للمفارقة .

أخذتُ أسير بجوار النهر ، على الطريق ذاته الذي أتيتُ منه ، مفكّراً مرّة تلو المرّة ، بهذا الحدث السريع والمريع ،

ومستعيداً كلام الخواجة عبّاس بن محمّد كلمةً ، كلمةً ، مستغرقاً في التفكير بهذا الفعل الذي لن يكون تنفيذه سهلاً أبداً .

**

لقد علمتُ لحظتَها ، وأنا أحني رأسي موافقاً على تنفيذ هذا الأمر ، بأنّي ذاهبٌ هناك لأنفّذ إرادتهم ، وهذا القتل سيمرّ في التاريخ مثل كلّ حدثٍ آخر ، سيكون حدثاً صغيراً في تاريخنا يمرُّ مثلما تمرُّ كلّ الأشياء التافهةِ المحيطةِ بنا ، مثل موت شجرةٍ في الجوار ، أو عبور غيمة ، أو تلاشي الضياء ، وآلاف الأشياء الأخرى التي تمرّ بحياتنا ، ثم أخيراً سيغرق الخواجة سنان في الموتِ مثل زورقٍ صغيرٍ في سورةٍ عاتيةٍ من الماء ، وفي العمق البعيد من الأفق سوف لن نرى شيئاً آخر أبداً ، ربّما ، غير خبرٍ صغيرٍ سيكتبهُ كلُّ واحدٍ منّا في تاريخ الطائفة ، خبر صغير لا يلفتُ اهتمامَ أحدٍ ، ولن يبقى في بغداد غير الحرس السلطاني الذي سيهيمن على كلّ شيء في بغداد .

**

كان منظر دجلة في الظهيرة الشتويّة ممحوّاً بضبابٍ خفيف ، وقواربُ الصيد ساجيةً على رمل الضفاف الناعم ، وثمّة سفن بأشرعة بيض مغمورة بضوء ورديٍّ عظيم ؛ وسماء ذلك اليوم كانت تامّة الزرقة ، وعند التلال القريبة من سور بغداد العظيم ثمّة نسورٌ تدور محلّقةً ، تمرّ ببطء ، وتبتعد قليلاً ، ثم تعود لترتفع في أعلى السماء شائهةً .

فسألتُ نفسي وأنا أسيرُ على حصاني ، ممسكاً الرسن بيدي ومستمعاً إلى صوت الحدوات وهي تضرب على الطريق الحجري بصورة منتظمة : . . .

ما الذي سيتغيّر في هذا المشهد الجميل لو قتلتُ الخواجةَ سنان ، وأنهيتُ بخنجري المسمومِ شبابهُ ، وحريتهُ ، وشعورهُ الباطنيّ المتأجّج بالحياة؟

سأسير في هذا المكان بعد أن أخرج من منزله ماسحاً دمه الأحمر الساخن من على خنجري ويدي بخرقة ، وأسير مغمضاً عينيّ نصف إغماضة من شدّة نور الشمس الذي يبهرني ، ويسقط بصورة طولية على عمامتي .

قتل الفنّان

في الواقع ، لم يكن الخواجة سنان أحسن من الخواجة عماد الدين ، ولا أفضل من الخواجة عبّاس ، ولكني أفكّر ربّما بنفسي ، بيديّ التي ستقتلُ هذا الفنّان الذي شقّ الصخرَ بالأزميل ، وحفر القنواتِ التي سمحت لمياه دجلة بالمرور إلى الحدائق العبّاسية الشاسعة .

أفكر بقتل هذا الفنّان الذي كان من أبرع وأمهر تلامذة الخواجة يحيى بن محمود الواسطي ، وهو الذي نقل رسوم الواسطي من المخطوطات إلى جدران القصور ، وحتى الآن أشعر بوجهه مرتسماً في ذهني ، ضاحكاً لامعاً ، أشعر بيديه المتدفّقتين مثلَ موجِ النهر ، وبموهبتهِ التي نمتْ مثل الأشجار

البريّة ، من تلقاء نفسها في شقوق الأرض .

وحينَ كنتُ حدثاً ، وفي سني عمري الأولى في التنظيم ، كنتُ معجباً جدّاً بهؤلاء الخواجات ، وكنتُ أتوهّمُ أنّ موتَ أحدهم سيصيبُ العالمَ كلّه بالخراب ، بل كنتُ أظنُّ أنَّ قتلَ أحدهم سيجعل أسرابَ الصقورِ تفزّ من مكامنها ، وجوقات الزرازير تنطلق من أعشاشها في الصخور المحفورة وهي تصيح . وكنتُ أتخيّلُ أن أزهار الجنان ستذبلُ وتصفرُّ وتموت ، وأن النخيل الذي يمدّ جذوره في تراب شوارع محلّة الظفرية سيتهاوى ويسقط ، وأنَّ المروج التي تكسو جادات بغداد الطويلة والتي تصل حتّى سوق العتابين كلّها ستتلاشى .

ولكنّي بدأتُ أشعرُ باليأس شيئاً فشيئاً ، فلن يكون هنالك زلزالٌ على الأرض لمقتل خواجة من الخواجات .

لكن هذا الزلزال ، وهذا هو خوفي ربّما ، أن يكون في داخلي ، فبعد أن أقتل الخواجة سنان سيتحوّل وجهي إلى وجه آخر ، سيتحوّل وجهي إلى وجهٍ سميكٍ بقناعٍ متصلّب ، وجهُ رجلٍ طائفيٍّ ، جدّ متحمّس ومتعصّب .

Twitter: @ketab_n

III
صورة الخواجة سنان

فجأةً ، برزَ في خاطري وجهُ الخواجة سنان عندما رأيتهُ أوّل مرّةٍ ، قبلَ عشرة أعوام ، كان ذلك في محلّة أَبْرُزْ عند باب الطاق ، لا يمكن لي نسيان المشهد الذي رأيته فيه وقد كان يرسم على جدران أحد القصور :

نصفُ جسمه العلويّ عارٍ ، خشن الأضلاع ، وركبته مثنية ، كان يرتدي حزاماً متعدداً الحلقات ، وعصابةً رفيعةً من القماش الأبيض على رأسه ، ويلفّ على حقويْه إزارًا لا يصلُ إلاّ إلى ركبتيه العاريتين ، وبجانبه قِصاعُ الألوان الصغيرة وفُرَش التلوين ، والقادومُ والإِزميلُ والمساطرُ والإِبرُ الطويلةُ وسائر عدّة مهنتهِ ، وما بقيَ في ذاكرتي عن صورتهِ منذُ ذلك الوقت ، هو كيفَ كانَ يرسمُ وهو يرفع نحو فنّهِ عينين ساهمتين وعابدتين .

وها أنا اليوم عليّ أنْ أقتلهُ . . .

**

قبلَ اغتيالهِ كنتُ تخيّلتُ مشهدَ قتلهِ بالطريقةِ التالية .

بعدَ دخولي لمنزلهِ في محلّة قمر الدين ، عند بابِ أَبْرُزْ ، على الجانب الأيمنِ من سورِ بغداد ، سأربطهُ على كرسيّه

بحبلٍ ، ثم أخنقهُ بيديّ هاتين ، وبعدها أطعنْه خمسَ طعناتٍ في خاصرته ، حتى أشاهدَ نثيثَ الدمّ على ثوبي الأبيض ، حيث يصطبغُ وجههُ بلونٍ أزرقَ يميلُ إلى الفضّي قليلاً ، وعيناهُ تصبحانِ بلونٍ أبيضَ كامدٍ ، وجسدهُ بلونٍ ورديّ ناعم مستضاء عندَ الأطراف . وحينَ أخرجُ من منزلهِ أرى بغدادَ وقدْ التهبتْ كما التهبتْ لمقتلِ الخواجة عماد الدين بن أبي ريحانة النقّاش ، فتصبحُ السماءُ ناريّةً مثلَ ألسنةِ الحريق ، وتتكسّر حلقاتُ النار بدرجاتٍ لونيّةٍ متعاقبةٍ وتتبعثر في الهواء .

**

ذلك اليوم الذي رأيتهُ فيه ، كنتُ رأيتُ جاريتهُ أيضاً ، جاريتهُ التّي لم تفارقْ منزله إلاّ لماماً . وما كان لأحد أن يراها في السوق أو في الشارع ، وكنتُ ذا حظ عظيم يوم التقيتُ بها صدفةً في رواق منزله :

واجهتني مقبلةً بجلبابٍ حريريٍّ رقيقٍ مشقوق من عند الصدر ، ومن أعلاه قباء من المخمل مشدود إلى خصرها بمنطقة من حرير دمشقيٍّ ثمين . وفي أذنيها قرطانِ أبيضانِ يحيطان بجوهرتين كبيرتين .

وكان وجهها يستبينُ تحت برقعٍ شفّافٍ لا يخفي ولا يظهرُ كلّ وجهها ، وحين كلّمتني أسفرتْ ، أنزلت البرقعَ عن وجهها ، فبرز لي وجهها كوجهِ طفل ، وجه أبيض تحيط به ضفيرتانِ ، ومن الأعلى إكليل مرصّع باللؤلؤ .

عليّ أن أتخيّلها الآنَ وهي تحيطُ بذراعيها الجميلتين

الخواجة سنان ، وهي سابحة في الدمّ ، وجثّته خافتة النبض ، مفتوحة العينين ، وباردة الأطراف .

**

لقد كنتُ أدركُ أنّني بمقتلهِ سأُنهي آخرَ فصلٍ من فصول هذه الطائفة العظيمةِ ، الطائفة الخواجيّة ، وقصةً حكمائها الثلاثة ، أو قادتها الثلاثة الذين ِتربّعوا على مجلس الخواجات ردحاً من الزمن وهم :

الخواجة عماد الديّن بن أبي ريحانة النقّاش ، والخواجةُ سنان بن ميمون والخواجة عبّاس الطغْرلي .

كان الأول طبيباً بعمر يناهز الخمسين عاماً ، يرتدي زيّاً أنيقاً على الدوام ، تقفُ عمامتهُ على رأسهِ حتّى القمّة ، ومن القمّة يسرّحُ شعره الأسود الطويل حتّى الكتف ، له صوتٌ ناعمٌ ، صوتُ فنّان ، وحين يتكلّم تتحرّك ذراعاه النحيفتان .

أما الخواجة عبّاس فقد كان منجّماً وفلكيّاً وعالماً بالغيبيات يرتدي مسوحاً شبيهةً بمسوح الرهبان ، كان متقشفاً زاهداً وله نظرةٌ متوحشةٌ ، وخدّان شاحبان ، وملامحُ وجههِ حادّة ، وكان جبينه أشبهَ بقطعة مرمرٍ ترتسم عليها غضونٌ ناعمةٌ ، وحين يتكلّم يخرج صوتهُ من فمهِ وهو ساكنٌ كما لو كان مستنداً إلى قبر .

أما الخواجة سنان فقد كان بنّاءً ورساماً ونقّاشاً ، لهُ وجهُ فنّان حقيقيّ ، ضحكته الناعمة ، ويداه القويتان هما تجسيدٌ لفلسفته في الحياة ، وكان أسمر الوجه متورّداً كما لو أنّه ساقطٌ

من السماء وسط الزوبعة ، ولم يكن على وجهه سوى مكانٍ واسعٍ لضحكة مديدة ، أو ابتسامة مرحة .

فتنة سياسية

لقد كانت طائفتنا ضحيةَ فتنةٍ سياسيّةٍ كبيرةٍ ، أثارتها دعواتُ الخواجة سنان العلنيّة ، ذلكَ أن إعلانًنا عنْ قاموس بغداد وتهديم عنصرٍ أساسٍ من عناصر تشكّل طائفتنا وهي الأسرار استفزّ جهاتٍ عديدة ، وقد تزامن صراعنا المأساوي هذا مع تهديد خلافتنا العالمية ، وتعرّض بغداد إلى تهديد كبير .

لكن ما هو قاموس بغداد؟

لقد كان القاموس سلسلة لوحاتٍ تعكسُ بستانَ المعرفةِ في هذه المدينة المثاليّة ، والتي لم تنوجدْ بعدُ ، ولكن هنالك رغبة عارمة لإيجادها ، وقد كان الخواجة عماد الدين بدءاً من محاولته الأولى في كتابة هذا القاموس ، إلى عملهِ في تأسيس الطائفة ، وصولاً إلى المشهد الجليّ لاستشهادهِ عبّر عن أصالة هذه الرغبة العارمة التي جمعتْ أكثر خواجات بغداد في نظام السرّية الفطن الذي خضعنا لهُ ، غير أنَّ الجدل في الطائفة عبّر عن انشقاقٍ كبيرٍ ، انشقاقُ الخواجات وتجمعّهم في تيّارين واضحين ، تيّار مدرسة الأسرار الذي أرادهُ الخواجة عبّاس بن محمّد ، وتيّار الإعلان عن قاموس بغداد ونهاية عهد الأسرار الذي تزعّمهُ الخواجة سنان بن ميمون ، وهذا لم يرقْ الخواجة عبّاس ، وقد قال له بصورة عنيفة في مجلس الخواجات :

-إن القاموس يجب أن يكون سرّيا ، ذلك أن انتهاك أسرار القاموس يعرّض الطائفة لخطر الإبادة العالميّة ، ويحرّض عليها جهات عديدة من الفقهاء والقضاة والكلاميين . .

**

وقد كان الجميع يعرف أنّ نوعاً من الحبّ الصوفيّ يحدثهُ هذا القاموس لهذه المدينة ، ويجعلُ منها مدينةً مقدّسةً ، وربّما سيثيرُ غضباً من نوع ما على جميع خواجات بغداد ، بل إن سلطان هذا الحبّ يمكنهُ أن يستولي على قلوب الناس ويحدث نوعاً من الثورة الاجتماعيّة ، ولذلك كان الخواجة سنان يستعجلُ الكشفَ عن هذا القاموس ومعرفة تأثيره على الناس ، وكان من رأيه أن القاموس لا يزيل العداوةَ إزاء الخواجات ، من باب العمل بالنيّة الحسنة ، فقطْ ، إنما يخفّف أو يحذفُ إلى الأبد التقوّلات الكريهة التي أخذتْ تظهرُ عبر الرسائل الموضوعة ، والقصص المنتحلة عن هذا القاموس ، من أجل تهديم الطائفة وتقديم الأعذار لانتهاكها وإبادتها .

معالم القاموس

كان الخواجة عماد الدين هو الذي رسمَ معالمَ هذا القاموس ، وجعله يصوغُ لا مدينة على الأرض فقطْ ، إنّما يصوغ أمّةً أيضاً ، ويقدّمُ معالمَ أزمةٍ هائلة ، هذه الأزمة العصيّة على الحلّ هي التي أوصلتهُ إلى قضيتِه ، ومقتلهِ ، وقد دافع عن نفسه دفاعاً مذهلاً ، لقد أثبت أمام الجميع أطروحاته بمحاكمات

متماسكة ومعدّة بصبر وتأنٍّ ، وكانت الصفحات التي خطّها تجمع بين عنفوان الحبِّ المُقتضبِ والبراعةِ الجدليّة الحادّة .

لقد قدّم هذا الخواجة لبغداد حقبةً ازدهارٍ فريدة ، وقدّم لطائفتنا القيمة التي لا تقدّر بثمنٍ في حياة تتماثل فيها الأفعالُ الخارجية مع النيّات الباطنيّة .

لقد كانت سطورهُ في القاموس فريدةً في أسلوبها ، وقد اتسمتْ بهذا الثراء الفادح ، واستخدام فريدٍ للمنطق الأرسطي بصوره الحسيّة ، وللرياضيات الفيثاغوريّة بصيغتها المبتدعة ، وقد مهّد الطريق للخواجات للارتقاء بأفعالهم ليكونوا منذورين وشهداء روحيين في سبيل مدينتهم ، وعلى الرغم من كلّ البيانات العدائيّة والتي اتسمت بالكراهيّة والحقد والتي لا يمكن تجاهلها ، إلا أنّهُ برز كفيلسوفٍ عظيم يبشّر بقاموس بغداد ، وبمبادئ الطائفة ، وقد صرّح بالحقِّ وهو فوق جذعِ موته ، ليحلّ أضحيةً منحورةً في سبيل ترقّي بغداد ، وشهيداً روحيّاً من أجل قضية عادلة ، لا كمجنونٍ أو مشعوذٍ كما وصفه قضاة وفقهاء السلطان .

IV

مقدمات عن قاموس بغداد

هذا القاموسُ ليس كتاباً جامعاً لفنون بغداد وقصّة خلقها وأساطينها فقطْ، إنّما هو فنٌّ مطلقٌ لا يعتريهُ عيبٌ أو نقصٌ، أرادهُ الخواجات أن يكونَ بنسْختين: واحدة للعامةِ وأخرى للخاصّة.

فالنسخةُ المقدّمَةُ للعامّةِ هي التي تشْتملُ على معارفَ بسيطةٍ وجزئيّة، ومقدّمة إلى قرّاءٍ من خارج الطائفةِ، ولا تخْرجُ هذه النسخةُ على الديّن الشعْبي، ولا تحرجُ الحكّام.

أما نسْخةُ الخاصّةِ فهي النسْخةُ التي لا يفوقها مؤلّفٌ في الجلالِ والمهارةِ، مكتوبةٌ بلغةٍ رمزيّة هي مزيجٌ مذْهلٌ بين الرياضيّات ولغةِ الموسيقى، ولا يداولها إلا منْ هم داخل النظام، وتدورُ حولَ البناء الروحيّ لبغداد، وكلّ أفكارها مستمدّةٌ ببراعةٍ من المضلّع الروحيّ لرسائل إخّوانَ الصفَا، حيث كانت الرسالةُ الثالثةُ والخمسون المفقودةُ، والتّي عُثرَ عليها بعدَ مئة عام، هي الملهم الأوّل في كتابة هذا القاموس، وما أثرى هذا الكتابَ أيضاً هو سجالُ الطائفة ذاتها، والمتعلّقة بتاريخها القديم، وحياة إخوانيّتها السرّيّة، وأصولها، وأسرار بناء

مدينة بغداد التي كانت محطّة الرسائل الفلسفيّة وهدفها .

**

في الواقع ، إنّ معرفةَ الخواجةِ عبّاس (أحَدُ رؤساءِ الطائفة) للصلةِ التاريخيّة بين حياة وعقائد الخوارزميّ ، والسلسلة الذهبيّة للفلاسفةِ الفيثاغوريينَ ، وما يُسمَّى في العالم الإسلامي بالمجموعة الجابريّة ، واستدلاله على الشواهد التاريخيّة ، جعلَ أمرَ رسائلِ إخّوان الصفا عظيماً ، فطائفتُنا تستمدُّ من المصادرِ الفيثاغوريّةِ والجابريّةِ الكثيرَ من المعارفِ الكونيّةِ . كما أننا في الطائفة الخواجيّة ندّعي المرّة تلو المرّة ، أنّنا من أتباع فيثاغورس ونيقوماخوس ، وخاصة فيما يتعلّق بدراستنا للأعداد واعتبارها مفتاحاً لفهم الطبيعة ، وتفسيراً رمزيّاً للوجود ، وفضلاً عن ذلك نحنُ نقرنُ فيثاغورس بالحرَّانيين الذين تربطهم بالإخوان وشائج عديدة .

**

أمّا قاموسُ بغداد فهوَ موسوعةٌ علميّةٌ ذات طبيعة فيثاغوريّة الميول ، مقدّمةٌ بأسلوبٍ رياضيّ ، وتحاكي الكتابات الجابريّة العظيمة . فجابرُ بن حيّان الكوفيّ ، ونحنُ نسمّيه (الخواجةُ جابرْ) ، قد كتبَ رسالةً سرّيّةً ، وصلتنا عن طريق سلسلة المريدينَ ، قال فيها بأنَّ ما أراد تقديمه للمسلمين هي معارف حكماء الإغريق ، وخاصةً معارفَ فيثاغورس وأبولونيوس التيّاني (بالينوس) ، وليسَ هذا فقطْ ، فقد قدّم لنا الخواجة جابر حكمةَ اليمنيين القدماءَ التي قيلَ إنّهُ أخذها عن حربي

الحمْيري ، إضافةً إلى اطِّلاعهِ على علوم الهندوس أيضاً . ومهْما يكنْ فإنّ طائفتنا هي مجموعةٌ جَابريّةٌ ، وتضمُّ عدداً من العناصر ذات الأصول الفيثاغوريّة والهرمسيّة ، وبعضَ الأفكار المنسوبةِ إلى الفرس والهنود ، وحتّى الصينيين .

أما عن القصّة الحقيقيّة للقاموس ، وما تتناقلهُ جماعاتٌ سرّيّةٌ في التنظيم ، أقولُ إنّ هذا القاموس قد جُمعَ جمعاً ولم يكتبْ فقط ، إنّما كانت بعض نصوصهِ قديمةً قِدْم النّهر والشجر ، وهي مسطورةٌ في كتب الحكمةِ عندَ أهلِ خراسان ، وفلاسفة الإغريق ، وقد كانت على شكْل رُقم يطوفون بها على المرمر الأبيض العتيق في بلاد حرّان ، وقد قرَّر الخواجة خيرُ الزمان بنْ مسعود النقّاش ، وهو من المجموعة الجابرية وكان تلميذاً ليحْيى الواسطيّ -وهو من الأسماء المقدّسة في التنظيم- في بغداد ، وقد جمْعهُ من بين النصوصِ والرقوم والرقاع ، أما الواسطي فقد رسمَ الرسالةَ الثالثةَ والخمسين ، وهي الرسالةُ السرّيّة لإخْوان الصفا ، وقد أوصى بها إلى خواجات بغداد .

**

إن الفكرةَ الأساسيّة لجمعِ هذا القاموس هي حفظ بغدادَ من الزوال ، وجعلها سلطانةَ العالم على الدوام ، وقد أقرّ الخواجات أن هذه النصوص هي التّي تُبقيها المدينةَ الأولى أبدَ الدهور ، وبعْدَ وفاة الخواجة خير الزمان عُثر على هذا الأثَر من قبل بعض الخواجات ، فباشروا بإكمال نسْخه ، وجمع نصوصه وتدوين تعليقاته .

والحقّ أنّ من كتبَ تعليقاته وحواشيّه هم الخواجات الثلاثةُ الذين تربّعوا على رئاسة التنظيم، وهم سيّدي الخواجة عمادُ الدين بن أبي ريحانة النقّاش، والخواجة عبّاس الطغرلي، والخواجة سنان بن ميمون، وقد كتبوا ألف حاشيةٍ ومثلها من التعليقات الفلسفيّة، والتفسيرات الرياضيّة، والحسابات الفيثاغوريّة لبناء بغداد.

فالقاموس ربما هو الموضعُ الذي اختاره الله ليشيد عليه خواجات بغداد مخيلتهم، ولكي يؤسسوا لأهل بغداد مدينتهم المثال كما هي في مخيلة الجمال المطلق، جميلة كما هي في ذهن صانع الجمال.

**

ومن المفيد أن أقول لكم أيضاً إنّ هذا القاموس لم يكنْ وليدَ شكلٍ واحدٍ ناجزٍ، إنّما مرّ، في الواقع، بمراحلَ متعدّدة، فلم يكن أوّل نشوئه سوى نظريّة في الفنّ، وبناءٍ نظريٍّ متماسك عن الجمال، بدأت كتابته على يد الخواجة عمادُ الدين بن أبي ريحانة النقّاش رئيس الفرقة، وتكلّم فيهِ بإسْهابٍ عن التجدّد المدهش لبناء ونقْش وريازة بغداد، ثم تحوّلت هذه النظريّة الجماليّة بعد النقاشات والمجادلات والحوارات الطويلة التي أدارها الخواجةُ سنان في مجلس الخواجات شيئاً فشيئاً إلى نظريّة في المعرفة، أي عن العلاقة بين البناء والتخطيط الحضريّ والعمرانيّ للمدينة وتطوّرها الروحي منذ القدم وحتى حلولِ هذه الأزمان.

ثم سرعانَ ما تطورت لدى الخواجة عبّاس إلى نظريّة في الحكم .

أي عن التنظيم الهرمي الأكملِ بين الناس والحكومة ـ وهو الشكلُ الأتمُّ في علاقة الحكّام بالمحكومين ، وهو العدلُ المطلقُ الذي لا يعتريهِ نقص . وقد كان الخواجة عبّاس هو الذي كشفَ عن هذا التناغم الفذّ بين البناء الدائريّ للمدينة وحركةِ الروحِ التي تنتظمُ فيها مثلَ حلقة ، ومن ثمّ كشف عن الحركات الدائريّة المغلقة في التنظيم الهرميّ للحكم ، والذي يتساوى فيه الأعضاءُ عند كلّ دائرة ، حيث ترتبطُ الدوائر كلّها مع أصولها المرسومة منذ القدم بشكلٍ متناظر ، وهكذا يصبحُ التناغم تامّاً بين تخطيط المدينة الدائري ، وحركةِ روحها اللولبيّة الصاعدةِ ، والحكومة التي تنتظمُ فيها بشكلٍ حلقيّ ، وهذا هو السرّ الذي سيحفظُ هذه المدينة المدوّرة (بغداد) من الاختفاء والتلاشي .

لغة القاموس

لقد كُتب هذا القاموس باللّغة العربيّة بقلم نسخيٍّ دقيق ، وكتبتْ حواشيه وتعليقاته بالخطّ الكوفيّ الوسيطً ، ورتّبتْ أبوابه بثمانية وعشرين حرفاً ، وبين كلّ حرفٍ وحرف نقشت مآثر الولاة والخلفاء والسلاطين على شكل نقوشٍ ، كانَ نقّاشو بغداد وممّن كانوا ذلك الوقت أعضاءً أو ولائيّين للفرقة الخواجيّة ، يرسمونها سرّاً كل ليّلة ، بعد افتراغهم من جلسات العبادة في المحاريب المقدّسة المنتشرة في عموم بغداد ، وللقاموس حواشٍ

Twitter: @ketab_n

وتعليقاتٌ بحبر الزعفران مكتوبةٌ على أطراف متنه بالخطّ الكوفيّ القديم ، كتبها الخواجة عمادُ الدين بن أبي ريحانة النقّاش ، الذي عمّم الخواجيّة مذهباً وطائفة للصنّاع والمبتكرين ولأهل الحرف .

وقد وضع الخواجات هذا القاموس في صندوقٍ قديم لا يمسّهُ البلى ، ولا يمدّ الصدأ لمعدنه لسانه ، وقد كتبوا عليه :

«هذا كنز الطائفة الذي لم يُفتح قطّ لمعرفة. كل أسراره إلا من قبل الحكماء والخواجات ، أما المعلوماتُ الجزئيّة فيه فهي معروفة على نطاق واسع في بغداد ، ومن لدن طبقات عديدة . وهي دعوة الطائفة للسعي إلى سعادة النفس عن طريق العلوم والفنون والصناعة والبناء الذي يطهّر النفس ، معلنين أن بغداد هي مدينةُ الإنسان الكامل ، وأنّنا في الطائفة على قناعةٍ من أنّ هدف الأديان والفلسفات هو تشبّه النفس بالله بقدر ما يستطيعهُ الإنسان ، لذا فإنّ خواجاتنا هم من جميع الأديان ، وهم الذين أوعزوا بكتابة قاموس بغداد ، ليكون دستورَ المدينة الفاضلة ، وملهم الإنسان الكامل على هذه الأرض» .

الصفحة الأولى من القاموس

تكشفُ الصفحةُ الأولى من القاموس عن هذه السلسلة الذهبيّة للطائفة ، فثمّة رسمٌ قاتمٌ في غاية الجلال والرصانة يظهر في الخلفية وفي الأفق البعيد ، مدارسَ بغداد الفلسفيّة ومفكريها :

فهنالك مجموعةٌ من الرجال ما قبل وما بعد إخوان الصفا يتجادلون ، وفي المقدمة يظهرُ فلاسفةُ الطائفة الثلاثة : الزنجاني والبستي والمهرجاني ، وبعد إخوان الصفا نرى الفيلسوف ابن سينا بردائه الأصفر ، والإخوة الثلاث من أبناء موسى ينحنون فوق رقّ مخطوطة بأحرف عربية .

وأمام منظر الرصافةِ نرى الكرخَ بمساجدها وقببِها الرائعة وفرقها العسكريّة ومحاربيها الشاخصين القاهرين ، مقابل مجموعةٍ صغيرةٍ جداً من الرجال الصغارِ مزوّدين بالريش وموادِ الكتابة ، وخلفهم مجموعةٌ من الرجال ، نتعرّفُ إلى هؤلاء كمجموعةٍ فلسفيّة كبيرةٍ من أنجال الفيثاغوريّين مثل جابر بن حيّان الكوفيّ وثابت بن قرّة ، وأبي بكرٍ الرازيّ ، وأمام هذه المجموعةِ وحتّى الصرح الذي يبدو عليه الثراء هنالك الثلاثي الفلسفيّ الفارابي والكندي وأرسطو ، وأمامهم خواجات الطائفة العظام : الخواجة عماد الدين ، والخواجة عبّاس ، والخواجة سنان .

V

شباب الطائفة

لقد اتبع الطائفة الكثيرُ من الفرسان اليافعينَ الذين تميّزوا في بغداد بعمائمهم القرمزية الصغيرةِ ، وقفاطينهم البيض ، وهؤلاء همْ من أبناء طبقةِ أشراف بغداد والأسر العريقة الذين اشتهروا بالشجاعةِ شهرةً أسطوريّةً ، وتربّعوا بسبب ثرائهم على القمم .

ومن المعروف في بغداد أنَّ هذه الطبقةَ منذُ عهْد الخليفةَ المسترْشدِ بالله لمْ تعدْ طبقةً خاملةً ، أو ملتحقةً بطبقاتِ الصنّاع كما كانتْ في زمن خلفاءِ بني العبّاس ، إنما أثْرتْ ثراءً هائلاً بسبب انتعاش العمرانِ بقوّة تلك الأيّام ، وأصبحتْ أعرقُ الأسرِ تعودُ إلى طبقةِ البنّائين ، وانخرطَ أبناؤهم في الوظائف العامّة ، وخدمةِ الدولة ، وفي طبقةِ الحرس الخاصّ بالخلفاءِ والأمراءِ والسلاطين ، غيرَ أنّ هؤلاء الفتيان الذين يتشبّهون بفتيان إسبارطةَ لم يشاركوا أبناءَ التجّار لذّاتهم المحمومةَ والتي وصلتْ إلى متع السأم الرفيع ، ولم ينخرطوا في مجالس اللهو التي كانتْ تزدهرُ ازدهاراً في بغداد ، ولم يطمحوا إلى المناصب العليا التي كانَ يتطّلعُ لها أبناءُ الوزراء والضبّاط والتجّار ، إنما

كانوا يقضونَ أوقاتهم بالفروسيّة ، وقرضِ الشعر ، وقراءة الفلسفة ، والتمرّن على الرياضيّات .

**

وقد استمدّت طائفتنا عظمتها من هؤلاء الفتيان . فلا يمكن للعين أن تخطئهم ، فإنّهم وإن كانوا من شبّان المدينةِ الأثرياء إلا أنّهم ليسوا من الفاسدين الذين يمضون الوقتَ بخيالاتهم المتعطّلة التي تطفو على حياة أبناء الأثرياء والأسر الموسّرة ، ولا من الباحثين عن الحياة المتبطّلة التي تمارسها الطبقاتُ المحيطةُ بالحاشية والحرس ، ولاسيّما من أبناء الصيارفة ، وجباة الضرائب والتجّار .

بل بالعكس فقد انخرطوا مباشرةً في الطائفة السريّة التي أسسها الخواجات ، وبعد فترة وجيزة اتسعت هذه الطائفة على نحوٍ غير مسبوق لتضمَّ الكثيرَ من أبناء النقّاشين والبنّائين ومزوِّقي القصور والمنازل ، وقد انخرطوا في تعلّم الفلسفة والرياضياتِ والحكمة الأزليّة ، وقالوا بالسعْيِّ إلى سعادة النفسِ عن طريق الفنون التي تطهّر الروح مثلَ البناء والنقْش والتزويق ، وآمنوا بمبادئ الطائفة من أنّ الله هو الفنّان الأوّل الذي عني بالبناء والصناعة والتقويم ، وسار هؤلاء الفتيان وراء فلاسفة الطائفة الثلاثة ، وبوجودهم أعضاءً في التنظيم بعضلاتهم المفتولة ، وأجسادهم الجميلة ، وملابسهم الملوّنة منحوا الطائفة صورةً مختلفةً عن كلٍّ الطوائف الأخرى .

**

إن طائفتنا تؤمن بإن ما تمّ من قاموس بغداد يثبتُ خلودَ بغداد ، يثبتُ خلودَها واستمرارها عبرَ الآثار القليلة التي استطاع الخواجات العثورَ عليها في الرسالة الثالثة والخمسين من رسائل إخوان الصفا ، ومن المخطوطات القديمة والموجودة منذ زمن قديم ، والتي لم تكن سوى شتاتِ أفكارٍ صغيرةٍ ، وعلامات وأدلّةٍ روحية متناثرة كانت تتصف بالغرابة والتناقض ، غير أنّها سرعانَ ما نمت في العصور المبكّرة ، نمتْ مع الفيثاغوريّة والهيلينيّة التي لا بدايةَ معروفةً لها ، ولم تكنْ ثمرةَ جهودٍ شخصيّة ، إنما لرغبةٍ ملحّةٍ عند العديد من الفلاسفة والحكماء والمفكّرين في تأليفِ كتابٍ يستغرق المذاهب كلها ، ويجمع العلوم جميعها .

وأن يصنع في مدارس الإخوانيات فتيةً تعيش مع الكتابة البارعة في الحساب والبلاغة ، وحفظ الشعر ، والتبصّر في الفلسفة ، والتصرّف في الفنّ وعلم الكيمياء والفلك . وقد كتب الخواجة عماد الدين فكرة الطائفة على شكل رسالة أرسلها إلى نفرٍ غير قليلٍ من الخواجات ممن اتبّعوه ذلك الوقت .

شبكة عالية التنظيم

وهكذا اجتمعت الطائفةُ على القاموس ، قاموس بغداد وتأسّست بشبكةٍ عاليّة التنظيم ، ففيها الرؤساء الثلاثةُ - وهي درجةٌ من درجاتِ الحكماء الإلهيين - وهم الخواجةُ عمادُ الدين ابن أبي ريحانة النقّاش ، والخواجةُ عبّاس الطغرلي ،

والخواجةُ سنان بن ميمون :

هذه المرتبة هي الأعلى في الطائفة ، حيث يكون فيها التسليم وقبول التأييد ومشاهدة الحق عيانًا .

بعد ذلك مجلس الخواجات ، ويمثل هؤلاء القوة الناموسية الواردة بعد بلوغ الإنسان الأربعين من العمر . ويطلقُ العامّة عليهم بخواجات بغداد ، وهمُ الرتبُ الأعلى في التنظيم ، وعددهم اثنا عشر ، على عدد الكواكب المذكورةِ في القرآن .

ويليهم الحكماءُ وعددهم ثمانيةٌ وعشرونَ خواجةً على عددِ أحرفِ القاموس ، وهم مَن يملكون الشفقة والرحمة على الإخوان . وأعضاؤها من عمر ثلاثين فما فوق .

ويليهم الصفائيّون وعددهم خمسونَ على عدد أبراج الحكمة عند فيثاغورس .

ومن ثمّ عشرة آلاف من المهندسين والحكماء والفلاسفة في بغداد ، وهم مَن يملكون صفاء جوهر نفوسهم وجودة القبول وسرعة التصور . ولا يقلُّ عمر العضو فيها عن خمسة عشر عامًا ، ويطلق عليهم بالولائيين .

**

إنّ غاية الطائفة الحقيقي هو الخلاصُ عن طريق البناء والفنِّ والحكمة ، وتعبيد سبيل العدل والرحمة ، وعلى العضو المنخرط في التنظيم أن يمرّ في اختبارٍ شديد ، وحياة صعبة ، ليكونَ التشبُّه بالإله على قدر ، والاستشهادُ بأقوال الفلاسفة على قدر ، ويمر هذا الطريق بالكندي وأرسطو والفارابي وأفلاطون

وورثة النبي إدريس من الحرّانيين، والفيثاغوريين وحماة الهرمسيّة وغيرهم، ويمرّ بكل ما يصبُّ في نهر الحكمة، وما يتوافق معه للوصول إلى خلاص النفس من أسْر الطبيعة وبحر الهيولى.

فالعلومُ والفنونُ هي مفاتيحُ الخلاص والطريق إلى تشييد المدينة الفاضلة، وبناء الإنسان الكامل، والترقيّ في سلّم الصعود الذي يقدّمه السرّ، وممّا يقع على السرِّ أيضاً، وهي مدوّنات بلغاتٍ مختلفةٍ مكتوبةٍ على رقع كثيرةٍ، أمر مجلس الخواجات بجمعها، وقد جمعناها لا من مصنفات التاريخ والفلسفة فقط، بل حتّى من كتب الأسمار التي ألّفها ابن عبدوس الجهشْياري، وأخبار العبّاد البغدادي عن ملوك بغداد وخلفائها وسلاطينها، وما كان في حكاياتهِ من الكوائن والحوادثِ البغداديّة العجيبة.

**

وقد صمّم الخواجةُ عماد الدين هذه القطعَ المتناثرةَ بهيئةِ كتابٍ واحدٍ، أمّا الحكيمُ الأوحدُ عبّاس الطغْرلي فهو الذي نبّه مجْلسَ الخواجات إلى إشاراتٍ مدسوسةٍ، على شكْل رموزٍ وأسرارٍ وأرقام عند الحكيم فيثاغورس، والفيلسوف الأكبر أرسطو، وعند الفارابي في حكمه وكتبه، وعند صاحب الشفاء أبي علي الحسين ابن سينا، وعند جابر بن حيان الكوفي.

وبعد أن استتبَّ الأمرُ للطائفة من الناحية الفكريّة، ومن الناحية التنظيميّة، أرسل مجلس الخواجات نواباً عن الطائفة

في جميع المدن والأمصار الإسلاميّة ، فقد تم إرسال الخواجة نصر بن اسحق إلى مدينتي حلب و بخارى وسمرقند ، وإرسال الخواجة يونس البغدادي إلى دلهي وحيدر آباد ، والخواجة طاهر الفارسي إلى قندهار وبلخ ، والخواجة عمر السمرقندي إلى ترمذ وغزنة وبوزجان ، وتمَّ إرسال الخواجة قاضي زاده إلى طليطلة وقرطبة واشبيلية ومرسية ، وإرسال الخواجة الطبيب الحجَّاج بن سعيد إلى سراييفو ، والفلكي الخواجة جابر بن يوسف إلى أصفهان وتبريز ونيقيا .

عمل المؤرّخ الورع

أقولُ اليومَ وبعدَ كلّ ما جرى للطائفة ، إنّ من يدركُ النظريّةَ الخاصّة بهذا القاموس يدركُ قدسيةَ اللحظات التي عشنا بها مع هؤلاء الخــواجــات ، ومع هذا الكتــاب بالذاتّ ، ذلكَ أنّ القاموس ، قاموس بغداد ، هو حقّاً من عمل المؤرّخ الورِع ذي الضمير ، ولا يستعصي على الفرقة الخواجيّة إنجازهُ ، لولا الخلاف الذي أثاره الخواجة سنان .

هذا القاموس لم تخترعهُ الفرقة الخواجيّة أبداً ، كما زعم القاضي عبد الرحمن بن أبي عبيدة السرّاء ، ولا كما زعم المحرّفون ، والدجّالون والموسّوسون ، إنّما هو موجودٌ من زمنٍ بعيد جدّاً ، وتعرف بأمره أممٌ وولاياتٌ وأمصار كثيرة ، وذكره كثيرٌ من الحكماء والمبشرين والصوفيين والفلاسفة .

وكان يمكن أن يكون يوم اكتماله بهجةً للخلق من البشر

والشجر ، كان يمكن أن يكون يوم اكتماله اغتباطاً للناس ، حتى تصبح الأرض كلّها مروجاً ، ويصبحُ الشجر المنتشر هنا وهناك بنباتاته البريّة غابةً ، وتصبح الأرض الجرداء فرجةً مخمليّةً ممتدّةً ، وتتحوّل قمم الجبال معابدَ فخمةً متوجةً بالأكاليل الخضر في سماءٍ من نار ، وترتعش على مبعدة منه بغداد ، وتسبحُ في موج الأفق كما لو كانت تسدل ستارتها ذات الطيات الواسعة على المشهد .

وعليّ أن أقول الآن ببهجةٍ غامرة رغم الحزن الذي يعصر قلبي ، إنّ هذا القاموس المقدّس قد نجا من الفتنة الكبرى ، الفتنة التي ذهبت برقاب زهرة شبابنا ، أما حزني العظيم الذي لا يزول هو بسبب خيانة الخواجة سنان والتي أدّت إلى مقتل الخواجة عماد الدين ، وأكثر مجلس الخواجات أيضاً ، وقد اختفى الخواجة عبّاس الطغْرلي ، بعد أن نجا من موتٍ أكيد .

ولولا براعة الخواجة عماد الدين باستخدام تنظيم خيطي دقيق للفرقة الخواجيّة بحيث لا تكون أسماء أعضاء النظام مكشوفة ، لتعرّضت هذه الطائفةُ العظيمةُ إلى إبادة حقيقيّة ، وضاعت حقيقتها ، وضاع قاموس بغداد المقدّس ، ولتعرّضت المدينة حتماً إلى الزوال .

**

وهكذا لبستُ عمامتي ، وحزمتُ خنجري على خصري ، وأسرجتُ فرسي ، وتوجهتُ عازماً على مقتل الخواجة سنان .

ولكن قبل أن أصفَ لكم ذهابي لتنفيذِ هذه المهمّة ، أودّ أن

أتكلّم لكم عن حياتي ، وعن كلّ الأحداث التي شهدتُها في بغداد ، علّها تضيءُ شيئاً من حياة هذه الطائفة ، أو من قاموسها ، قاموس بغداد ، أو تضيءُ شيئاً عن قبولي بهذه المهمّة .

الفصل الثاني

أسماءُ العلمِ، خواجاتٌ علماءُ، ألقابٌ وتجارٌ

I
فخرُ اسم العلم حينما يطلقهُ التجّارُ التركمان

اسمي نصرُ الدين البغداديُّ . وقد أطلق عليّ التجّار التركمانُ في خوارزم ونيسابور اسماً آخر هو «نصرتْ خوجةْ» ، الاسم الذي اشتهرتُ به في ذلكَ الزمان ، بسبب إقبال الناس الكبير في بغداد والأمصار العباسيّة الأخرى ، على الآداب والفنون . وفي هذا الاسم ثمّة صدى واضح لسيرتي الطويلة وتجذّري العميق في عالم الأفكار ، والفنون ، والفلسفة ، أما «الخواجة نصري» ، فهو اللّقب الذي كانَ يطلقهُ عليّ أهلُ بغداد والبصرة وخراسان بشكلٍ أخصّ ، وقد اشتهرتُ به في كلّ مكانَ فيما بعْد . ذلكَ أنّ الخواجيّة هي رتبة يطلقها أهلُ بغداد ، منذ عهد الخليفة العباسيّ المُسْتنصرُ بالله ، على الصنّاع والفنّانين ، ويطلقونها على الحرفيين المهرة ، وعلى الفلاسفة أيضاً . فالخواجة هو العارفُ والمعلّمُ والمهنّدس والفنّانُ والفيلسوف والمنجّم والحكيم أيضاً .

**

ولدتُ في درب الدينار الشهير في محلّة الحربيّة . إلى الشرق من القطيعة سونايا ، بين منزلي التاجرين الثريّين هارون

المدايني وبهرام الفارسي . وقبالة منزل أبي طاهرٍ الساوي ، الذي كانَ يستقدم الجارية هزارة لتغنّي في حديقة منزلِه .

ولدتُ في منزلٍ كبيرٍ تحت سقفه العالي خمسةُ غرف ، وغرفةٌ كبيرة استخدمها والدي لأبحاثه الفلكيّة من جهة ، ومن جهة أخرى في نقش وتزيين قاموس بغداد . وكانَت تُعقد في منزلنا مجالسُ للفكر والجدل عديدةٌ ، حيثُ تتلى فيها قراءات متنوعةٌ لعلماء قادمين من كلّ الأمصار والولايات ، من كلاميين وفقهاء ولغويين ، ولا تقتصر هذهِ القراءات على الشؤون الدينيّة إنّما على الدنيويّة أيضاً ، وهي على غرار المجالس التي كانَت تُعقدُ في دار الحكمة لبني المنجّم ، أو في مكتبات الورّاقين في قطيعة الربيع وفي باب الطاق ، أو في المشافي ، مثل بيمارستان السيّدة الذي كانَ يديره محّمدٌ بن زكريا الرازيّ الشهير ، أو بيمارستان شغب أمّ الخليفة المتوكّل ، وقد أصبحَ تحتَ إدارة سيّدي الخواجة عماد الدين بن أبي ريحانة النقّاش .

**

تطلُّ بوّابات منزلنا الخلفيّةُ الكبيرةُ على نهرِ دجْلة ، من جهةِ الرصافة ، أما مقدمتهُ فهي تطلُّ على منحدرٍ وعرٍ تنتشر فيه قرى الفلاحين النبط ، وعلى طول المنحدر تصعدُ حقول الرعي حتّى مزارع النخيل ، الشامخ والداكن ، كانَ ذلكَ في عصْرِ الوزير زيّن الدين النيسابوريّ ، آخر وزيرٍ من نيسابور ، لخلفاء بني العبّاس .

هذا الوزير ، كما أكّد جميع المؤرّخين في التنظيم ، كان من

أنصار الفرقة الخواجيّة ، وقد أعجب بكتاب القاضي صاعد ، الذي شرح قصة وفاة الحكيم اليوناني سقراط في كتابه طبقات الأمم ، ويقال أيضاً ، إنّهُ كانَ سرّاً أحد أعضاء الطائفة الكبار ، بل وصل في رتب التنظيم إلى مجلس الخواجات ، قبل أن يدبّر له السلطان مقتلةً دنيئة .

**

من هذا المكان كنتُ أطلُّ ، كلَّ صباح ، كي أشاهد موكب الخليفة العبّاسيّ وهو يمتطي جوادهُ الأسودَّ ، ومعهُ قافلةٌ مؤلّفةٌ من الحرّاس والحجّاب والوزراء والقهرمانات ، ومعهم ثمانية عشر جواداً تسير على التوالي ، وفي نهاية القافلة هنالك أربعةُ خيول تحمل الأمتعةَ ، وكانَ يسلكُ طريق النهر متجهاً صوب خانات دجلة ، وقرن السراة ، وقبا شعير ، وسوق السبت ، ثمَّ يمرّ بالرصافة القديمة ، ويعبرُ حدائقها المحفوفة بالزهور البيزنطيّة العجيبة ، ثمَّ يتتبع الضفة الرمليّة للنهر حيثُ تغسل موجات دجلة بزبدها حوافر خيول قافلته ، ثمَّ ينطلق في العودة ليتخذ الرصيف الترابي من عندَّ طسوج كلواذي التي تحيط بها الصخور الضخّمة ، والتي ترتفع عالياً حتّى تطوق ضفة النهر .

أما السراة من عندَّ النهر فإنّها تتحول بعدَ أن تمرّ قافلته بعدَ الظهيرة إلى مكانَ لصيد السمك ، حيثُ يرمي الصيّادون الشباك إلى النهر ، وينتظرون صيدهم طويلاً بينما تبقى سيقانهم حتّى حلول المساء مغمورةً بالمياه .

**

ومن هذا المكان يمكنك أن ترسل طرفك في الصباح حتّى ميدان السوق الذي سقفت دكاكينه ، من عندّ قرن السراة ، ويمكنك أن تتبين سرادقات سوق التجّار وقوافلهم في الشينزية ، والبغال المسرجة التي تحمل الصناديق في سوق البزّازين عندٌ أعيان تستر ، والغلال كأكوار الصوف في ربضِ بابِ الشام ، والتمور مكدّسةً على شاطئ دجلة ، أما من الجهة الأخرى فهنالك المزارع والبساتين التي تحاذيها قصور الحرس وضبّاط الجيش ، وفي العمق تكايا الصوفيين ، والشارع العريض الذي يبدأ عندّ درب الدينار ، وقصبة العبّاس ، ومحلّة الظفريّة ، ومئذنة جامع السلطان مسعود ، وشمالاً جامع العباسيّين ، وسوق الخراف ، وعرباتُ الباعة الجائلين من صغار تجّار السمك وهي تتوسّط الميدان . وبجوارهم قرادون يلعّبون القرود ، وحواة مع الأفاعي ، وراقصون ، ومهرّجون ، وشعراء يصعدون ناصية الشارع المتّجه إلى باب السلطان .

وفي وسط المدينة هنالك المساجد ، والمكتبات ، ودواوين الحكومة ، والحمّامات ، والمطاعم ، وخانات المسافرين ، والبيمارستانات ، والأسبلة لتقديم الماء القراح للشرب في الشوارع .

**

ويُقالُ إن الوزير زيّن الدين النيسابوريّ هو الذي أطلق عليّ اسم نصر الدين :

فقد سمعتُ من ليل وهي جاريّة حبشيّة جلبها الخواجة

ميرزا وهو صانعٌ ودهقانٌ كبيرٌ من دهاقنة خوارزم ، إلى الوزير زين الدين النيسابوريّ ، (بعد مقتله بيعتْ في سوق النخاسة فاشتراها والدي ، وأصبحَت واحدةً من جواري منزلنا) .

قالَت لي إنّ والدي يوم مولدي كانَ في زيارة للوزير زين الدين ، وقد وصل بغداد ظهراً ، بعدَ أن رافق جدّي لأمّي برحلة شاقّة أمضاها بين سمرقنْد وبخارى ، وكانَ جدّي قد انتدبه أحد الدهاقنة الأثرياء هناكَ ليشيّد له حمّاماً كبيراً ، وقصراً عظيماً لنسائه وجواريه ، وما إن عاد والدي حتّى سمع بمولدي ، ولكنّه أمضى الظهيرة كلّها في منزل سيّدي ومولاي الوزير ، وهي دار قريبة من دار سعيد بن مخلّد ، أسفل الجسر على الجهة اليسار من دار سليمان بن وهب ، في الفترة التي ترأس فيها الخواجةُ عماد الدين الفرقة الخواجيّة .

**

وقد أخبرتني ليل أنّ والدي بوجهه المتعرّق والمتعب من السفر دخل منزل الوزير الذي استقبله مرحباً به ، ثمّ جلسا على تخت منجّد ، ومفضّض الرقبة في الظلّ ، في حديقته الخضراء الوارفة ، المملوءة بأشجار فواكه الرمّان والأترنج والتّفاح ، وأخذ والدي يتحدّث له عن رحلته إلى سمرقند وبخارى وهو يعبُّ مستنشقاً ، من الحديقة العظيمة الشذى اللذيذ ، والبرودة الرهيفة .

وكانَ الحلاّق أبو سعيد ، وهو روميٌّ أصهبُ ، واقفاً أيضاً بين يدي الوزير ، يمسك طشتاً فضيّاً ، ويخضّب بالحنّاء لحيته

العظيمة التي اشتهر بها ، ويصبُّ من إبريقٍ فضيٍّ على رأسه بماء معطّر بالياسمين ، بينما ، يضع الوزير علىَ اللحيّة المخضّبة منديلاً أبيض لئلاّ يفسد ماء الورد حنّاءها .

قالَ الوزير لوالدي بصوته الأجشّ ، وهو يغمضُ ويفتحُ عينيه تحت صبيب الماء :

- الأفضل أن تشيّد الاصطرلاب أولاً وأن تعلّم علم الفلك فيما بعدَ . ثمَّ قل ليْ هل فتحتم خزانة كتب الفلك والطب في بيت الحكمة؟

- على هذا جئتك بأنباء طيبة! ردّ والدي . طيبة جداً حتّى ما عليك أن تفعل شيئاً سوى أن تحثّ أحد البنائين ليشيّد لنا الخزانة ومن ثمَّ الاصطرلاب .

- يا إلهي ، ماذا تقول يا خواجة بهاء الدين؟ قالَ الوزير ، إيّاك أن تخدعني ، أو تُبدّل أحزاني الحقيقية بأفراح زائفة .

ـ ماذا أجني بخداعك يا سيّدي إذا كنتُ قريباً جدّاً من كشف الحقيقة؟ انخسْ حصانك واذهب إلى الخليفة ، فقد أمر بتشييد الأصطرلاب وخزانة الكتب أيضاً .

- لقد فرّجت كربتي يا خواجة ، أنا سعيد بما تقول ، ومتى ستباشر عملك؟

- اليوم وُلدَ لي مولودٌ جديد . . ائذن لي بالبقاء مع والدته يومين وسوف ألحق بالمهندسين ثمَّ بعد .

- مولودٌ جديد؟ يا لهُ من خبرٍ عظيم ، وهل أسميته؟

- لا يا سيّدي ولكنّه من فمكَ سيكون اسمه من ذهب ،

وحظّه من ماسات وياقوت .

- «سمّه نصر الدين . .»

**

وقد سألت والدي عن حقيقة هذهِ الواقعة ، وقد أكّد لي ذلكَ .

- هل صحيح يا والدي أنّ من سمّاني نصرُ الدين هو سيّدي الوزير والخواجة زين الدين النيسابوريّ رحمةُ الله عليه .

- طبعاً ، طبعاً يا ولدي ، كان هو أوّل من أطلق عليك هذا الاسم ، وكنت عائداً لتوّي من بخارى ، وصادف أن زرته في منزلهِ ، وكانت ليل تخدم ذلكَ الوقت عنده .

- نعم ، هي التي حدثتّني عن هذا الأمر يا والدي ، وهذهِ الحكاية تفرحني وتسعدُني جدّاً ، ولكنْ أخبرني يا والدي وهل أخذت بالاسم فوراً؟

- في الواقع ، لا ، مع أنّي طلبت منه أن يسمّيك ، ومن هذهِ الناحية كان عليّ الالتزام بذلكَ ، ولكنْ حدث شيءٌ آخر جعلني أتفاءل به .

- ما هو هذا الشيءُ يا والدي؟ أنا سألتهُ ، أخبرني بربّك عنه!

فقال : «حينما حلّ الأصيل ، خرجتْ جواري قصر الوزير بفساتين الحرير ، والتقينَ بقهرمانات الخليفة ، وذهبنَ معاً لقطفِ الورد ، فقد انتهى نهارُ الصيف البديع ، بسمائهِ التي تكاد تكون غامقةَ الزرقة ، وبأعشابه التي تطلق العطر في الحديقة ،

وبقرنفله الأبيض الفضّي والأحمر المتوهّج ، وفراشاته الملّونة التي تدور في كلّ أنحاء المكانَ» .

- ولماذا تفاءلت بذلكَ؟

- أولاً ، لأنّ الاسم جاء من خواجة له تقدير رفيع داخل الطائفة ، وبعدَ ذلكَ كان وزيراً ، ومن ثمّ جاءت قهرمانات القصر إلى منزله . . . ومن ثمّ كانت هذه المشاهد الخلاّبة في الحديقة ، والطقس الرائع الذي أحاط بكلّ هذا ، حتّى كأن الله صنعَ لك حياةً سعيدةً بمشاهد طبيعيّة لا مثيلَ لها ، فعدّيت هذا المشهد فألَ خيرٍ بالاسم . .

- أهكذا نتفاءلُ نحن بالوزراء والملوك؟

- طبعاً ، لقد كان يوماً عظيماً ، وكنتُ أدركتُ في داخلي أن الوزير نطق بالاسم في لحظة إشراق نبوءي ، واستشرف بأمرٍ من الله ما ستؤولُ عليه حالتك وحياتك في الأعوام القادمة . ستكون نصراً للدين وعوناً للطائفة الخواجيّة . . .

ما كانَ يعتقدهُ والدي

هكذا كانَ والدي يعتقد ذلكَ الوقت ، أن الله سبحانه وتعالى هو الذي أنطق الوزير بالاسم ، لأكون نصراً كبيراً للتنظيم ، وعوناً إن شاء الله للفرقة الخواجيّة .

وبعدَ هذا الحديث مع والدي في دلالة اسمي وأهميته ، وكيف نطق به ولماذا ، ذهبتُ بقلبٍ صافٍ ومُفعم بالمحبّة في الدعوة من الله لهذهِ الطائفة الكريمة بالبركة ، وقد أخذتُ

سبيلي إلى الله من ثمَّ بعدُ ، مبشّراً بالجمال والحكمة والفنّ ، وواضعاً نصب عيني كلّ أهدافها النبيلة في بناء وتشييد بغداد المدينة المقدّسة .

**

في الواقع إن هذهِ الذكرى هي أكثر ما كانَ يجذبني ويشدّني لطفولتي ، فقد قرأتُ كثيراً ، وسمعتُ الكثير عن طائفتنا ، وشعرتُ بآلام فلاسفتها الذين انحدروا عن إخوانيّة تاريخيّة ، وأحسست عن بعد رقّة انطباعاتهم ، وأحلامهم ، وشقاء عبقريتهم ، وكنتُ أريد أن أحفظ لهمْ - وأنا طفلٌ- بوحيٍّ ملهم من روح بغداد ، هذهِ الذكرى ، وأحفظُ لمدينة الخواجات التّي شيّدوها بجهدهم وخيالهم هذا الوفاء ، والعمل ما حييتُ في خدمة هذهِ الطائفة .

فقد جعلتني هذهِ الذكرى أعجبُ بهم ، وبقدرتهم على تجسيد بطولاتهم ، فهم مثلٌ ناطقٌ وأكيدٌ على عبقرية هذهِ المدينة ، وهم المظهر الحسّي لكلّ تجلٍ روحيٍّ فيها ، وهم المظهر الفلسفيّ الحقّ لكينونتها ووجودها ، وهم شرحٌ حيٌّ وحسّاسٌ لحياتها وكيانها ، وصدى روحيٌّ متّصلٌ لكلٌ قوانينها وشريعتها ونواميسها .

II

ابن البها خوجة

والدي الذي أثّر بي فنّهُ أثراً بالغاً ، هو الخواجةُ بهاء الديّن البغداديّ ، أو (بَها خَوْجة) ، هكذا كانَ يسمّيهُ التجّار والصنّاع التركْمانُ من أهلِ بخارىْ وسمرْقند وجُرْجان ، أو كانَوا يشيرون له كما كانَوا يشيرون لي ، أو يشيرون لأعضاء طائفتنا ، بـ(الخواجة) أو (الخوجة) ، إنّه الاسم الشائع في بغداد ، ويلفظه الناس كما لو كانَوا يلفظون شيئاً أليفاً عليهم ، شيئاً يصادفوه كلَّ يوم في الشارع أو في السوق ، اسم لا يسمعه السامعُ بهِ أوّل مرّةً إلاّ ويتأملهُ .

أنا نفسي لا أتأمّل به بالمعنى الحقيقي للكلمة ، لفرط تعوّدي عليه .

هذا المتأمّل يختلف عن الساكنين المتجذرين في بغداد ، من عربٍ ونبطٍ وأتراكَ وفرسٍ وسريانَ ويهود ، فأهل بغداد لا يحسّون غرابتهُ على الإطلاق ، كما أنهم لا يشعرون بتحولاّته ، ذلكَ أنّ التعوّد على الشيء يصبح أشبه بساعات النهار وهي تمرّ منسابةً ، ناعمةً مثل انسراب الرمل ، أو أشبه بالأشجار خلال تعاقب الفصول ، حينما لا يشعر بتحولاتها المتأمّلُ بها لفرطِ

عاديّتها ، ولذلكَ كانَوا يقولون عنّي بداهةً في أحاديثهم ، من دون تأمّلٍ أو تفكّر :

نصرتْ خوجهْ بن بها خوجةْ! دون أل التعريف .

أما إذا تحدّثوا عن والدي فيقولون عنه إنّه (البها خوجة-بأل التعريف) .

والدي هو الفلكيّ الأكثر شهرةً

والدي بلحيتهِ البيضاء الناعمةِ ، ووجههِ الأبيض المنبسط التقاسيم ، هو الفلكيّ الأكثرُ شهرةً ذلكَ العهد . . وكانَ يُشبّهُ من قبل العامّة على الدوام ببني موسى ، أبناء الفلكيّ والرياضيّ الشهير موسى بن شاكر ، الذي عاش في زمن الخليفة العباسيّ المتوكّل .

فقد نشأ والدي في بيت يعجّ بالكتب والعلماء والآلات الغريبة النادرة ، وكانَ يزورهُ في المنزل فلكيّون ومنجّمون ، وأطبّاء ، ومهنّدسون ، وأكثر شعراء وفلاسفة بغداد أيضاً .

وقد خدم والدي منذ زمنٍ مبكّر فلكيّاً للخليفة العباسيّ ، وجمع أموالاً طائلةً من الرياضيّات والصناعات وعلم الفلك ، وقام بسياحة طويلة للحصول على الكتب ، وأقام في قصره مشاريعَ علميّةً ، ومرصّداً ، وشيّد اصطرلاباً كبيراً ، وقام بترجمة الكتب . وهو يقضي يومهُ وهو يفكّر في ثقل الجسم المحمول ، وبالنقطة التي يتوازن عندها ثقلُ الجسم الحامل ، وأفشى للخليفة اختراعاته ، حيثُ صحّح أفكار بني موسى عن الزاويّة

وتقسيماتها الثلاثيّة ، والشكل الأهليليجي ، وصحّح أفكارهم عن محيط الأرض وقطرها ، وميلان البروج .

وكانَ يقرأ ترجمات «حنين بن إسحق» ، وابنه «إسحق بن حنين» ، وابن أخيه «حبيش بن الحسن» ، إلى جانب «ثابت بن قرَّة» الذي ترجم وحده عددًا هائلاً من الأعمال الفلكيَّة والرياضيَّة والطبِّيَّة لأشهر علماء الإغريق مثل إقليدس وأرخميدس وأفلاطون وأبوقراط .

وكانَ في منزلنا مجموعةٌ من الكتب التي يتناولها والدي ويعلّق عليها ، مثل عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، وكتب عن المناخ تتضمّن الأسماء العربيّة للنجوم ، وكتب لعلماء في الفلك ، وكتب رياضيّات ، وكتب فلسفة ، وفي المنزل آلاتٌ كثيرةٌ مثل الأسطرلاب ، والساعة الفلكيّة ، والحلقة الاستوائيّة التي صنعها العالم ثابت بن قرة ، وعدسةٌ مكبرةٌ ، ومزولةٌ ، وكانَ جدّي ووالدي يتحدّثان بأسماء غريبة مثل الدائرة المقنّطرة ، والفيزياء الفلكيّة ، والمجرّة ، ويتحدّثان عن الحكيمين أفلاطون وأرسطو ، ويتحدّثان مع أصحابهما الخواجات عن جالينوس وأبوقراط وارخميدس ، ويصحّحان أخطاء الفلك الإغريقي والهندي ، والبابلي .

**

لقد عاشَ والدي في بيت علم ، ومن والده تعرّف على إخوان الصفا وعلى أفكار الفاربي وعلى أرسطوطاليس ، ومع أنه لم يتبع أبداً معتقدات والده ، إلا أنه أفاد من العارفين هناكَ

بعلوم القرآن وبفنّ الشعر وبالمنطق والفلك والرياضيّات ، ودرسَ الفلسفة في بيت الحكمة في بغداد ، وقرأ هناكَ كتاب ابن سينا القانون في الطب ، وكتاب الشفاء ، والإشارات والتنبيهات ، ومختصر إقليدس ، ومختصر الارتماطيقي ، ومختصر علم الهيئة ، ومختصر المجسّطي ، ومقالَة جوامع علم الموسيقى . ثمَّ رحل إلى همدان واتصل بالسلاطين الفرس ، وقد سألوه من يجلّ من الفلاسفة؟

فقالَ لهم إنه يجلّ الثلاثيّ الفلسفي : ابن سينا وأرسطو والفارابي .

**

فضلاً عن عملهِ في الفلك كانَ والدي فنّاناً ، كانَ رسّاماً ونقّاشاً ، وكانَ هو أحدَ النسّاخ العشرة لقاموس بغداد .

كنتُ أراهُ وأنا صبيٌّ ، جالساً في حجرته يعملُ منكبّاً في نسخ قاموس بغداد ونقشه وتحبيره ، ومن وراء حاجز خفيف كنت أراه بخدّيه الغائرتين ، وعظام وجهه الناتئة ، وبشعره الأشيب المجعّد ، وعينيه اللامعتين الثاقبتين وهو يعمل النهار كلّه .

ومرّة كنتُ جالساً إلى جانبه وقد أنجز صفحةً رائعة من صفحات القاموس ، وهي عبارة عن نقش يمثّل أرقاماً بسيطة ، ولكنّها مذهلة في تعقيدها وكمالها ، وقد شاهدني وأنا أتملّى بها مأخوذاً بجمالها ، فنظر لي نظرة غريبة ، وفي عينيه ابتسامة خفيفة ، وقالَ لي بصوته العذب :

- ما بك يا ولدي هل أعجبتك هذهِ الصورة ، منذ ساعة أراك وأنتَ لا تفارقها بعينيك؟

- نعمْ ، يا والدي ، لم أرَ أكثرَ جمالاً وتعقيداً من قبلُ مثل هذا الرسم ، إنّهُ شيء باهرٌ حقّا يا والدي!

- ولكنْ هل فهمت ما فيها لتنبهر بها؟

- لا والله يا أبتِ لم أفهمْ شيئاً ، وربّما هذا هو سرّ جمالها ، فغموضها نسبةً لي جعلها أكثر جمالاً وأشدّ حسناً .

- حسن سأقول لك . . . بعدَ برهة رفعها أمام عينيّ ، وأشّر لي بيده وقالَ :

- انظر هنا! وأشّر على الخطّ ، إن وجودنا كلّه تشكّل وفق هذين النمطين من الأشكال أو النماذج البدئية ، البسيطة والمعقدة . . .

- نعم يا والدي!

- انظرْ هنا! أشّر بيده ، وقالَ : هذهِ النماذجُ الظاهريّة والباطنيّة .

- أعرفُ يا والدي ، لقد شرحت لي هذا الشيء من قبلُ . .

- حسن . . . قالَ . . . أما وجودنا ، في حدّ ذاته ، فهو لغة وأرقام : لغة حيّة ، وأرقام تحمل حركة الظاهر والباطن .

- أتقصد أن الوجود نغمٌ ورقمٌ ، كما يقول الفيثاغوريون!

- بالضبط هذا ما عنيتهُ ، فالنغمُ يشيرُ إلى التناغم ، والرقم إلى المعنى .

- ألهذا يرى إخوان الصفا أيضاً إلى وجودنا ، في ظاهره

وباطنه ، لغـةً من الأرقـام والتنـاغـمـات . قلتُ لـه وأنا أنظر إلى اللوحة .

- بالضبط يا ولدي هذا ما عنيتهُ!

**

كان والدي في مجلسِ الخواجاتِ ، في الرتبـةِ الأعلى في التنظيم ، وقد شـهدَ قَسَمَ الخواجاتِ على أنْ يكونَ هذا القاموسُ هو الثـاني بعـدَ كتـاب الله ، وثالث الكتب مع الحكْمـة الإلهيّـة لرسائل إخوان الصفا . وكان من المجلس الذي انتدب أصحابَ الحكمـة الثـلاثة ، أو مـا يطلق عليـهم بمثلّث الحكمـة ، والذين تربّعوا على رئاسة الطائفة ، وهم من قرّر أن يكونَ هذا القاموسُ سرّاً مقدّساً لا يصله أحدٌ ، ولعلّ مجلسُ الخواجات قد خشيَ على أسرار بغداد ، واكتشافِ أحجية الحواشي ، والتعليقات الخطيرة لنشأتها ، والتي ستمكّن أعداءَها من القضاء عليها .

وقد عرفتُ منه فيما بعدَ أن لقاموس بغداد عشرةَ نسّاخ ، كانُوا قد تعاقبوا على نسخهِ ونقشهِ واحداً بعدَ آخر ، كانَ كلّ واحدٍ منهم ينسخ جزءاً من أجزائه ، لكي لا يطّلع أحدهم على جميعِ نصوصه ، ولكنْ بعدَ وفاة والدي ، ومقْتل التسْعة الآخرينَ في المذّبحة الشهيرةِ التي دبّرها السلاطينُ للخواجات ، انتهى أمرُ هذا القاموس بأوراقهِ التسعمئة وتسع وتسعين ، وبصندوقهِ الخشبيّ المزخرف بالذهب والفضّة إلى منزلي .

**

لقد انتهى أمر هذا القاموس المقدّس ، وأسراره العظيمة

ليديَّ ، أصبحَ القاموس عندي ، بعدَ عشرين عاماً من إخفائه ، في ألف مكانٍ ومكان من أمصار الدولة الإسلامّية ، فقد رحل من نيسابور إلى أصفهان ، ومن مرو إلى سمرقند ، ومن دمشق إلى واسط ، وقد تعقبته عيون السلاطين وسيوفهمْ ومخبريهمْ ، وهم يجوسونَ سرّاً وعلانيّةً في البحثِ عنْهُ ، وقد حماهُ الله جلّ جلالهُ منهم .

نزهة الجمعة

يعملُ والدي في اصطرلابه وأبحاثهِ كلَّ أيّامِ الأسبوع ، ما خلا يوم الجمعة ، وهو يوم عطلة المسلمين ، حيثُ يأخذني معهُ للصلاة في جامع العبّاسيّين وسط بغداد .

يرتدي والدي يوم الجمعة عمامتهُ الزرقاء ، وحياصتهُ الحرير ، يخرج من المنزل والابتسامة لا تفارق شفتيهِ ، يقول لي :

– سرْ ، يا بنيّ ، ولا تضطربْ! متى رأيت نفسك إزاء ضوء الشمس الذي تبحث عنه ، فما أسعدك .

ثمَّ يتلمسُ جوادُه دربَ الدينار نحو سوق السبت ، فنندفع يميناً نحو زقاق الخلفاء ، وهو زقاقٌ طويلٌ يصلُ حتّى النهر ، يعجّ بالمارّة والحوانيت .

هنالك دكانُ الخراسانيّ حيثُ يبيعُ الخضروات ، والشيخُ الروميُّ وهو قصّابُ مشهورٌ ، وأبو علي البغداديّ وهو حذّاءٌ ، وهناكَ دكّانُ الورّاقِ أبي حسنٍ الطائيّ ، وهنالكَ تجّارٌ من البصرة

والشـامِّ والقـاهرة ، وإبلٌ ذاهبـةٌ إلى الحجّ ، وصنوجٌ ودفـوفٌ تُدقُّ حـتّى المسـاء ، وهناكَ شـعـراءُ يصـعـدون المنبـر للتـبـاري في قصائدهم ، وفي الطرفِ اليمين خمّارةُ القطرةِ الصافيّةِ ، والدرب إلى الشمـالِ يقودُ إلى جامع العباسيّين ، وهو أكبر مسجد في الأمصار الإسلاميّة .

**

أصعدُ القمرةَ المسقوفةَ للجامع من سلّم صغيرٍ مع والدي ، وهي شرفةٌ عاليةٌ تقعُ في أعلى المنارة ، تطلُّ على أجمل مناظر بغداد ، تحتوي هذهِ القمرةُ على دكّة واحدة للجلوس ، وما إن نصل إلى حدّ الشرفة حتّى يضعُ والدي يدهُ على كتفي خوفاً من أن أنحدرَ إلى أسفلَ بفعل الهواء الهابّ علينا من الخلف . ثمَّ يوجه التحية إلى الخواجة سليم الواقف خلف دكّة المسجد ، بعمامته السوداء ، وعباءته الصفراء ، ووجههِ الشديد الشحوب . فيردُّ الخواجةُ سليم التحيّة لوالدي بصوتٍ ضعيف ، ويتكلّم معه والدي بصوتٍ خافت جداً .

ومن هناكَ كنتُ أطلُ على مشهد المدينة من أعلى مكان في بغداد ، فالضوءُ المتوهّج على الرصافة كأنَه فضّةٌ ذائبةٌ ، ومن هذهِ القمرة العاليّة كنتُ أمدّ البصرَ إلى المدينة كلّها تقريباً ، وكنتُ أراها بصورة لا تضارعـها أيّة صورة ، وهي لا تفارق مخيّلتي حتّى الآن ، حيثُ يقع ميدان العباسيّين على الامتداد المتعامد للشارع الذي يقع فيه الجامعُ ، وفي نهاية هذا الشارع تنبسطُ مع الأفق أسواقُ بغداد العامرة بالبضائع ، مكشوفةً

ومسقوفةً ، ومع أن المكانَ يبعد عن شاطئ دجلة مسافةَ نصف ساعة ، إلا أني كنتُ أشاهد من وراء الجسر قصر الخليفة المطلّ على النهر ، حيثُ تسقطُ أشعة الشمس الذهبيّة فوق قببه وتنعكسُ عليها .

**

ولا أنسى مرّة كنتُ صعدتُ إلى قمرة المنارة مع والدي ، وكانَ معهُ الخواجة أحمد بن عبد الله ، وقد وضعَ على رأسه أكبر عمامة كنتُ رأيتها في حياتي ، وما إن كانَا يتحدّثان حديثاً طويلاً عن كتاب لجابر بن حيّان الكوفيّ يذكر فيه السلسلةَ الذهبيةَ للفيثاغوريين ، وتشعّب حديثهما عن أرسطوطاليس ، والحكيم إفلاطون ، عن إخوان الصفا وأبي قراط ، وأنا من هناكَ كنتُ أنظرُ بشغفٍ جملين يقودهما بدويٌّ بملابسه التي تشبه رمال الصحراء ، وهو يقترب من رصيف شاطىء دجلة حيثُ بعض الأتراك يصطادون السمك بهدوء . بينما كان السوق يضجُّ بالتجّار الذين يقودون قوافلهم ، وأصوات الباعة المتداخلة مع بعضها ، ووجوهُ العبيدِ المرهقةِ وهم يحملونَ البضائع على ظهورهم ، وفي سوق الجواري ثمة إبلٌ تحملُ المحفّات ، وعمامات رجال بألوان مختلفة ، وضربٌ على الطبول ، وصرخاتُ حناجر تشقّ الآذان .

وحينَ جلسَ والدي على الدكّة جلستُ إلى جانبهِ وهو يضمّني إليه ، ليحميني من الهواء البارد الهابّ من النهر . ثمَّ انكمشتُ نحوهُ حتّى سقطتْ عمامتي في حضنه ، فغمرتني

رائحتـهُ المشبـعـة بالمداد الذي يكتب به ، أو الألوان التي يرسم بها ، وعلى الصوت الشـجيّ للمؤذّن كنتُ أغفو ، وأتمنّى تلك اللحظة لو أجد نفسي في فراش منزلنا ، فوق سجّادة فارسيّة غزيرة الوبرة ، إلى جوار أمّي .

**

تزوّج والدي مرّتين ولهُ ثلاثُ جواري ، ولي إخوةٌ وأخواتٌ عديدون ، غير أنّه استقلّ بأمّي بمنزل واحد لأنّه كانَ يحبّها جداً ، وكنتُ أنا أصغر أشقائي الثلاثة وشقيقاتي الثلاث ، واحدة تزوّجت من تاجر من الرها ، والأخرى تزوّجت من ضابطٍ في الحرس السلطانيّ وتقطنُ اليوم في الكرخ ، والثالثة بقيت في منزلنا لتعين والدي في مرضه . وقد توفي من أشقائي اثنان بمرض غريب ، أما سيف الدين وكانَ أكبرنا فهو شاعر ، وقد غادر المنزل قبل أعوام يافعاً ، كانَ يرى الشعر في البخترة والتشرّد والصعلكة ، وقد رافقَ مجموعةً من الشعراء الظرفاء في بغداد يقضون يومهم وليلهم في الخمارات والجئير والصخب .

ولم يكن شقيقي يعير منزلة والدي أية أهميّة ، مع أنه كان يشغل قبل وفاته ، منصب كبير الفلكيين ، وهذه رتبةٌ كبيرةٌ أذيع عنها في كلّ مكانَ لأنّها تعادلُ سيّد أرباب المهنِ في عاصمة العباسيّين ، وهي واحدة من أكثر الرتب القديمةِ احتراماً في بغداد . . .

**

كانَ والدي يقضي يومهُ جالساً في منزله الذي شيّده في

درب الدينار، يرقبُ القمر في اللّحظة التي يضيء فيها المآذن، ويوجه عليه الاصطرلاب ليكتبَ ملاحظاته عمّا يراهُ في محاقه أو بروجه، بينما العالم المحيط به صامتٌ باستثناء نباح كلاب يأتيه من جهة النهر.

وكنت أستيقظ أحياناً في الليل فأزيح شيئاً من فضلة الستارة ولا أرى غير كتلة من الأشجار في الحديقة، كتلة سوداء لا تتضح بشكل جيّد إلاّ على خلفيّة الليّل المعتم، فأهبط إلى حجرة والدي المضائة بسراجين، فأراه جالساً على تخت مغطّى بسجّادة أصفهانيّة، يحمل مداده من دواة على بعد شبرٍ منه، وعند الباب ينام خادمهُ وهو جالسٌ، رأسه محلوقٌ ما عدا خصلة طويلة واحدة عند مؤخّرة رأسه، يسخرُ والدي منهُ أحياناً فيقولُ لَهُ إنّ الملائكةَ ستحملهُ من هذه الخصلةِ وترفعهُ إلى السماءِ في يوم القيامة.

كان والدي يحرص أن يرتدي خدمه القمصان البيض الواسعة، والمزركشة الأطراف بخيوطٍ مذهبةٍ قصيرة، وهي ملابس سادة بغداد، بغداد... التي كانَوا يسمّونها دار السلام، والتي أصبحَت بالسلام دار الإسلام، وهي المدينة العظيمة التي يكنّيها أهل خراسان، وخوارزم، ومرو، وطبْرستان، ومازندان، بـ«سرّة الفردوس».

المدينة التي تمتدّ على طولها الضياع الكبيرة، والتي تترامى فوقها السماء الخفيضة الصافية، وفي فضائها المشعٌ يرسمُ على الدوام طَيْرانِ حائمان دوائرَ متوالية.

ولادتي في محلّة الحربيّة

أنا أقطن في درب الدينار وهو أشهرُ شارعٍ في محلّة الحربيّة .

هذه المحلّة الكبيرة التي كانَت سكناً فيما مضى لقادة جيش الخليفة المأمون مطلّةً على نهر دجلة ، وهي من أجمل محلاّت بغداد ، حيثُ تقطعها القنوات المائيّة والأنهرُ الصغيرة من كلّ مكان ، وتحيط بها الحدائقُ الوارفة والبساتين من كلّ جانب ، وهي تتلوّن بثقلٍ وصلابةٍ خلالَ تعاقب الفصول ، وعلى طول العام ، حيثُ النّموّ المحترس لجنائنها المزهرة ، وبهاء حقولها المضيء ، وهمس سيولها في ليالي الخريف الطويلة ، وبساطتُها الصارمةُ والعاريةُ جعلتها واحدةً من أجمل مدن الأرض ، حيثُ يكون العيش فيها نوعاً من الانغماس في المتعة المفرطة ، وتحقيقاً للرفاهيّة المديدة .

ويقود دربُ الدينارِ السائرَ فيه مباشرةً إلى الميدان الكبير الذي يقع وسط بغداد تقريباً ، من جهة الرصافة ، ويطلق التجّار على هذا الميدان بـ«ميدان البازار» ، وقد شيّده سيّدي ومولاي أبو جعفر المنصور ، وجعل منه أكبر ميدان في إمبراطوريته ، وهو مركز العلم والتجارة والصناعة ، ففيه محلاّت السرّاجين من جهة الشمال ، ومحلاّت الورّاقين من جهة الجنوب ، أما من الشرق فتصطفّ الأسواق والبازارات الكبيرة العامرة بالبضائع حتّى تصل السور ، ومن الغرب ثمّة مساجد كبيرة عامرة بالمؤمنين والمجتهدين ، وألحقت بالجوامع مدارس مملوءة بطلاب

العلم ، يأتيها الطلبة المسلمون وغير المسلمين من كلّ الأمصار والأقاليم .

وما ميّز بغداد عن مدن الأرض طرّاً هم خواجاتها ، الصنّاع الكبار ، والذين يتكلّمون عن صناعاتهم ومعمارهم وفنونهم بشيء من الفخامة ، فضلاً عن التجّار الذين يجوبون الأمصار من الخزر إلى الهند ، ومن خراسان إلى الصيّن ، أما مشاهدها العجيبة فقد جلبت لها الموسيقيين والشعراءَ والفلاسفةَ والصنّاعَ من كلّ أقطاب الأرض .

**

لقد عشتُ كلّ حياتي في الرصافة ، في هذا المنزل المطلّ على النْهر ، حيثُ كنتُ أرى من شرفتي في الصوب الآخرَ منازلَ الكرخ بواجهاتها الطابوقية الكبيرة ، وفي الظهيرة أتأمّل قواربَ الصيَّد التي تمرّ في النهر بطيئةً ، حيثُ يرمي الصيّادون الشبّاك إلى الماء ، تقابلُها القففُ السودُ وهي تقطعُ النهرَ الأصهب محمّلةً بفاكهة البساتين ، وعلى الجانبين هناكَ الأشرعةُ البيضُ ، والسفنُ الكبيرةُ ، وهي تحملُ المسافرين إلى الصوبين في الصيفِ والشتاء .

هذا المشهدُ الرائعُ يكتملُ في الليّل ، حينَ ترتعشُ نارُ المشاعلِ في السفنِ ، وتلقي بنورها على الواجهاتِ الجميلةِ للبيوت .

أما من جهة السور الغربي فهنالك تلال رملية مترامية تلامس حافة الواحات المغطاة بالنخيل ، ثمَّ كثبان رمل تمتدُّ إلى

ما لانهاية . وبين آونة وأخرى يلتمع السراب في نهاياته القصوى ، كما لو كانَت صورة وهميّة وهي تلامس السماء . حيثُ يجتاز العرب وهم على جمالهم خبباً هذهِ البيد ، تتبعهم نساؤهم على المحفّات وهن مغطاة بأخْمِرة هائلة سوداء أو بيضاء .

III

أنا ابن فيروز بنت فخر الدين البغداديّ

أمّي هي فيروزُ بنتُ فخرِ الديّن البغداديّ . حازَ والدها فخرُ الدين البغدادي على رتبةِ خواجةِ الخواجاتِ في بغداد ، وهذه الرتبةُ الكبيرةُ لا يحصل عليها الخواجاتُ بسهولة أبداً ، كما أنّها لا تُمْنحُ إلاّ بأمرٍ من الخليفةِ ذاته ، ولأمرٍ عظيم لا يشبهُ أيَّ حدثٍ في زمانه ، وقد حصلَ عليها جدّي لأنّه كانَ واحداً من أشهر مهندسي الحمّامات في بغداد ، وقد شيّد حمّاماً في الرصافة فريداً في عصرهِ ، وذلكَ لطرازه الجديد ، وريازته ونقوشهِ ، وقد ذاع صيتُ جدّي في كلّ الأمصار الإسلاميّة كأحسن صانع وبنّاء ، أمّا في بغداد فلم يكنْ معروفاً بعلمه فقط ، إنّما بقصره الكبير والشهير في الكرخ ، أي في الجهة الأخرى من نهر دجلة ، والواقع على مقربةٍ من قصر الخلد ، القصر الذي كانَ يقطنهُ الخليفة العباسيّ وحاشيته .

**

كانَت أمّي فخورةً بأبيها الذي يدخل منزلنا كلّ صباح تقريباً مع خدمه الذين يرتدون جلابيبَ مخططةً ، وقلانس حريريّةً تحت العمائم ، حيثُ يقفون بجيادهم في الفسحة

الكائنة أمام الدار ، بينما يترجّل هو من جوادِه ، ويدخل إلى منزلنا ، حيثُ تستقبلهُ أمّي بفرح ، بينما يسير متبختراً ، وهو يضع الشال الحريرَ حول كتفيه وصدرِه ، فتناوله خادمةُ أمّي ياقوت الزنجبيل ليشربَ أوّل دخوله ، وحين ينتهي يمسحُ فمه وشاربه بظهر يده .

يضع كيساً من الفواكه على السجّادة ، فيسرعُ المخصيّ مسعودُ ليتناوله ويذهب به إلى المطبخ .

يخلعُ جدّي قفطانه ويعلّقه في أحد سواعد المشجب ، ويخلعُ عمامته في يده فتنكشفُ رأسه الصلعاءُ التي يحيط بها شعرٌ يخالطه اللون الأبيض . يقف قليلاً وهو يتحدّث مع والدتي ، ثمَّ يجلس على دكّة مفروشة تتكئ إلى الحائط ، إلى جوارها مشجب كبير للسيوف ، حيثُ يجلس جدّي على الدوام على حافةِ الفراش ، كأنّه يتأهّب للخروج ، وتصبح إلى يمينه باب حجرة والدي التي يخطّ فيها قاموس بغداد ، أو يكتب فيها أبحاثه الفلكيّة أو يرسم هناكَ أو ينقش قطعةً ذهبيّةً أو فضيّةً ، بينما تجلس أمّي على الدكّة إلى جانبه لتتحدّث معه ، وأنسلّ أنا إلى حضنها .

ينهض جدّي أحياناً من مكانَه ويقلّب كتاباً عند الدولاب الخشبي الموضوع على شكل خزانة كتب ، يتحدّث إلى أمّي وهو يقلّب الكتاب ، أو يمسكني من يدي ليقبّلني ، فأهربُ من الخجل منهُ إلى باب المخزنِ ، وهي البابُ الحديديّة التي تظلّ مواربةً ولا يمكن إغلاقها بإحكام أبداً ، فيخرج والدي من الحجرة وهو يرتدي طاقيةً من الحرير بلونِ الزهورِ ذات حوافٍ

عريضة مطويّة إلى أعلى ، ويرتدي الصديري الأسودَ والقميصَ والسروالَ الأبيضَ ، يسلّم عليه ، ويضغط على يده .

يجلسان معاً ، ويتحدّثان طويلاً عن أمر قاموس بغداد ، وعن الفرقة الخواجيّة ، ثمَّ ينهض جدّي من مكانه ، يرفع يديه ليضبطَ عمامته على رأسه ، ثمَّ يستديرُ بعدَها ليخرج من الدار ، ونحن نسير وراءه ، في الخارج ينطّ على فرسهِ ، ويبتعدُ في الشارع بهدوء ، ولا نسمع ونحن ندخل سوى صوت حدوات جواده وهي تضرب حجر الطريق ، حيثُ يسير حرّاسه وراءه .

وبينما يعودُ والدي إلى مكانه في الحجرة الكبيرة لخطّ وتحبير بعض فصول القاموس ، فإن أمّي تعود ثانيةً إلى المطبخ ، لتشرفَ على شواء اللّحم ، أو على تنظيفِ القلل ، وتعطي الأوامر لخادماتها وهنَّ يعددن الطعام ، وبعدَ أنْ يُطفأ الموقدُ ، تصعد إلى الحجرة الفوقانيّة ، تغيّر ملابسها ، وتغيّر ملابسي ، ثمَّ تقودني من يدي ونخرج لنزهتنا اليوميّة المعتادة ، مع خادمتها وحارسها .

نزهات أمي

كانَت أمّي تصطحبني معها في جولاتها الصباحيّة ، أو رحلتها إلى السوق ، وهي تقسّم الأسبوع بين يوم ويوم ، فيومٌ تمضيه في السوق وشراء حاجيات المنزل ، واليومَ الآخر في النزهة الطويلة على شاطئ دجلة ، وفي البساتين المحيطةِ به .

**

- نذهب إلى السوق ، تقول أمّي .

فأفرح جداً ، ذلك لأنّي أبتهج وأنا أرى سوق بغداد بزحمته وضجيجه ، حيثُ الألوان تتغيّر فيه على الدوام ، واللهجات واللغات تختلطُ مع بعضها ، والتجّار من الصين إلى الهند يسيرون بملابسهم الملوّنة ، وتتقاطع في الطريق الهوادج على الجمال ، وهنالك العبيد وهم يحملون المحظياتِ على المحفاتِ ، والجواري الثريّات وهنّ يدخلنَ إلى سوقِ الصّاغةِ ، أو إلى سوقّ البزّازين ، وأفرحُ جدّاً حين أرى الجمال القصيرة القادمة من أذربيجان ، وهنالك المهرّجون بملابسهم الغريبة وهم يتأرجحون ويتشقلبون على الحبال .

تصيح أمي بأعلى صوتها :

- يا مسعود! وأنت أسعدُ تابع لي في الدنيا كلّها! اشحذ همتك وقمْ معنا ، وأنت يا نصر الدين لا يغب في بالك أن تكتب وترى في اصطرلابك ما لا يراه الناس من حولك .

**

يبدأ يوم السوق في رحلةٍ طويلةٍ بين المحلاّت والدكاكين ، حيثُ أكون سعيداً بها أشدّ السعادة ، إذ إنّنا نخرجُ في العادة ضحى ، ويكون برفقتنا أحدُ الخصيان ، وأكثر الأيّام يكون معنا مسعود ، ودوما معنا ياقوت ، وصيفة والدتي ، والصبي الذي يخدم معنا في المنزل واسمه جواد ، وهو الذي يركبُ البغل الذي يحمل المشتريات .

ما إن نصل السوق حتّى تبدأ أمّي مشوارها ، فتشتري أولاً

من دكـــانَ رؤية الزيّات ، وهو بائعٌ كـــوفـــانيٌ ، قلّة الزيت ، فيحملهما مسعود معه ليضعهما على البغلة ، ثمَّ تذهبُ إلى دكانَ الجزّار ، ونحن معها ، نقف في الباب ، والقصّاب يقلّب اللّحم المعلّق بالخطاطيف ، فتشتري أمّي منه خمسة أرطال ، وتناولهما للصبي جواد كي يحملها ، ثمَّ نتجهُ إلى الفاكهاني وهو نور الدين الشامي ، لتشتري منه التفاح والخوخ والتين ، وحين يكون دكانٌ من الدكاكين مغلقاً للصلاة ، فإنّنا نقف هناكَ بين باعة الحبوب ، وهم تجّار تركمان يتكلّمون بفخامة عن بضائعهم ، أو تجّار فرسٌ يوزّعون على المارّة ابتسامات مبتسرة ، أو باعة من الصين أو أذربيجان قادمون على جمالهم من طريق الحرير ، وفي الغالب نجد في هذا المكانَ تجّار البصرة ، وكنّا نعرفهم من سحناتهم السمر ، ومن ملابسهم التي يرتدونها ، فهم يضعون على أكتافهم كوفيات بيضاء ، وعلى رؤوسهم عمائم صغيرة يتميزون بها .

**

أما النزهةُ الصباحيّةُ فغالباً ما تكون تجوالاً طويلاً في أماكنَ قريبةٍ من منزلنا حتّى الظهيرة ، إذ نسير وسط غابات النخيل المحيطةً بنهرِ دجلة ، ونعبرُ الأدغالَ والأشواكَ لنصل إلى محلّة الظفريّة ، حيثُ منازل ضبّاط الحرس وطبقة البنّائين العاليّة ، وحيثُ الزهور تزيّن الجدران الخارجية ، وترتفع نباتات فارسيّة على السطوح وفي شقوق الطابوق ، وتصعدُ أعناق النخل من

الحدائق إلى السطوح ، حيثُ تصبح عذوقها العاليّة مرعى لطيور الدوري .

وفي الغالب ما تطلب منا أمّي أنّ نجلس على الضفّة لنرقبَ السفن الشراعيّة والقوارب وهي تنحدرُ إلى الجنوب ، وعلى خلفيتها الأبراجُ والقببُ ومناراتُ الجوامع ، فتنغمرُ روحي بفرحٍ عميقٍ وأنا أتطلّع إلى هذا المشهد الجميل .

**

كانَ هذا المشهد أكثر ما جذبني في طفولتي ، حيثُ كنتُ أسيرُ معها لأستمتع بنسيم الصباح الطريّ ، وبمشهد العصافير وهي تقفز على الأشجار من غصنٍ إلى غصنٍ ، وبالبطّ وهو يسبح في البحيرات المحاذية لقصر الخلافة . ونتنزه في الحدائق السلطانية الكبيرة ، حيثُ كنا نرقب شبّان الحرس وأبناء طبقة الخواجات برؤوسهم الحليقة وأجسادهم السمر القويّة ، وهم يقفزن بمهارةٍ عالية على الجياد الصهب المخبّة قرب ضفّة النهر .

وعندما ترتفع الشمسُ في السمت كنّا نستظلُّ بسرادقاتٍ كبيرةٍ مضروبةٍ على ضفّة النهر ، إذ تصهّد بأشعتها الذهبيّة شذى الأزهار في الحدائق ، وتبخّر قطرات الندى المنتشرة على المروج الخضر ، فكنّا نتمشى أحياناً على مقربة من القصر العباسيّ حيثُ تقطع المروج بين آن وآخر مهرات الحرس المخّبة وهي تضرب بقوادمها الأمامية على الأرض ، فيثبُ عليها أبناء الخواجات بسرعةٍ كبيرة .

هناكَ كنتُ أرقب جواري القصر يتنزهن بملابسهنَّ الملوّنةِ الشفّافةِ ، أو يتمدّدن تحت السرادقات حيثُ يمضين النهارَ بالنوم على البرك الكبيرة .

قالَت لي أمّي يوماً وبتعاطف شديد .

- إنّهنّ لسن سعيدات . .

- لماذا يا أمّي؟ سألتها . لسن سعيدات ، وهنّ يعشن بهذه القصور الكبيرة ، ويتروّحن عند الشواطئ ، ويحرسهن عبيد الخلفاء والوزراء .

- لا أريد أن أوّسعْ قلبك الصغير الذي لا يزيد اليوم عن تينة ، وانظر إلى ما يقالُ عادةً ، هنّ سعيدات ، لكنّهن يعشن حظّاً سيئاً ، حيثُ لا توجد كرامة ولا حياة . .

- لم أفهم يا أمّي ها هنّ تحتَ شجيرات النخيل ، وفي الجواسق الملكيّة قرب الترع ، والحرس السلطاني بين أيديهن ، وأعدادهم لا تخطر على بال . . . ويمضين الليل في قصور سيّدتي وسيّدي الخليفة . . ولكنْ لماذا ينمن في هذا الوقت . .

ضحكتْ ضحكةً ساخرةً وفيها شيء من المرارة وقالَت :

- لأنّهنَّ يمضينَ الليلَ كلّه تقريباً ، بالرقص والغناء للأمراء العباسيّين أو لأفراد من الحاشية ، أو لبعض ضبّاط الحرس الكبار في قصرِ الخلافة ، فيشعرنَ بالحاجةِ إلى النوم أمامَ البرك الكبيرة وفي هذهِ الحدائق المزهرة العظيمة ، والتي تمتدُّ على طول البصر في الكرخ .

IV
جدّي مهندس الحمّامات الكبير وقصة رئيس الحرس

كـانَت أمّي تفـتـخـر أن والدها هو الذي شـيّـد حـمّـام السرّاجين .

فهو حمّامٌ كبيرٌ جداً ، بل هو أشهر حمّام من بين العشرة آلاف حمّام في بغداد ، وكنتُ ذهبتُ إليه مع أمّي أو مع والدي مرّات كثيرة ، وحتّى أيّامي هذهِ ، فأنا غالباً ما أذهبُ إليه لا لأستحمّ فيه فقطْ ، إنّما لاستمتعَ بمنظره الخلاّب ، من دون أن أنسى يوماً واحداً هاتين اليدين اللّتين صنعتاه ، وشيّدتاه نادرة عصره ، فقد شيّده جدّي في موقع لا يخطرُ في بال أحدٍ من مهندسي أو خواجات عصرهِ ، شيّدهُ في فسحةٍ واسعةٍ يحيطُ بها النخيل من كلّ الجهات ، وكانَ موقعه عند القنطرة الجانبية لنهر دجلة موقعاً مميّزاً ، فضلاً عن العمارة والريازة الجديدة التي لم يألفها عمرانٌ بغداد من قبل .

ذلكَ أن الحمّامات كانَت ذلكَ الوقت مربعةً ، بينما صنع جدّي حمّامه مدوّر البناء ، وما ميّزه أيضاً شيّده بنوع من الحجارة المنحوتة الغريبة الشكل ، ولم يجعلْه بلونٍ واحدٍ إنّما

بلونين أصفر وأسود ، وصنع من الداخل دكّتين من حجارةٍ بيض كنّا نجلسُ عليها أنا وأمّي عندَ دخولنا لهُ ، وما إن أرفع رأسي حتّى أرى من الأعلى شبّاكين محدّدين بواجهة كبيرة تعلو الباب . .

أما من الداخل فأجمل شيء فيه هو الرحبة المبنيّة بالحجارة البيض المنحوتة ، يحيط بها مقعد يمتدُّ من الجنوب إلى الشمال بقوس من الحجارة البيض المستخرجة من الحائطين ، ويعلو هذا المكانَ قنطرة كبيرة من حجارة بلقاء ، وسقفٌ من جسورٍ خشبيّة ، أمّا أرضه فهي مبلّطة ببلاطٍ ملّون ورخام .

وقد قالَ لي الخواجة سنان مرّة :

-أنا لا أستمتع بهذا الحمّام بالاستحمام فقط ، إنما استمتع بجماله وحسنه .

وهو محقٌّ فأجمل ما في هذا الحمّام هو نقشُ جدرانهِ ، ورسوم بحراتهِ وأحواضهِ ، وأبوابه وستائره وألوانه الخلاّبة .

**

أمّا قصّةُ جدّي مع آمر الحرس ، فتتعلق بأمّي :

أمّي التي تميّزت بجمالها وحسنها ، قد طلبها آمر الحرس السلطاني عبد الله بن أبي محمد الزنكي للزواج منها ، غير أن جدّي رفض ذلكَ ، وبعدَ حين زوّجها لوالدي الذي لم يكنْ ذلكَ الوقت سوى خواجة من الخواجات الصغار ، وعلى

الأغلب كانَ تزويجه لها احتراماً لهُ ، لأنه كانَ يحتلّ موقعاً مرموقاً في الطائفة السريّة ، التي كان جدي ووالدي كلاهما عضْواً فيها ، بيد أنَّ هذا الأمرَ هو ما جعلَ جدّي يدفع ثمناً باهظاً ، فيما بعد .

**

كنتُ متعلّقا بأمّي جدّاً ، وكنتُ أحبُّ النظر إليها ، فهي رشيقة القوام ، ولها شعرٌ طويلٌ كثٌّ وأسودُ تتركهُ ينسدلُ على كتفيها ، فتضعُ من فوقهِ عمامةً جميلةً من الحرير الصيني الأزرق ، وتعقد هذهِ العمامة من الخلف .

كما أن شكلها كانَ مميزاً أيضاً ، فلها شفتان واسعتان ، وأنفها يميلُ إلى القصر ، وهذا الشكل منحها صورة مميّزةً ، يصعب نسيانها لمن يراها ، ولا يمكن لي أن أتذكّر صورة أمّي دون أن أربط هذهِ الصورة بصورة وصيفتها ، فقد كانَت هذهِ الوصيفة ، واسمُها ياقوت ، تسير معها على الدوام ، تكاد أن لاَ تفارقها أبداً ، وهي جميلة أيضاً ، فعيناها خضراوان لامعتان ، وتنظران بسرعة خاطفة ، وكانَت تقاطيع وجهها أقرب ما تكون إلى زنجيّة ، ولكنّ بشرتها بيضاء ، من المرجّح أن يكون والدها روميّاً ، وأمّها حبشيّةً ، وكنتُ أحبّ هذهِ الخادمة جدّاً ، فقد كانَت ترتدي الفساتين الملونة على الدوام ، وتغطي رأسها بعمامة حريرية تحيط بوجهها كلّه ، وكانَت تجلس إلى جانب والدتي وتضع يدها على كتفي .

ولكنْ ما هدّد سلام عائلتنا ذلكَ الوقت هو بروز علاقة مريبة بين ياقوت وصيفة أمّي ووالدي .

فقد ضبطت أمّي مرّة والدي وهو يغازلها ، وهكذا انفجرَ في المنزل جدلٌ حادٌّ كاد أن يخرّب سلام عائلتنا ، أو ينهي العلاقة الحميمة بين أمّي وجاريتها ، ولكنْ هذا لم يحدثْ . فلا والدي كانَ قادراً على التخلّي عن أمّي ، ولا أمّي كانَت قادرةً على التخلّي عن جاريتها .

فقد اشترت أمّي ياقوت بحرّ مالها وهي صغيرة السنّ من سوق النخّاسين ، ولم تسترقّها إنّما ربّتها كشقيقتها ، والأرجح أن والدي لم يعجبْ بجمال ياقوت فقطْ إنّما كانَت لهذه الجارية الذكيّة مواهبُ عديدةٌ ، فهي تحفظُ الشعرَ ، وتحسنُ العزفَ على العودِ وتجيدُ الغناءَ ، وكانَ وجودها في المنزل هو محطّ فخرٍ للعائلة جميعها . وقد أمضتْ صباها في منزلنا تخدم والدتي ، وكانَت تلبّي طلبات والدي الذي كانَ في خضّم أعماله وفنونه ، وكانَت تستيقظ معه ليلاً ، إذا كانَ مستيقظاً ، وتجلس بسكينةٍ وبجلال أمامه ، وكانَت تشعر بكلّ حركة خطّ يخطّها ، وهو ينظر في اصطرلاباته وأوراقه ، وكانَت تتوتّر معه بتوتّر يستعصى على الوصف عند انشغاله لأمر فلسفيّ أو كتابة قصيدة ، وكانَ يأخذ برأيها بكلّ شيء يكتبهُ أو يرسمه .

ولم يكنْ أمر الشائعة حول ياقوت ووالدي حصراً على العائلة ، أبداً ، فقد كنّا نسمع في كلّ مكانٍ تقريباً ، أن والدي

قد تأثّر بها أشدّ التأثّر ، وقد أصبحَ أمر حبّه وهيامه بها معروفاً لكلّ الخواجات . بل أصبحَ معروفا لكلّ الناس في بغداد تقريباً ، غير أن أمّي وإن كانَت تدرك هذا الأمر في داخلها ، لكنّها كانَت تريد أن تقنع نفسها بغير ذلكَ ، ولاسيّما أن والدي أقنعها في البدايّة أن هذا الإعجاب هو إعجابٌ بريءٌ ، وأنّهُ أمرٌ محتّمٌ ، فما كانَ لأحد أن يرى ياقوت دون أن يعجب بها ، ولكنْ بعدَ مدة استطاعت أمّي ، وبمساعدة المخصي مسعود ، أن تضبطه وهو يغازلها ، وحين واجهته اعترف لها والدي بذلكَ ، غير أنّه وعدها بالكفّ عن هذا ، وأقسمَ لها بأنه تاب .

ولكنَّ الذي فجّر هذا الموضوع مرّة أخرى هو أنا .

تلصّص الطفل على هوى الجارية

مرّة خرجت والدتي إلى بيت أبيها ، ذلكَ أن والدها واجهَ محنةً سياسيّةً قويّة ، فقد وُجّهَ لهُ الاتّهام بأنّه أحّد أعضاء الفرقة الخواجيّة ، وكانَ من حملَ هذا الاتّهام لهُ هو آمر الحرس السلطانيّ الذي لمْ ينسَ لجدّي أنه رفض تزويجه لابنته ، وقدّم عليهِ هذا الخواجة الفلكيّ ، والفنّان .

قبل أن تغادر طلبتْ منّي أن أراقبهما . قالَتْ لي :

لا يغبْ عن بالك كيف تتحدّث معه ، وإن كانَ يتغيّر لون وجهه أثناء الحديث أم لا ، لا يغب عن بالك إن خرج فجأة عن طوره وهدوئه ، ولا يغبْ عن بالكَ إذا دعاها عنده أنْ تخبرني إن كانَتْ واقفةً أمامه أو جالسة ، وأخبرني ثمَّ إن كانَتْ قبلَ أن تذهب

إليه ترفعُ يدها إلى شعرها لتسوّيه أم لا ، وإن كانَ هو يعدل شعره وطاقيته قبل أن تدخل عليه ، وانظر له إن كانَ يتحرك على الأريكة ، إذا مرّت مصادفةً أمامه ، أو يتشوش فكره . . .

**

وهكذا غادرتْ والدتي في الصباح ، وبقيتْ ياقوت في المنزل .

وأثناء حركتي داخلَ البيتِ كنتُ قبضتُ عليهما في الحجرة .

كنتُ رأيتها تجلسُ أمامه ، وقميصُها مفتوحٌ من أمام يُظهر جزءً من صدرها ، وقد لفّت رأسَها تحت طاقيّة حمراء موشّاة بمسبحة من اللؤلؤ ، وقد تركتْ ضفائرها تتدلّى إلى كتفيها ، أمّا يداها فكانتا عاريتين حتّى الإبط ، وحين تحرّكت رنّت الخلاخيل في قدميها .

وكانَ والدي يحدّق بوجهها وهو هائمٌ بها ، يتكلّمُ معها بصوتٍ خفيضٍ وعيناهُ ذائبتان . فهرعتُ إلى حجرتي ، وانتظرتُ قدوم والدتي في المساء ، وما إنْ دخلت المنزلَ حتّى هرعتُ إليها راكضاً ، وحدّثتها عمّا رأيتهُ من ياقوت ووالدي ، فنظرتْ إلى حجرته بحقدٍ واندفعتْ باتّجاه الباب ، كان والدي جالساً يدوّن ما يراهُ في اصطرلابه .

دخلت عليهِ وصرختْ به صرخةً قويّةً ارتعش لها المنزل كلّه .

في تلك اللحظة هبطتْ ياقوتُ من حجرتها لتستفهم عن

الأمر ، فهرعتُ أنا إلى حجرةِ والدتي لأختبئَ ، غيرَ أنّ ياقوت هرعتْ إلى الحجرةِ ورائي لتسألني لمَ أمّي تصرخ بوالدي .

فتلعثمتُ أمامها . فأمسكت بي برقة وعدّلت لي طاقيتي ، ومسحتْ على وجهي-غالباً ما كانت تفعل ذلكَ معي- وسألتني لمَ أنا خائفٌ ، ولماذا تصرخ والدتي هكذا بوالدي .

غير أن صوت أمّي بدأ يتضح شيئاً فشيئاً .

قالت والدتي لهُ «نصر الدين رآكما معاً في الحجرة ، وهو الذي أخبرني» .

فنظرتْ إلي ياقوت وعيناها مغرورقتان بدموعها ، أما أنا فلا أعرف أين أخبئ وجهي منها .

كنت أستمعُ لصراخ أمّي الفاقدة لأعصابها ، وهي تقسمُ لوالدي بأنّها سوف تبيعُ ياقوت غداً في سوق النخّاسين . ثم اندفعت أمّي نحو حجرتها باكيّةً وأغلقت الباب بالمفتاح لتراني أنا وياقوت كلانا في حجرتها ، جالسين باكين على سريرها .

أنا وأمي وياقوت

بقيتُ في مكاني متسمُراً ، باكياً ، مرتعشاً من الخوف والخجل معاً ، بينما اندفعتْ ياقوت راكعةً أمام أقدام أمّي ، واضعةً شفتيها على حذائها ، ملتمسة السماح منها .

لحظاتٍ ، حتّى لحقَ والدي بها إلى الحجرة وهو يضرب الباب بكلتيّ راحتيه ويصرخِ :

-فيروز افتحي البابَ ، أرجوكِ . . افتحي الباب ، سوف

تُأذين نفسك ، ماذا تفعلين يا فيروز؟ أناشدكِ الله أن تفتحي الباب .

-انصرفْ فأنا لن أؤذي نفسي .

تحول المنزل

مرّتْ على المنزل أيّامٌ صعبة ، لمْ تنفّذْ والدتي وعدها ببيع ياقوت في سوق النخاسة ، إلاّ أنّها تركتها دون أن تكلّمها ، أو تكلّم أحداً في المنزل ، وكانتْ تلك الأيّام أيّاماً صعبةً عليها أيضاً ، ذلك أن جدّي بقي في السجن على الرغم من التحركات التي تحركها بعض أفراد العائلة ، وكانت الرسائل القادمة من سجنه تقول إنه يتعرّض إلى تعذيبٍ شديد .

وفي يوم كانتْ والدتي جالسةً في حجرتها ، وكنتُ أجلسُ إلى جوارها ، فدخلتْ عليها ياقوت شاحبة الوجه متورّمةَ العينين من البكاء ، وقالتْ لها بتوسلٍ شديد :

-مولاتي أنت لا تكلمينني ، وكم يشقُّ عليّ هذا ، كم يبدو لي اليوم كُرهي لنفسي جليّاً؟ وكم هو خبث الناس والحسد الذي يكنّونه لنا ، إنهم يريدون أن يحرمونا من السرور الذي نعيش فيه .

بكتْ بحرقة وأضافتْ :

«أنا ولدتُ لأكون تعيسةً ، ولأكون هدفاً ودريئةً تُسدّد إليها وتصيبُها سهامُ الحظّ العاثر . . .

إذا أردتِ أن تبيعيني يا سيدتي فبيعيني أستحلفك بالله

أن تفعلي ، إني أتعـذّب من أجلكِ ، لقـد تشوّهت مـقـاصـدي بحبّكِ إلى شكل جدّ وضيع وجدّ قبيح . .

بينمـا تمتمتْ أمّي كـلامًا خفـيـضاً بشـفـتيـهـا النحيلتين ، تقـدّمتْ نحوها وفي عينيـهـا لوعةُ الانكسار المحموم ، وحـملتْ نفسـهـا من دون وعي ، وأمـسكتْ بهـا من كـتـفـيـهـا هزّتهـا ثمّ عـانقـتـهـا . وحين خـرجت ياقوت من الحجرة تحـركت والدتي وفـتـحت الـنافـذة كي تسـتنشقَ الهـواءَ الـطلقَ ، كـانَت حـائرةً ، تفكّر ، ووجـهـهـا يتدفّق غضبـاً ، لمْ تكنْ مـرحةً هذهِ الأيّام ، مع أنّها في العادة تكون في هذهِ الأيّام في مرحٍ صاخب ، لاسيّما أيّام ربيع بغـداد ، وأيّام صيفـهـا ، ثمَّ جلستْ ، صلّتْ ، وابتهلتْ بدعـاءٍ سـريعْ ، تدعـو الله فيـه أن يأخـذ بعـمـرها ، لـقـد بـكتْ بارتعـادٍ ، وهي تـرجو الله أن لا يطيل حـيـاتهـا كي لا تـتـعـذب . كـانَ صدرها يعلو ويهبط مضطرباً ، لقد كـانَ الإحسـاس بالغـيـرة يقتلهـا ، وهي تجاهدُ لمقـاومتهِ بإرادتهـا الـواهنةِ التّي تُشبـهُ يديهـا البيضاوين الهزيلتين لأنها كانَت تحبّ هذهِ الجاريّة .

الخبر الصاعقة

لقد اشـتـدّت الحـالُ على جدّي ، وكـانت الأخبارُ القـادمة من سـجـنهِ جـدّ سـيّـئـةً ، وقـد دخلتْ والـدتي في طورٍ جـديد متـمـثّلٍ في يأسـهـا من إطلاق سـراحـه ، وشـعـورها باقـتـراب نهـايتـه ، وأدخلهـا هذا الأمـر- مع الشـائعـات عن عـلاقـة ياقـوت بوالدي- في وجومٍ وحزنٍ لا مثيلَ له .

وفي يوم كنّا جميعاً باستثناء والدي أسفلَ الدار ، كان والدي يعملُ في حجرتهِ ، بينما كانت والدتي كعادتها هذه الأيّام جالسةً عند النافذة صامتةً وحزينة ، وإذا ببوّابة الدارِ الخارجيّةِ تقرع قرعات شديدة ، فهرع مسعودُ الخصيّ ليفتحَ البوّابة الأماميّة بالمزلاج ، حيث دخل منها رسولٌ من أهل أمّي ، وعليه آثار حزن شديد ، فقد كانَ مضطرباً بشكل واضحٍ وعابساً جدّاً .

دخل عبدوس التركي إلى منزلنا ورأسه مطأطأ ، قالَت له والدتي :

-ما وراءك؟

-سيّدتي ، قتل سيّدي فخرُ الدين البغدادي .

فصرختْ والدتي صرخةً قويّةً وسقطتْ مغشيّةً عليها .

لقد جاء الرسول بخبر مقتل جدّي ، فقد عذّب على يد عبد الله بن أبي محمّد الزنكي ، آمر رئيس الحرس السلطاني ، ومات .

وقفَ والدي مذهولاً بسبب صرخةِ والدتي الحادّة ، وبسبب حركةِ الرسول السريعة ، وبسبب الخدم الذين حاولوا إثناءها عن غرس خنجر مسموم في بطنها . لم تسمع أمّي هذا الخبر كما تسمع كثيرٌ من النساء خبراً مماثلاً ، بل سمعتْه بعجزٍ كامل عن قبول فحواه ، وبكتْ بصوت عال في الحال ، وسقطتْ منهارةً بين ذراعي والدي ، وعندمّا انجلتْ عاصفةُ الأسى عرفنا أن هذه الغرزة الصغيرة للخنجر كانت قاتلة .

V

رحلة أمّي من بيمارستان بغداد

كانَت والدتي على الأرض منهكةً ، قد غرزت جزءاً من الخنجر في خاصرتها . لم يتسرّب السمّ سريعاً ، ولكنْ بعدَ لحظاتٍ بدأ وجهها يشحبُ ، حملها والدي على الجواد مع الخدم وذهبوا بها إلى البيمارستان في بغداد ، الذي يرأسه الخواجة عماد الدين .

غيرَ أنَّ والدي عاد في المساء من دونِها ، ولم ينمْ حتّى الصباح ، وكانَت ثمَّة حركة دائبة في المنزل . ياقوت الجارية معها ، خادمةٌ أخرى ، ومسعودُ المخصي ، ثمَّ هنالك بضعة خواجات يزوروننا .

وفي الصباح طلبَ منّي والدي أن أذهب معهُ لزيارةِ والدتي في البيمارستان .

**

كانَ البيمارستانُ على النهر مثلَ قصرٍ منيف ، حولهُ حديقةٌ كبيرةٌ يُلطّفُ جوّها بنوافير المياه وبالملاقفِ الهوائيّة ، وخلفهُ حديقةٌ تزرعُ فيها الأعشابُ الطبيّةُ .

وحينما وصلنا البيمارستان هبطنا من الجواد ، وسرنا في

شارعٍ يؤدّي إلى بابه الكبيرة ، كان هنالك صوفيٌّ متجوّل يقرأ شعراً ، ومتسولّة تتكلّم بأشياء تصلُ مبهمةً إلى أذني ، وعصافيرُ دوريّ لا تحصى كانَت تزقزق قربَ النهر ، وعبر الغيوم المتراكمةِ هنا وهناكَ ، كانَت تظهر سماءٌ زرقاءُ صافيّة .

حين دخلنا اندهشتُ بما شاهدتُ من قاعات كبيرةٍ للمرضى ، وثمّة قاعة للجراحة فيها الجوّ جافّ جدّاً ، قالَ لي والدي هذا الجفاف يساعدُ على التئام الجروح ، وهنالك مكتبة ضخمة للمخطوطات الطبيّة ، وملحقٌ يجلسُ فيه الأطبّاء ورئيسهم بعمامتهِ البيضاء الكبيرة ، وقد سلّم والدي عند دخولهِ على الحكيم محمّد بن إسحق ، كانَ قصير القامة يرتدي عمامةً على الطريقة الكرخيّة ، وقد خرج لتوه من إنهاء عملية جراحية فريدة من نوعها لأنه استعان في إجرائها بخيوط مصارين الحيوان .

**

عند دخولِنا تشاور والدي مع مجموعةٍ أخرى من الحكماء ، على رأس كلٍّ منهم عمامةٌ بيضاء كبيرة ، أبرزهم الخواجة عماد الدين وهو أشهر حكيم في زمانه يقفُ وأمامه دستٌ ، فيه المباضعُ والمقصّاتُ والجفوتُ بأحجامها وأشكالها المختلفة . وكانَ ثمّة مجموعةٌ أخرى من الحكماء في الجهة المقابلة ، يقومون بأنواع من جبائر البوص أو جريد النخل لتجبير قدم مكسورة .

وثمّة خلفهم آلات كثيرة من الفضّة أو الصُلْب أو

النحـاس . وثمَّـة مـبـاضعُ مـخـتلفـةُ الأشكال فـمنهـا المبـاضع الشوكيّة والمعقوفةُ ، والجادعُ والجادرُ والمباردُ والكلاليبُ ، ومشارط منها ذو الحدّ وذو الحدّين ، ومناشيرُ كبيرةٌ للبترِ ، وصغيرةٌ لقصّ العظام الداخليـة كـمـا قـالَ لي والـدي بذالك الصـوت الهـادئ الذي عـهـدت سمـاعه في كل مرة يقوم بهـا بدور الأب المعلم ، فكان يقـضي على مـا بقي من صـبـري وجلدي ويزيدني لـوعـة ولهفة لرؤية أمي .

أمّي في البيمارستان

أمّي جـالسـةٌ وقـد ألقتْ برأسـهـا إلى الخلفِ فـوق وسـادة عـاليـة ، وقـد بدا الـهـزالُ عليـهـا ، لمْ تكنْ تتـحـرّكْ أبداً ولكنّـهـا كـانتْ تتنفسُ بصورةٍ ثابتة . وبعدَ أن جلستُ أمامها ، شعرتُ بتنهيدة تصاعدتْ من حلقها ، وهزّتها .

كأنَّ وجهها وجهَ طفلٍ نام من تلقاء نفسهِ وهو يغرقُ الآنَ في أحلامه .

لم يبدّد السمُّ وجهها الجميلَ ، ولكنْ هنالك قسماتٌ حادّةٌ ظهـرتْ ، وغـضـونٌ لم أكنْ رأيتـهـا من قـبلُ . وحين سـمـعتْ صـوتي ، ارتجـفتْ ، نظرتْ إلي ، وابتـسـمتْ رغمَ المرض ، رغمَ الهزالِ الذي سيطرَ عليـهـا ، وشـاهدتُ نظرةً كليلةً في عينيـهـا اللتين كـانَتـا تحدّقـان إلي بثبـاتٍ ، لم تكنْ تلكَ نظراتُ تأمّلٍ ، بقـدر مـا كـانَت نظرات حنان ، ومـدّت يدها الواهنة لتـمـسح الدمـعـتين الصـغـيـرتين اللّتين هبطتا من عيني ، وعدلّتْ لي

قفطاني ، وثبّتت عمامتي الصغيرةَ على رأسي .

**

بعدَ ساعات ، ربما كانَ ذلكَ في المساء ، وكنا جالسين ، أنا ووالدي والخدم ، أمامها . كنتُ أصغرهم بعمامة بيضاء وقفطان أحمر ، ومداسٍ من الجلد ، أجلسُ متربّعاً أتوسّط الجالسين وأنظرُ إليها .

لا أعرف كيف ، شعرتُ لحظتها بأن الله قد ناداها ، وأنّ ثمَّة ملاكاً قادماً إلى الأرض ، وكانَت تنتظره على مهلٍ ، لم تكنْ تسألْ : تُرى ما هو هذا الشيء الذي يحملهُ ، أو ما هو وجهه ، وما هو جنسه أو دينه؟ فقد كانَت تعرف ، وكانت تعرف مثلما حدثتني عنه مرّة ، أنه ملاك لطيف جدّاً ، وعصيّ على التسمية ، وهو قادمٌ الآنَ إليها .

لقد شعرتُ به عند وصوله ، شعرتُ برفرفتهِ وهو يحومُ حولها زاحفاً من السماء إلى الأرض ، متقدّماً عبر آلاف من الأشياء ، عبر الأصواتِ والروائح والألوانِ التّي ملأت الجوّ ، وبوصولهِ فرّت النظرةُ الحنونةُ من عَينيها ، وحلّت محلّها نظرةٌ كامدةٌ تكادُ لا تطرف ، وربّما إغماضةٌ أبديّة متآلفةٌ مع القلب الذي أخذ يخفتُ حتّى خلد إلى الصمت ، ومع الدمّ الذي هرب على حين فجأةً من وجهها ومن جميع أجزاء جَسمها .

لمْ أتوقفْ عن التساؤل عن ماذا يكونهُ الإحساسُ بالموت؟ هلِ هو بهجةٌ سيطرتْ عليها لحظتها ، نفاذُ بصيرةٍ واضحٌ وقويٌّ يمكّنها من نبذ ذلكَ الإحساس بالحزنِ أو الخوفِ ، كنت أبكي

وأنا أرى اليدين الرقيقتين الضعيفتين ، وقد طواهما الموت ، والوجه الذي لم يعبّر قطّ إلاّ عن حبّها ، وقد أصبحَ جامداً وشاحباً وميتاً ، لقد رأيتُ بعدَ تلك اللحظة الموجعة موكباً من السنوات الطويلة تأتي إليّ ، كأنَّها قادمة منها بالتأكيد ولا تخصُّ أحداً سواها أبداً ، والصورة التي لن تفارقني ما حييتُ :

أمّي وقد فتحتْ ذراعيها ومدّتهما للترحيب بملاك غير مرئي قادم من جهة بعيدة : السماء .

**

كانَ ذلكَ في منتصف جماد الأول ، وقد انطلقتْ سحبُ الموت في البيمارستان ترنُّ عالياً وتدقُّ نذير النهاية ، وما كانَ الخدم مصدقين ، كانَوا يظنون أنّ السادة والحرائر لا يموتون هكذا ، وبهذهِ السرعة . ياقوت لمْ تكنْ مصدّقةً أيضاً ، فكانَت أمّي مسجّاةً على السجّادة وعيناها مفتوحتانِ ، ووجهها شاحبٌ جدّاً ، وكنّا نجلسُ بالقرب منها ونحنُ نبكي ، ووالدي يحضنُ الخواجة عماد الدين وهو يجهشُ في البكاء .

وفي المساء كانَت إغماضةُ عيني أمّي تتماوج مع دوائرَ بطيئةٍ ذابتْ مثقلةً بالألوان كانَت تخطّها يدُ والدي وهو يرسمُ لها طاووسين على جدار المنزل .

زيارة إلى الخواجة عماد الدين في مجلسه

بعدَها بأيّام ، كانَ والدي قد اصطحبني معهُ لزيارة الخواجة عماد الدين في مجلسهِ .

وقد ألبسني مثلهُ عمامةً سوداءَ إشارة الحزن على أمّي ، وركبنا جوادينا من أمام منزلنا ، وسرنا في درب الدينار ، قاطعين السوق حتّى محلّة الظفريّة حيثُ مجلس الخواجة عماد الدين . في الطريق لمْ نتكلّم أنا ووالدي فيما بيننا أبداً ، كما أنّني لم أكلّمهُ بشيءٍ منذ وفاتها ، وهو من جانبهِ لم يشرْ لها باسمها أبداً ، ولم يشرْ لها أحدٌ باسمها قطّ في المَنزل ، ولكنّا كنّا نشير لها بضمير الغائب ، هي قالَتْ ، هي فعلتْ هذا . . .

**

كانَ منزل الخواجة عماد الدين جميلاً جدّاً وقد أُلحقَ بهِ مختبرٌ لأبحاثه الطبيّة وكانَ عددٌ من طلابه يزورونه هناكَ أيضاً ، وحين دخلنا كانَ في استقبالنا خدمه وجواريه .

دخلنا عليه وقد تقدّمتنا جاريتهُ رضاب اليونانيّة ،ويقالُ إنه كان يهيم بها حبّا ، كانَ رجلاً نحيفاً في قفطانٍ أسودَ ثقيلٍ ، وجلبابه من حرير . حول رقبتهِ كوفيّةٌ بيضاء ، وفوق رأسهِ عمامةٌ قرمزيّةٌ صغيرةٌ . خلف رأسه آيةٌ من القرآن الكريم بخطٍّ نسخيٍّ جميلٍ ، تصدر عنه كلّ لحظة ابتسامةٌ قصيرةٌ ، وبين آنٍ وآخر ينهض واقفًا ليصافح أحد الداخلين ، وقد بدا والدي الطويل قصيراً إلى جواره .

كانَ والدي قد جلس إلى جانبه ، وتحدث له عن مقتل جدّي ، بينما كانَ الخواجة عماد الدين يوجه التحيّة إلى الخواجة سنان الواقف قرب الباب ، وهو يرتدي قميصاً أبيض طويلاً ، وعمامةً صفراء موشّاةً من أطرافها ، ووجههُ شديدُ

الشحوب . وقد ردّ التحيّة إليهِ بصوتٍ خافت .

قالَ والدي إنّ الكتاب بمأمن ، وإن خواجة الخواجات لم ينطقْ بشيء إلى حرس السلطان الذين عذّبوه قبل أن يقتلوه .

أومأ الخواجة عماد الدين برأسه موافقاً :

– يقيناً ، يا خواجة ما توردهُ لي الآن من أقوال هي جدّ مطابقة لِما وصلنا ، وقد منحنا الله بهؤلاء الخواجات خير حظّ فيما نرغب فيه! ثمَّ قالَ .

– ولكنْ انتبه ، يجب أن يكون القاموس بعيداً عن كلّ عين .

– لا . اطَمئن . أنا وضعته في مكان لا يمكن الوصول إليه . .

كانَ الخادم قد جلبَ لنا صحافَ الفواكه ، وظلّ الحارسُ في الباب مستنداً إلى رمحهِ ، بينما بقيَ الخواجةُ عماد الدين صامتاً غارقاً في تأمّلات حزينة وغامضة ، بعدَ أن خرج الخواجة سنان من المكان وهو لا يقلّ عن الخواجة عماد الدين اضطراباً وتفكيراً ، صعد على صهوة حصانه ومضى .

**

كانَ الخواجة عماد الدين قد ألّف ذلك الوقت كتاباً في غايّة الأهمية ، اسمه القانون في الطب ، وهو مذكراتٌ شخصيّةٌ سجّل فيه آراءه الخاصة ، وقصص مرضاه ، ومن ضمنها قصّة والدتي ، كما دوّن فيه مقتطفات من كتب الطب التي قرأها ، من مؤلفات أبوقراط إلى كتب معاصريه من الأطباء . وبذلكَ

فقد حفظ لنا مادة بعض الكتب التي فقدت أصولها اليونانية منذ قرون عديدة من الضياع . ومن يقرأ هذا الكتاب يدركُ أنّه ليس كتاباً إنما هو موسوعة الخواجة عماد الدين الخاصة ، جمع مادتها من مصادر متعددة مسجلاً معها خبراته الكثيرة المتواصلة . ويوحي ترتيب المادة العلمية في هذهِ المذكرات بأن الخواجة عماد الدين كانَ يدون ملاحظاته في كراسات يضعها في حافظات . وكانَت كلّ حافظة من حافظات الأوراق مخصّصةً لموضوع من الموضوعات الطبيّة ، وتمَّ ترتيبها جميعاً على نظام خاص ، من القرن إلى القدم وكانَ الخواجة يدون كلّ ما يقرأ- حتّى تلك الآراء التي حكم ببطلانها . فكانَ يسجلها مشفوعةً بنقد يكتبه بوضوح تام لا لبس فيه .

بعدَ عام من وفاة والدتي

يجلسُ والدي على دكّة مفروشةٍ بالسجّاد ، رأسه حليقٌ تماماً ويرتدي قميصاً أبيض مزركشاً ، وعلى رأسه عمامةٌ كبيرةٌ حمراء فاقعة ، يكتبُ بالمدادِ ويسبّح بمسبحتهِ ، وعلى مقربة منه اسطرلابٌ ، وأطباقٌ ، وصناديقُ ، وأوان معدنيّة .

ثمَّ ينهض فجأة من مكانَه ليتوضأ ، ثمَّ يخطو إلى نهاية الحجرةِ حيثُ المحرابُ المزخرفُ ، يفرشُ السجادةَ ويصلّي ، ينتصبُ واقفًا . ينحني . ثمَّ يسجدُ ، وبعدَ أن يجلس على ركبتيه ، يسلّم وهو يخلعُ العمامةَ عن رأسهِ فيبدو حليقاً باستثناء لحيتهِ الممدودةِ الطويلةِ ، بعدَها ينهضُ ليرتدي مداسه

الفارسيّ الأصفر ، ويصعد النور في السراج ثمَّ يسيرُ إلى المطبخ فيشاهدُ عنكبوتاً على الحائطِ فيطردهُ بمهشّة ثمَّ يدخلُ هناكَ حيثُ الخادمة ياقوت تعدّ الغداء ، يتلفت يميناً وشمالاً ويلتصق بها ، وهي تغمضُ عينيها بينما تتدلّى جدائل شعرها الطويل على كتفيها .

VI

بغداد بين أبي جعفر والاسكندر المقدوني

بعد وفاة والدتي ، شعرتُ أنّ عليّ أن أنخرط جديًا في أمر الطائفة ، لا بسبب ما حدث للعائلة ، إنّما بسبب رفعة وقدسيّة العمل الذي يمكن أن يؤديهِ الإنسان من خلالها .

فالخواجة هو اللّقبُ العظيمُ الذي يمكن أن نستمدّهُ من هذهِ الطائفة التي تمتدّ إلى سلالة من الصنّاع والبنّائين منذُ أوّل إمارة عبّاسية وحتّى الآن ، ونتائج البناء والعمل والصناعة جدّ ثريّة ، فقد عرفت هذهِ الطائفة مع مرور الزمن تفاسير فلسفيّة غاية في الأهميّة ، واستطاعت أن تعوّض مفهوم الصفائيّة بمفهوم الخواجيّة بسرعة كبيرة ، كما أنّها قدّمت لأهل بغداد ، على الدوام ، كبير الصنّاع ، وهو اللقبُ الذي يتوارثه الخواجات جيلاً بعدَ جيل ، ولا يمكن الوصول إلى هذهِ النتائج الثريّة إلا بقراءة حياة الخواجات الذين برعوا بالحساب والرياضيّات والتأليف المتناغم بين الأشياء ، وكما قالَ المعلّم فيثاغورس إن العدّ والنغمَ هو هذا العالمُ المحيطُ بنا ، والعالمُ المحيطُ بنا لا يمكن تفسيره إلاّ من خلال الفلسفة والموسيقى ، وقد مضتْ هذه الطائفةُ الخاضعةُ لنظامٍ صارمٍ لا في بناء وتشييد بغداد فقطْ ، إنّما في

التأليف الموسيقي والفلسفة والطبّ والفلك .

**

وهكذا على الطائفة أن تجعلَ من بغدادَ مركزَ هذهِ الصناعة ، أو مركزَ هذا العمل ، إنّه عملٌ واحدٌ لا يمكن أن يفهم بمعزل عن هذا الترابط العميق بين عناصر الكون وذراته ، وهو ليس مهنةً إنّما هو نشاطٌ أخلاقيٌّ مضيءٌ يقف بمواجهة الخراب والتدهور والتقهقر .

**

إنّ عمل الخواجات كما أرادهُ الله بالنسبة للطائفة الخواجيّة يثبت أن المدينة الفاضلة هي مدينة ممكنة ، وأنَّ البناء هو البديلُ عن عتمةِ هذا العالم ، والأملُ في مواجهةِ اليأس ، والنفيُ المطلق لتضخّم الكراهيّة ، ونتائج الخراب ، ونهايةٌ للضغينة والتعصّب ، وهؤلاء البنّاءون والصنّاع من فلكيين وخيميائيّين وأطبّاء وموسيقيين وشعراء في عهد العباسيّين ، وعهد السلاجقة ، وعهد البويهيين ، وعهد الإليخانيين ، هم الذين اضطلعوا بهذهِ المهمّة ، وهم الذين أرادوا أن تكون بغداد فاضلة لا بقببها ومدارسها ونقوشها ومذهبّاتها ومساجدها وقصورها فقط إنّما بأخلاقها العظيمة .

بغداد والاسكندر وقاموس بغداد

يضعُ قاموسُ بغداد بدايةً أخرى لتشييد بغداد ، ويجعلُ من هذه اللّحظة بدايةً لتاريخ الطائفة .

فلا يبدأ تأريخ بغداد من تشييد الطوب الأوّل في بغداد ، بل من اللّحظة التي مرّت بها صورةُ بغداد في ذهن الاسكندر ذي القرنين .

من لحظة وقوفِ هذا القائد على نهر دجلة ومرُور صورة مدينةٍ عابرةٍ في مخيّلته ، لم تكن بغداد بالاسم بعدَ ، لكنّها كانَت مدينةً مدوّرة وفي وسطها قبّةٌ مذهّبةٌ كبيرةٌ تسطعُ عليها الشمس وتنعكسُ أشعتها على زرقة أمواج نهر دجلة .

**

لقد رأى الاسكندر ذو القرنين (هكذا سماه المسلمون : قرنٌ في بلاد الروم وآخر في بغداد) أوّل منظرٍ للمدينة قبل تشييدها ، رآها في الضوءِ المتوهّج مثل فضّة ذائبةٍ على لوح من المعدن ، فيها من كل جنس وعرق بشرٌ : فيها مجوسٌ من الرها ويهود من الحيرة ، فيها مناذرةٌ عربٌ ونبطٌ ، روميون وفرسٌ ، إبلٌ ، شاةٌ ، قلانسُ وعماماتٌ ، سادةٌ يمشون في الطرقات المعبّدة ، ونساءٌ يتهادين بكسلٍ يضعنَ في أنوفهنّ زينةً تتدلّى وتتأرجح من الذهب .

فقالَ لأصحابه : «إني أرى مدينةً عظيمةً على مقربةٍ من هذا المكان ، مدينةً مدوّرةً كبيرةً ، لا تشبه أيّ مدينة رأيناها ، مدينةً روميّةً أو فارسيّةً» .

لقد صمت الجميعُ بوجههِ ، لم يعرف أحدٌ ما كانَ يجول بخاطر تلميذ أرسطوطاليس ، ولا أحد يعرف ما يظهر في مخيلته وفي رؤياه .

فطلبَ أن تُسرجَ خيولُه ويمسكُ عبيدهُ بأرسانها ، ثم يمتطيها قوّادهُ ، ويتبعهم جنودهُ وعبيدهُ وحرّاسهُ ، وهكذا قد امتطوها منتعلين ومسلّحين ، يقال إنهم كانَوا خمسين ألفاً ، ومئة ألف من العبيد يعدون خلفهم ، أما دليله فقد كانَ هو الآخر على جواده ، وثمّة حارس يحمل مؤونته ، ومعه ثلاثة جياد تساق بأرسان بسيطة ، بدت مثل خيول نشطة ، تعدو مسرعةً بنخزة مهماز ، وصفير يقلّل من سرعتها .

ومن وقت إلى وقت ، عند اجتيازهم للصحراء ، كانَوا يمرّون بواحة مغطّاة بالنخيل ، أو بجيفةِ بغلٍ ما مدفونة إلى النصف في الرمال ، أو بقايا هيكلٍ عظميٍّ لجملٍ ميّت ، أو بقايا حصان أحشاؤه المكشوفة سوّدتها الشمس ، ورأسه مجفّفٌ كلحاء الشجر .

بغداد سراب الإسكندر

حين وصلوا المكان ، أحسَّ القادة أنهم يطاردون سراباً في عيني تلميذ أرسطوطاليس ، يطاردون وهماً ، يتبعونهُ ولا يصلون ، غيرّ أنّهُ وحدهُ الذي كانَ يرى مدينةً عظيمةً مشيّدةً في هذا المكان ، مدينةً تُعدُّ مركز هذا العالم ، فيها عرشٌ للجمال لا يغيب ، وعرش للصناعة لا يزول ، فيها طرقٌ ودروبٌ مثلَ رقاع الشطرنج ، على اليمين سوقٌ عظيمٌ بمحاذاة الضفّة ، وفي الوسط ساحاتٌ لقوافل التجارة القادمة عن طريق الحرير . فيها معابدٌ عظيمةٌ تزيّنُها قببٌ ومناراتٌ ، وأمامها باعةٌ من كلّ عرقٍ ولونٍ ،

ويتفرّع الميدان إلى درب للعلماء ، ودربٍ للخمارات ، وموقف للجياد ، ومن الجهة الأخرى قصرُ الإمارةِ ومنازلُ الحرس والعبيد .

قالَ لهم إنّه يرى في هذه التلال الممتدة مدينةً عظيمةً يمرُّ النهرُ من منتصفها ، يرى سورها المستديرَ وهو يحيط معبداً ضخماً وقصراً منيفاً ، وفي الشرق ، . . .هناك ، سورٌ ثان يضمُّ المدينة الحقيقيّة ، شوارعها المتعامدة ، أسواقها العظيمة المسقفة ، قصورها الجميلة المشيدة وسط الحدائق ، حمّاماتها ذات القبب العاليّة ، وهنالك أشار لهم بصولجانه :

«صّفان من بيوت الجند ، وأرباب المهن ، والحرس ، والعمّال ، والتجّار ، وبعدَ ذلكَ العامّة الذين يحيطون المدينة دائرة بعدَ أخرى» .

«وهنا» أشار لهمْ تحتَ قدميه : «الميدان الكبير والخمّارات ، وبيوت اللّهو . أما من الجهة الأخرى من الجسر فأنا أرى المراكبَ والسفنَ والقصور» .

هكذا يقول القاموس

يقولُ القاموسُ إنّ الإسكندر ذا القرنين رأى على الخلفيّة فيثاغورسَ ونيماقوسَ ، وخلفهُ سلفهُ من السلسلةِ الذهبيّة للفيثاغوريينَ ، إنهم من طائفة الصفائيين وسلالةِ الجابريين والسينويين والخواجات ، وأمامَهم اصطرلاباتهم ، وساعاتهم المزوليّةُ ، وفراجيلهم ، ومساطرهم ، وهم واقفون بعمائهم القرمزيّة

وقفاطينهم السود ، يحملون الدوراقَ ، واللوحاتِ البيضَ ، والأرقامَ السحريّةَ ، والشاراتِ الإلهيّةَ ، وهنالك بغداد ، مدينةٌ فاضلةٌ مثلما تخيّلها الفارابي ويعيش فيها الإنسان الكامل .

**

هكذا كانَت رؤية ذي القرنين ، قبل الإسلام ، مدينة تبنيها جحافلُ الجنودِ المسلمين الذاهبة إلى بلاد فارس ، جنودٌ يتوسطّهم قائدٌ عربيٌّ يرتدي عمامةً سوداء ، وخلفهُ حرس الدساكر يحملون الراياتِ العباسيّة السود ، ولا يسمع منهم غيرُ صوت الدروع وهي تتقسم ، وصوتُ الحوافر وهي تنطبعُ على الرمال ، وخلفه آلافٌ من الجنود بالدروع والسيوف والرماح ، وفي الوسط بيرقٌ كبيرٌ أطلق عليه القادةُ العربُ بالبيرق النبويّ لبني العبّاس .

ستكون مدينةً . .إذن! قالَ الاسكندر لأتباعه ، وبعدَ مئات الأعوام قالَ مولانا أبو جعفر :

-كوني مدينةً يتوافدُ إليها العربُ والنبطُ والفرسُ والأتراكُ وأهلُ الشام وأهلُ مصر والبرابرةُ والرومُ والصفرُ والصقالبةُ ، وستكون فيها ألفٌ من الخانات الكبيرة والصغيرة ، يشيّدها المهندسون العرب الذين أطلق عليهم فيما بعد ، بمهندسي بغداد ، وهم :

عبد الله بن محرز ، وحجّاج بن عرطاط ، وعمرانُ بن الوادع ، وشهابُ بن كثيِّر ، وقد أخذوا يرسمون على الرقّ خطاطةَ المدينة الجديدة ، وتبعهم مئةُ ألف صانع وعامل .

قالَ مولاي أبو جعفر :

- هنا سنشيد دار السلام!

يقول قاموس بغداد : هل كانَ الإسكندر المقدوني يسمعهُ؟ وهو يقول لأبي مُسلم الخُراساني :

«أريدُ من عاصمة الإسلام أن تكون عاصمةَ السلام- وهو اسمٌ من أسماء الجنّة- أن تكون على نهر السلام-وهو اسمٌ من أسماء دجلة- وأن تكون هي مهبط السماء وسرّة الفردوس» .

رؤيا الإسكندر وقرار مولاي أبي جعفر

هل كانَ الاسكندرُ وهو في رؤياه يحلمُ بمولاي أبي جعفر وهو يمرُّ بجنده إلى خراسان؟

هنا على ضفافِ نهر دجلة ، قد غمرتهُ شمسُ الجنوبِ بضوئها الساطع ، وقد شعرّ كما لو أنه تحرّر إلى الأبد ، ومضى متوهّجاً باتجاه النهر ، ثمَّ ربطَ فرسه المطهّمة إلى شجرة سميكة الجذع .

على مبعدَة ثلاثة أشبار منه ، وقف القائد الشهير أبو مسلم الخراساني بثيابه السود التي اشتهر بها ، وهو يضع أنامله بلحيته الكثّة ، يمشّطها ، ويرمقُ المكانَ بعينيه الصغيرتين الشبيهتين بعيني صقر .

كانَ رأسهُ تلكَ اللحظةِ يزنُّ بصنوج الشمسِ والألوانِ ، وعلى مقربةٍ من ظلٍّ كثيفٍ لشجرةٍ كثّة الأوراق ، يمسك بيده اليمنى كأسَ ماءٍ باردٍ قراحٍ ، وفي اليد اليسرى دراقةً كبيرةً ،

يأكلها ، فيسيلُ سلافُها على ذقنهِ ، فيمسحها خادمه مسعود بكوفيّةٍ بيضاء اللون .

بينما يعدل القائد الخراساني ريشة بني العبّاس على عمامتهِ السوداء ، يقف مولاهُ أبو جعفر بوجههِ الأسمر وعينيه السوداوين ليتشمّم من شميمها شذى غضّاً ، فأعجبه هواءها البارد ، ثمَّ غرف بكفّيه من مائها وشرب من فضّته مستساغاً عذباً . نظر إلى دجلة ، وإلى الطريق المتأجّجة بالغبار . كانَ يلتقطُ بين أهدابهِ الطارقةِ سطوعَ السماءِ البيضاءِ من الحرِّ المتعدّد الألوان . وفي البعيد كانت وجوه الجند مبلّلةً بالعرق ، وأجسامهم الرطبة تحت القماش الخفيف الذي يوشّحها ، تنتظر إشارة البدء .

فالتفت إلى أبي مسلم وهو يضع يده على قبضة سيفه المفضّضة .

فقالَ أبو مسلم :

-ما عساك تأمر؟

قالَ أمير المؤمنين : «لم لا تكون هذهِ المدينة عاصمة بني العبّاس؟»

ورقة من القاموس

كانَ سيدنا الخليفةُ قد وقفَ ذلكَ اليوم على حصانهِ المطهّم ، أمامَ بستانها الأخضر الكثّ الكبير ، وقد أصابَ النهرُ وجههُ الساطع بقطراتهِ ، وأرسل لهُ من الصبا قبضةً ونفحةً من

عطرِ ترابِ روضاته ، فتخدّر في مكانَه وفكّر كيفَ يختبرُ هذا المكانَ إن كانَ صالحاً أم لا؟

كانَ سيّدي أبو مسلم إلى جانبه ، يمسكُ بعنان حصانه المعروف باسم الصقر ، فأشارَ عليهِ أن يتركَ فيها قطعةً من اللّحم ثلاثةَ أيّام فإن لم تتعفّن فهي المدينةُ الصالحةُ لخلافته .

كانَ وجيب الدمّ يتصاعد حتّى أذنيه ، وهو ينظر بملء عينيه صمتَ الظهيرة المطبق ، على أديمِ دجلة ، غير أنّه عرف بعدَ أن وجدَ قطعة اللّحم بعدَ ثلاثة أيّام علَى حالها :

أن هذهِ البقعة المباركة هي سرّة الأرض ، ومهبط السماء .

ستكونَ مدينةً مدوّرةً يتوسطها نهرٌ عظيمٌ ويفلقها فلقتين ، من اليسار الرصافةُ بأسواقها ومساجدها وحمّاماتها ، ومن اليمين الكرخ بقصرها وديوان حكومتها ومقر جندها .

هكذا رأى الاسكندر وهو في غفوتهِ مدينةَ بغداد المدوّرة التي كانَت إيرانوبوليس في العام ١٤٤ من السنة الإسلامّية ، وعام ٧٦٥ من السنة المسيحيّة ، في يوم الثالث عشر من تمّوز ، وقد قالَ المنجّم لأبي جعفر : «ضع يدك على أرضها فإنها تحت شعار برج الأسد ونجم القوس . هذا نجم سعدها ويوم مجدها» .

صدور العمل

في هذا اليوم صدر الأمر بالعمل ، وتحرّك العمّال بعدَ أن جلوا عن الأرض المنبسطة الأحراش .

في البدء شيّدوا سقيفةً خشبيّةً كانَ بابها مفتوحاً ليطل

على فناء العمل ، وفي داخلها محملٌ ذهبيٌّ مفروشٌ بالحرير ، وحين دخلها الخليفة وجد خادمه مسرور نائماً في الركن .

نادى مولاي على الحرس فخرجوا إليه ، وكانَ المهندسون بجوار الخيمة ، وهم يجمعون الأعشاب ويشعلون النار . ثمَّ أخرجوا المحمل الشريف وطافوا به في بودرة الكون قبل أن تبزغ بغداد من الأرض وتكون عاصمة العباسيّين .

بناء المدينة

وقف أبو جعفر كما تخيّلهُ الاسكندر ذو القرنين بوجهه الأصهب وإلى جانبه قائده أبو مسلم . وأمر بمائة ألفِ عاملٍ من بنّائين ومهنّدسين ونجّارين ونقّاشين ليشيدوا المدينةَ ، رفعَ يده إلى أعلى وأشار لهم أن يبدأوا .

كانَ المهندسون قد هرعوا أمامه ، بينما توزع مائةُ ألف عامل على المكان ، بعضهم كانَ يحسب الطوب بعدّ المداميك ، وبعضهم كانَ يخطط الأرضَ بالرماد ، وبعدَ أن وضعوا كراتٍ من القطن مشبعة بالزيت أحرقوا الكرات تاركة آثارها ، فهرع العمّال مكانَها ليحفروا .

**

كانَ أمير المؤمنين واقفاً وإلى جنبه قائد جنده الوسيم أبو مسلم ، ينظر إلى حشود العمّال وهم يحملون الطوب ، أو يؤسسون ، أو يحرقون ، أو يحفرون ، بينما المدينة ترتفع يوما بعدَ يوم ، طوباً بعدَ طوب ، جدران القصر ترتفع شيئاً فشيئاً ، قبب

الجامع الكبير ومناراته ترتفع قبّةً بعدَ قبّة ومنارة بعدَ أخرى ، أما السور فقد بدأ يعلو وهو يحضن المنازل الجديدة المشيدة ، والنخيل والأشجار التي تشكّل صفّاً من جهة النهر إلى السور ، وتشكّل حدائق صغيرةً أمام منازلِ الجند ، وحدائقَ كبيرةً غنّاء عند قصور التجّار ، وكلّما كانَ القصر يرتفع شبراً كانَ السور يرتفع هو الآخر شبراً ، بينما يطوف الأمير وقواده على جيادهم من الغسق بمحاذاته ، ليروا ارتفاعه وهو يصل من باب خراسان من الجهة الشمالية الشرقية إلى باب الشام من الجهة الشمالية الغربية ، ومن باب البصرة من الجهة الجنوبية الشرقية إلى باب الكوفة من الجهة الجنوبية الغربية .

**

هكذا أعلنت المدينة الجديدة ، بغداد المدوّرة ، حيث زفّ كبير المهندسين عبد الله ابن محرز لأبي جعفر بشرى تركيب الأبواب الحديدية على المداخل .

فهرع الأمير وقواده إلى المكان ، بعدَ أن جلبوا له جواداً ليركبه ، وقد سار أمامهم بعمامته الصغيرة ، ولحيته الناعمة ، ووجهه الذي يقطر عرقاً ، وتوقّف عند باب الشام بعدَ أن وضع العمّال الباب الحديدي الذي انزلق من أعلى على مجرى البرجين الجانبيين .

هبط مولاي أبو جعفر من حصانه الأبيض ، وهبط المهندس من حماره ، ليفتح الباب بيده ، ويدخل إلى دهليز مغطى بقبو وليصعد السلم الموجود فوق الدهليز المقبى ليصعد

إلى السطح وليرى القبة المحمولة على أربعة محاريب ركنية .

وهنالك مرتفع يجلس عليه الخليفة وقت الراحة ليشاهد المناظر المحيطة بكلّ مدخل كما يشاهد الوافد من خراسان أو من الشام أو البصرة أو الكوفة .

بغداد بزغت من الأرض

على رؤيا الاسكندر ، وعمل مولاي أبي جعفر ، بغداد بزغت من الأرض .

بيد أنها لم تصبح مدينة عظيمة إلا على يد خواجات بغداد .

لقد أصبحت مدينة كبيرة على أيدي هؤلاء الذين جعلوها بضفتين ، فمن الضفة الغربية أستان علي ، وطسوج عنبر ، وطسوج مسكين ، وطسوج قرطبل ، ومن الضفة الشرقية استان هرمز ، وطسوج نهر بوق ، وطسوج كلواذى ، ونهر بين ، وجازير ، وراذان ، في الضفّة الغربية مدينة المنصور ، وفي الضفة الشرقية مدينة المهدي . وفي الوسط مركزان من المدينة المستديرة ، الأول هو القطيعة ، سونايا ، التي أصبحَت المدينة الشرقية ، وتقع إلى الضفة الشرقية للسراة ، مع قصرها الوضاح وجامعها الكبير .

والثانية هي الكرخ ، وبه المرفأ ، فرضة جعفر ، حيث ترسو القوارب القادمة سواء من الموصل أعلى النهر ، أم من البصرة أسفله .

VII

معسكرات التدريب: خواجات وعسكر

لمْ أصبحْ عضواً في الطائفة إلاّ بعدَ بلوغي سنَّ الخامسة عشرة ، وفي الرتبة الدنيا التي كانَ يمكنني أن أنتظم بها ، وهو شيءٌ طالما حلمتُ به ، وآمنتُ إيماناً راسخاً به . أقولُ لقد آمنتُ بهذا الطائفة كشيءٍ بديهيٍّ مثل طلوع الفجرِ بعدَ ليلٍ أسود مدلهمّ ، فجر أتمثلّه كصورة واضحة بعينيْ ووعيْ من شهدَ واقعها ، لا بعيني من عدّها مزيّفةً بعيونٍ لم تشهدها .

وآمنتُ بهذهِ المهمّة الموكلةِ لي ، لأنَّ الله هو الذي وضعها في الدرب الذي سرتُ فيهِ ، وطلعتْ لي كما لو طلعَ النهارُ من اللّيل ، كما الضياءُ وقد انبثقَ في الفضاء ، وانبجسَ السطوع المميز واللونُ القرمزيّ الملتهب لأمواج الحقيقة المضيئة . وقد رأيتُ وجوه الفلاسفة والصنّاع والفنّانين من فيثاغورس حتّى الخواجة عبّاس معلقةً فوق رؤوسنا ، يتوسّطهم جابرٌ بن حيّان الكوفيّ وفي يده دورقٌ ورديٌّ وبلون النار ، كانَ قد انحنى على رقٍّ لوح كبير اتخذ لوناً صدفيّاً ، وخلفه هذا العالم الذي انغرس في قاعٍ السماء مثل قرصٍ من الفضّة .

كانَ وجهه مشعّاً مثلَ المياه الصافية العميقة ، إنّه الرمز

الذي اتبعناه ، بعد أن اتبعهُ الخواجات ، ذلكَ أن العالم الذي كنّا نعيش فيه ، عالم بغداد ، المدينة العباسيّة ، موكولٌ إلى يقينٍ غير مؤكّد ، وعلى الرغم من رخائهِ الشديد ، إلاّ أنّه موكولٌ إلى يقينٍ مخادع يمارسُ تأثيرهُ على حياة الأفراد ، والطوائف ، والجماعاتِ . وهنالك التفكّك الواضحُ في أنظمة حياته ، وفي قيمه المثبّتة ، وفي أحكامه الأخلاقيّة ، وهنالك الأزماتُ من كلّ نوع ، بل ثمّة صعودٌ محمومٌ للمشعوذين الذين يريدون تحويل المَعادن الخسيسة إلى ذهب . وبدلاً من ازدهار الخيمياء كانَت هنالك الشعوذة ، والكتب الخياليّة ، وسلطة الفقهاء الرجعيين ، والتي نجدها في كلّ مكان .

انتظامي الرسمي إلى الطائفة

كانَ انتظامي إلى هذهِ الطائفة شيئاً أقرب ما يكون إلى المنطق والتسليم ، منهُ إلى الوراثة والانسياق الأعمى ، وقد مدّني هذا الانخراط بشعورٍ أشبه بالسكرِ والنشوةِ ، كانَت نشوة حادّة تعصفُ بي من الأسفلِ مثل نافورة منبجسة من الأرض أو هابطة مثل شلال من الأعلى ، كانَت نوعاً من الطراوة التي تقطرُ في روحي ببطءٍ شديد ، وبشحوبٍ غامضٍ كنتُ ولجتُ هذهِ المسارب المنعزلةَ ، مسارب الفكر والعمل والبحث ، وتركتُ روحي وهي تستسلمُ لهذا الوهن الخفيف والإحساس المخدّر مثلما تتطلّع في الليل الدامس إلى النجوم للبحث عن رؤيا أكيدة .

كنتُ أتطلّع إلى خواجات هذهِ الطائفة مثلما أتطلّع إلى

الكواكب في السماء وهي تبعثُ تلألؤها المدهش وشراراتها التي تنبثقُ من بعيد ، وهي ترسل رسائلها الضوئية من المجرّات متوجهةً نحو الأرض .

**

ومع كلّ هذهِ المشاعر العظيمة التي اجتاحتني وأنا صبيٌ في الخامسة عشرة ، ولكنّي لم أدركها حقيقة إلاّ بعدَ أن التحقت في معسكر للطائفة .

فبعدَ انتظامي في الطائفة وبعدَ أوّل اجتماع ، كنتُ أخذتُ حصاني وسرتُ في شوارعَ بغداد ، لقد جذبني مكانٌ ما في البعيد النائي ، إلى النور الغامرِ في أزقّة بغداد بحجرها الأبيض ، وأشجارها العظيمة بخضرتها الجامعة للعصافير ، إلى المساجد الصغيرة ، والحانات العامرة والمكتظّة خلف أسوارها الصدئة ، إلى أبنية سوق الثلاثاء ذات الأقواس الطابوقيّة فوق البّوابات ، التي تظهر خلفها ، ومن خلل دوّامة قوافل الجمال ، البضائع المكّدسة .

قرار الانخراط

بينما كنتُ أتنزّهُ في الدروب الزراعية القريبة من النهر حيثُ الأرض تبعث رائحة الرطوبة الطيبة . وفي هذهِ الطرقات حيث الفلاّحون العربُ والنبطُ والفرسُ يحرثون الأرض ، كنتُ استنشقتُ من عبير عملهم طراوة الفضاء ، واستنشقتُ من الأفنية الصغيرةِ ذات العنابر الصغيرة ، وأبراج الحمام القديمة ،

روح بغداد ، وفكّرت أن بغداد العباسيّة لم تعرفْ منذُ الخليفة المتوكل عاصفةً فكريّةً ، وها أنا أشمّ من بعيد رائحة عاصفة فكريّة ستهبُّ مع طائفة الخواجيّة .

لقد أتتني هذهِ الرائحةُ بصورة بعيدة وغامضة ، بشيء طفوليٍّ أبداً ، لكنّه حقيقيٌّ وأصيلٌ أيضاً . وفي لحظتها أدركتُ بأنّني عليّ الانتظام الرسمي إلى هذهِ الطائفة ، والانخراط في الخير العام لهذهِ المدينة المقدّسة ، ولكنّي بطبيعة الأمر ، لمْ أدركْ عمق ما أقدمتُ عليهِ إلاّ بعدَ أن ذهبتُ إلى معسكر الطائفة الذي أقاموه في بغداد .

أيّام في معسكر الطائفة

لقد كانَ هذا المعسكرُ المقامُ في الصحراء في التلال المنعزلة ، والمنخفضة ، يبعثُ إلى السماء جفافهُ المضيءَ والقاسي . إنّهُ معسكرٌ سرّيٌ تمارس فيه تدريباتٌ رياضيّة وفكريّة متنوعة ، تعلّم فيه مبادئ الضبط ، والروح العسكريّة .

لقد جئتُ هارباً من ظلٍّ الخدرِ الذي كنتُ أعيشُ فيهِ مع عائلتي في محلّة الحربيّة . وكنتُ سعيداً لأنّي فارقتُ حياة المدينة اللاهية المتبطّلة ، لأعيش بين مجموعةٍ من الشبّان كانَت الصحراء موضعهم الأليف الذي يشدّهم ، وهم من جانبهم قد ابتعدوا منذ زمنٍ بعيد عن اللهو والعبث ، وما كانَوا يرومون زيارة المدينة بسبب صفاء أرواحهم وخشية تلويثها . وبعد أن عشتُ معهم تعرّفتُ على حياةٍ جديدةٍ ، تعرّفتُ على

حياة لم أكنْ أعرفها مطلقاً ، حياة متقشفة إلا أنها ثريّة وغنيّة ، وقد مدّني هؤلاء الشبّان لا بالفرح الغامر فقطْ ، إنما باليقين الذي نحصلُ منهُ على متعةٍ لا نهاية لها ، وشعرتُ بنوعٍ من التداخل الخصب بين الفكر التّجريديّ وبين المعيش اليوميّ .

وعرفتُ هناك أن صمتَ هؤلاء الشبّان لا يمكن فهمه إلا من خلال إيمانهم ، لقد قدّموا شكلاً جديداً للحياة ، لم أكن أعرفه من قبل ، وعلّموني أنّ المتعة لا تأتي من أشياء حسيّة فقطْ ، من الوفرةِ والثراءِ والأشياءِ الأخرى ، إنّما تأتي أيضاً من الضبطِ الأخلاقيّ العظيم ، ومن التقشّف ، ومن الصمتِ المهروس بالجمل الخفيّة والكلماتِ غير المنطوقة .

يوم القبول والتسليم

كانَ ذلكَ في أمسيةٍ من أماسي شهْر رمضان ، حينَ تناولتُ إفطاري في المساء بعدَ يوم كاملٍ من الصوم ، وكانَ طعاماً هيّناً من التمر ومخيض اللبن ، وركبتُ حصاني من حقل المنزل الخلفيّ ، وتهاديتُ تحتَ نجوم بغداد الصيفيّة المشعّةِ ، فعبرتُ الجسر حتّى وصلت السور ، ثمَّ خرجتُ من باب السلطان ، إحدى بوّابات بغداد الكبيرة ، هناكَ كانَ في استقبالي دليلي ، وهو من فتيان الطائفة ، وابن أحد خواجات بغداد الكبار ، وبعدَ أن أعطيته كلمة السرّ تحرّكنا على جوادينا ، وبعدَ أقلّ من ساعةٍ حدثَ شيءٌ غريبٌ ، كانَ شيئاً أشبهَ بالومضِ قد أضاءَ لنا بغداد من بعيد ، وأضاءَ لنا ومضٌ مشعٌّ

آخرِ أطول زمناً من سابقه ، امتداد الصحراء الشاسعة ، بعدَ أنْ ضربَ بنورهِ المخيف كثبانَ الرمال أمامنا .

**

لقد سرنا ساعاتٍ طويلةً في الصحراء ، حتّى لم تعد جيادنا قادرةً على السير خُطوةً أخرى نظراً لما أصابها من إعياء ، وكانَ الليل حالكاً ومع ذلكَ كانَ لا بد لنا من الذهاب إلى المعسكر . فقادني الدليل عبر أماكن يصعب الوصول إليها ليتجنّب التدحّرج في الوديان والكثبان الرمليّة في كلّ لحظة ، فأغمضت عيني واستسلمت إلى الرشاقة الحذرة لفرسي ، والتي كانت تدع نفسها تنزلق على منحدرات الروابي ، دون أن تسقط في العتمات الساكنة ، والرمال العميقة .

كنتُ متحفزاً لأجابه قدري ، وأقدّم لهذهِ الطائفة كلّ ما أملك من حياة . وحين تقدّم النهارُ وتعاظم الغروب واستحال لونه قرمزياً ، شعرتُ بريح باردة تهب من جهة الشمال ، وشعرتُ بخليط عجيب من النور والفرح في عتمة الليل ووحشته ، شعرتُ أني أقدّم شيئاً ما لهذهِ الطائفة العظيمة ، وكنتُ على استعداد أن أواصل الليل بالنهار من أجل هذا الهدفً ، لو لا أن التفت لي دليلي وقد شعر بتعب شديد ، فطلب مني أن نبيت على إحدى الروابي الرملية .

تمّددنا دون أغطية ، وقد ربط كلّ واحد منّا رسن حصانه بيده ، خلعنا عمائمنا ووضعناها إلى جانبنا ، وكلٌّ وضع خدّه على الرمال الساخنةِ ونمنا في العراء .

الطريق مرة أخرى

نمنا ساعاتٍ في العراء ، واستيقظنا مع أوّل خيطٍ للضياء ، وسرنا متوغلين في صحراء أكثر وحشة من ليلة أمس ، صحراء يخيّمُ عليها صمتٌ كبير ، إنّه صمتٌ ثقيلٌ لا صدع فيه ، ولقد سمعتُ وأنا أميلُ على الفرس صيحاتِ طيور غريبة ، سمعت الصوت المكتوم لصقور بريّة تطير طيرانها الشائه في الصحراء ، وشاهدتُ السرابَ المرتسمَ على الأفق والذي يطبعُ الصحراء بنوع من الحياة والحركة .

كانَت الرمال تتحرّك وتتغير تبعاً للهواء الذي يرسمها ، ما تراه تلةً هنا أو رابية سرعان ما تختفي وتظهر في مكان آخر ، وبين هذهِ الرمال الناعمة مساحاتٌ صلبةٌ بما يكفي لأن نسير عليها ، لقد كنتُ مندهشاً ، فلم يسبق لي أن رأيت هذهِ الأشياء في حياتي ، ذلكَ أن معيشتي كانَت تقتصر على زهد الصبي المسلم ، وتطوعه في الحياة الروحيّة التي اختارها ، وهو الاستسلام المفعم بالإيمان والتديّن لضرورة المجاهدة والمقاساة من أجل الإرادة الإلهيّة ، بينما أنا الآن على مقربة من المعسكر ، معسكر الطائفة التي تعيش على الكفاف من أن تجعل بغداد المدورة تعيش أبهى ازدهارها .

صورةُ المعسكرِ من بعيد

أوقفْنا جيادَنا برهةً لنتأمّلَ المعسكرَ من بعيد ، وأنا أُصغي بأذني لحركةٍ سريعةٍ في الأعلى ، ولخفقٍ جافٍّ ، وصيحةٍ حادّة ،

تشير كلّها إلى طيران طائر كبير كانَ جاثماً في مكانَ ما قرب المعسكر ، كنتُ أتأمّل هذهِ الرؤيةَ العجيبة الباهرة ، ذلكَ لأنّنا لمّا كنّا نهبط الوديان العميقة والمظلمة ينحجبُ المعسكرُ عنّا ، ولمّا نصعدُ الرابيةَ تظهر لنا خيامه العالية ، وقباب سرادقاته المنخفضة ، وكانَ هنالك خطّ ثان من الخيام أكثر بعداً من تلك التي تحملها الرابية ، كانَت هذهِ الرابية تحفُّ بالأفق وتنهيه أمامنا .

لقد كنتُ مأخوذاً بالشمس وهي تسفع السفح بأشعتها العامودية ، وتغمرُ قمته الشبيهة بقبة عريضة ، وبدت هذهِ القمة الشفافة وكأنّها تغرق في الضياء ، حتّى رأيتُ الحدّ الغامض بين الأرض والسماء بفضل عدد من الخيام السود المزروعة فوق أعلى القمم ، والتي كانَت الشمسُ تمرُّ بأشعتها من خلالها .

الوصول

وبعدَ مسيرة ساعة وصلنا المعسكر ، واستقبلنا الحرّاس بالباب بسيوفهم وملابسهم الخفيفة دون عمائم وقد حلقوا رؤوسهم تماماً . وكانَت هذهِ هي هيئةُ الجميع في المعسكر ، كانَوا يرتدون وزرات بيضاً ، وأجسادهم عاريةً من الأعلى ، ورؤوسهم حليقة كما لو كانَوا في إحرام الحج . هيئتهم لا تنسى أبداً ، إنّه ملمحٌ من ملامح البطولة في وجه كلّ واحد منهم ، لا لضخامة الغزوات التي قاموا بها إنّما لعظمة النيات والواجبات التي تنتظرهم ، شيءٌ بعيدٌ عن صوت المعارك والغنائم وصور

الانتصارات ، فليس بفضل القوة وحدها تمجد البطولة ، إنّما بتقديم فضل الشهادة الدائمة ، ولخصوبة الأعمال العظيمة التي سيتركها هؤلاء الفاتحون لبغداد في الأعوام القادمة .

**

استقبلني محمّد بن سيف الدين الكرخيّ ، وهو من عمري تقريباً ، لكنّه سبقني في دخول الفرقة ببضعةِ أشهر ، كانَ رأسهُ الحليقُ وعيناه الباسمتان أكبرَ عونٍ لي في هذا الدخول السرّي الأوّل ، فجاءني يركض وقد وصلني وهو ينضحُ عرقاً ، وصدرهُ يصعدُ ويهبطُ بسرعةٍ كبيرة ، وكنتُ شممت من رائحته البراءة والطهر ممتزجتين ببطولةٍ ظاهرة .

أدخلني المعسكر في تلك الساعة ، وحينما وصلتُ كانَ الجميع في حالة إنذار ، كانَ الجميع يحتلّ مكانَه بصلابةٍ ظاهرة ، عضلاتُ أجسادهم الفتيّة ، ملامحهم الصارمة ، رؤوسهم الحليقة التي تلمع تحت وهج الشمس ، ووجوههم المفكّرة المحنكة ، وهنالك أسلحة وأصفاد على مقربة من خيمة منصوبة وآثار أقدام على الرمال البيضاء ، أشبه ما سيخلفه المهزومون للظافرين في ساعة المعركة .

ومن جانب المعسكر ظهرت مجموعةٌ من الفتيان وقد عروا أجسادهم حتّى الخصر وهم يحملون محملاً مذهّباً ، كأنَّه رمز انتصار ما ، كانَوا يحملونهُ على الأصابع برهافةٍ شديدة ، وهو يتمايل بين أيديهم وهم يهرولون ، إنّه النصرُ ، وسورٌ من القرآن تُتلى بشفاهِ الجميع ، فتضيعُ الكلماتُ في الهواء ، وفي سحابة

التراب ، الأقدامُ والسيقانُ تهرولُ ، عضلاتُ السواعد ترتفعُ على كلمات الله ، بالقدر نفسه من الرهافة والجمال وهم يتهادون مثل كتلة مترنّحة ذاهبة إلى الأبديّة .

كانَ المحْملُ المذهّبُ يتراقصُ طائراً في الهواء ، كأنَّه يلامس الرؤوس والأصابع برفقٍ شديد ، وهم يهبطون به من التلّ الرمليّ الأبيض الذي كانَ يتوهّج تحت الشمس ، حتّى وصلوا به الخيمة الكبيرة وسط المعسكر ، وقد أنزلوهُ أرضاً ، وأنا ما برحتُ دهشاً أنظرُ هذهِ الصورة البطوليّة التي تختم كلّ شيء :

الرجال المنتصبون على الخيول البيض قرب الخيام ، الحرّاس المسلّحون وهم يتنقلون بين التلال دون أن يحدثوا أدنى جلبة ، وشبابُ الطائفة الذين وقفوا بصمتٍ رزينٍ عند الدروع والرماح ، الأصفاد الموضوعة أرضاً .

فجأةً هبطتْ امرأةٌ مخمرّةٌ من المحملِ الشريف ، كانَت ترتدي ملابسَ حريريّةً بيضاء ، ويبين من بين خمارها الشفاف سلسلتها الذهبية وأقراط آذانها ، عندها عرفتُ سبب هذهِ الفخامة الفحوليّة القادمة من هؤلاء الفتيان السابحين بالعرق .

أيام المعسكر

لقد دخلتُ المعسكر في شهر جمادي الأوّل ، وكانَت بغداد تعيشُ تلك الأيّام قلقاً اجتماعيّاً واضحاً ، وشعرتُ بقدومي هنا كما لو أن الله يريد بي أن أكون شاهداً على ما سيحدث في بغداد من الحروب الدامية ، وهذه الشهادة وما أراه

الآن هي العلامات التي تنبئ أطفال الأرض بالفواجع الجسيمة ، إن هذه الملحمة العظيمة التي أراها تردّ دون شكّ لهذه المدينة بهاءها ، ولكنها توقظ في الوقت ذاته وتحت صدمة المشهد كل طفل من براءته الأولى .

كانَ المشهد عجيباً دون شك ، إنه بطوليٌّ دون شكّ ، قوامه الرؤوسُ الحليقة ، والأجساد العارية إلى النصف ، والسيقان المغطّاة بمنديل دمشقَ الغامق ، وهنالك وزراتٌ أرجوانيّةٌ ، وصفرٌ ، وحركاتٌ رياضيّةٌ بهيّة ، وكانَ أحد المدربين يشقٌّ برمحه ممرّاً وسط الشبّان وهو يعدو ، ومجموعة أخرى تحمل البيارق المقدّسة وتهبطُ من التلّ ، ومن عند الطرف القصيّ من المعسكر تأتي مجموعة تحمل السيوف وهم يلوّحون بها ، وها هو محمّل آخر جاء بعدَهم ، ومجموعة شبان يسيرون بانتظام يرتدون الحرير الأبيض والذهبي ، ولهم لحى صغيرة ووقورة ، وعيونهم تنظر بورع ، فكانَ منهم من يحمل سيفاً ، ومنهم من يحمل مبخرةً أو شمعةً متقدةً بشرارات سماويّة ، فكانَوا يرتّلون بعض أبياتٍ من الشعرِ ، وهم يسيرونَ بخطى وئيدة ، ثمَّ تضاعفت الصرخَاتُ ، والأصواتُ المنتظمةُ العالية ، وكانَت صور أبطال الطائفة مرسومة على البيارق ، التي يحملها الشبّان ويعدون بها .

**

كنتُ أنظرُ هذه الحفلة العظيمةَ وأنا فاغرٌ فمي ، فابتسم رفيقي لي وقالَ :

- إن وجودك هنا سيمتدُّ إلى عدّة أشهر وعليك أن تتعود شيئاً فشيئاً على حياة هذا المعسكر .

لم أنطق بكلمة ، فقد انعقد لساني تماماً ، ولم أتمكن من الكلام أبداً ، ثمَّ فاضت عيناي بالدموع رغماً عنّي ، كنتُ أبكي من الغبطة ، وأنا أشاهد فتيانَ بغداد كما لو كانَوا قادمين من الجنّة الإلهية ، إنّهم يسيرون بانتظام واحد ، حليقي الرؤوس ، جاءوا هنا بعدَ أن غادروا مدينة بغدادَ التي أصبحَ فضاؤها وعراً ، وأخلاقها ضيّقةً ، وتعيش فيها كائنات شاحبةٌ ، غير سليمةٍ ، ذات أشكال قبيحة الملامح ، تتشاجر مع بعضها البعض من أجل بضعة قروش .

**

وعندَ وصولي إلى المحمل الشريف وكانَ أشبه بقبوٍ تستندُ عقودُ سقفه على أعمدةٍ منحوتةٍ ومذهّبة ، شاهدتُ بضعةَ شبان يتعلمون لدى عجوزٍ ضرير حكايةً بغداد ، حكاية المدينة المقدسة . المدينة التي سيرثها هؤلاء الفتيان ، ويمكنك أن تقول إنهم أطفال الأرض ، مجتمعين في واد عميق ، واد وسط هذهِ الصحراء الممتدّة ، لقد تركوا رغد العيش وجاءوا هنا لكي يرضعوا من صدر الرمال حليب الحكمة ، لقد باعوا أرواحهم إلى الله كي يقيموا الاحتفالات بعيد الطائفة ، وإنك لتظن عند رؤيتك لهم كما لو كانَوا أسارى جاثمين في صمت على الأحجار الرمسيّة لآبائهم وشيوخهم ، إنّها الساعةُ الموعودةُ وقد أزفتْ ، وإن أجيال بغداد تهرع إلى حافات المدينة الإلهيّة ،

وإنهم ينشدون الآن نشيد الفرح بكلمات قد خرجت لتوّها من بين الغيوم .

طقوس المعسكر

كنتُ أنظرُ بين التلال الرمليّة البيض حدّ الأفق المتوهّج ، والشمسَ الشديدةَ القرب من الرؤوس ، وهذا الامتزاج الرهيف بالصحراء ، كانَت الشمسُ ترسم بشعاعها أنواراً متعدّدةً تتجاوزني وتنتشر في هذا الامتداد الخلاّب الذي يصل المطلق بأبديّتهِ ولا محدوديّته .

تقدّم رفيقي ماشياً أمامي ، ثمَّ جاء شابٌ أسمر وأخذَ رسن الجواد من يدي .

مسيرة أقدام حتّى وصلنا إلى خيمة بعيدة تقريباً ، وعندها يقف حارسٌ طويلُ القامة ، فدخل رفيقي أوّلا ثمَّ تبعته ، كانَ الحلاّق وهو يمسك الموسى بانتظاري ، لم تكن الخيمةُ كبيرةً ، ولكنْ ثمّة مرآتان كبيرتان ، وسيورٌ جلديّةٌ لحدّ الموسى ، وهنالك أمواسٌ متعدّدةٌ كبيرةٌ ، وجرادلُ ماء ، وهنالك عطور ياسمين في حقاق ودوارق صغيرة ، وهنالك مكبات ورد وسنط مجلوبة من أفريقيا ، ومسك وعنبر شديد الرائحة .

كانَ الحلاّقُ يرتدي درعاً جلديّاً ، وأمامه تختٌ عال مفروشٌ ، فخلعتُ عمامتي وتوزرت برداء أبيض ، وجلستُ ، ثمَّ لف عنقي بشال أبيض كي لا يسقط الشعر على جسدي .

وحينَ خرجتُ شعرتُ بهذهِ النشوة القصوى ، نشوةَ أن

تتخلّص من فائضٍ لا تحتاجهُ في هذه الصحراء ، شعرتُ بأنَّ روحي قد غسلتْ منّ الداخل ، وبعدَها اصطحبني إلى الخيمة الكبيرة كي أسلّم على رئيس المعسكر ، وهو الخواجة عليٌّ بن أنس الطائيّ .

رئيس المعسكر

كانَ جالساً على تخت عالٍ ، ووراءه إناءٌ فخاريٌّ عربيٌ يُظهِر ، في حذائيه المجنَّحينَ ، الإلّهَ هرمس ، رسولَ الآلهة ، ومعلِّم الطب وسائر العلوم ، وجابر بن حيان ، ووراءه رسوم من مخطوط يمثل فيثاغوراس وسلّمه الموسيقي الذي ربط به بين العلوم الرياضيّة والموسيقى .

قالَ لي :

- أهلاً بك يا فتى ، ستخدم في هذا المعسكر عاماً كاملاً ، تتعلّم الرياضةَ الروحيّةَ والبدنيّةَ ، والتقشّف والمجاهدة ، وهي مخرجٌ لك كي تذهب ثمَّ بعدَ إلى مدرسة الحكمة في طبرستان .

- متى؟ قلتُ لهُ .

- بعد أن تنهي تدريبك هنا ، ستلتحق بمدرسة الحكمة .

- ماذا أفعلُ هناكَ؟ قلتُ له مستغرباً .

- ستتعلّم الحكمة والفلسفة والعلوم ، لا تكتمل صحّة النفوس من دون صحة الأبدان وصحة العقول .

قالَ لي رفيقي :

- أنا كنتُ هناكَ - أكمل- وأنهيتُ دروسي ، ثمَّ عدتُ إلى بغداد ، وبعدها انتدبني مجلس الخواجات للعمل كمدرّب في هذا المعسكر .

- وهل هي ذاتها مدرسة البلخي الشهيرة . سألتُ .

- نعم ، لقد كانَت جامعاً صغيراً ، يملكه مؤمنٌ بلخيّ ، اسمهُ عبد الله بن سلطان البلخي ، يقع هذا الجامع على رابية خضراء اسمها جنة مازران .

- وهل المدرسة في الجامع؟

- الواقع الجامع يلتحق اليوم في المدرسة . إنّها مدرسة تعلم أبناء المسلمين القرآن والفقه والآداب والفلسفة والموسيقى وفنون الرسم والنقش والريازة .

- ولماذا لا نتعلم هنا ؟

- هذهِ المدرسة بعيدة عن أعين الرقباء ، كما أن أحسن الخواجات يعملون فيها كمعلمين هناكَ . . .

- وهل حالهم أفضل من الخواجات هنا؟

- في الواقع هم ليسوا بحال أفضل ولكنّ هذهِ المدرسة هي مخرج الكثير من الخواجات ، ولو كنا أنشأنا مدرسة هنا ستكون مصيدةً لنا جميعاً ، سيكشف أمرها ونتعرّض للقتل .

بعد ذلك أعطوني جدولاً بما سننفذهُ من فعاليات خلال وجودنا هنا ، وعرفتُ أنَّ طقوس الفرقة الخواجيّة مستمدةً من طقوس إخوان الصفاء الفلسفيّة ، حيثُ تقام ثلاث أمسيات في الشهر ، في بدايتهِ ووسطهِ ، وأحياناً ما بين الـ٢٥ ونهاية الشهر .

كانَ طقس الليلة الأولى يتضمن خطبة شخصيّة ؛ والليلة الثانيّة قراءة نصٍّ كوني تحتَ قبة السماء المليئة بالنجوم ، على أن يكون القارئ متوجهًا نحو نجم القطب ؛ وفي الليلة الثانية ترنيمة فلسفيّة (تتضمن موضوعًا من موضوعات ما بعدَ الطبيعة أو ما بعدَ الكون) ، وهيَ إمّا «صلاة أفلاطون» أو «ابتهال إدريس» أو «ترنيمة أرسطو السرّيّة» . أما في فصل الشتاء فقد كانَ هناكَ يوم طويل من الصيام يقابل الوقت الذي كانَ فيهِ «النيام السبعة نائمين في الكهف» .

اختلاء في المعسكر

بعد كلٍّ ما مرَّ بي ، كنتُ بحاجة للاختلاء بنفسي ، كانَ الوقت متأخّراً ، وانسحبت إلى الخيمة المعدّة لي ، واستسلمتُ بكاملي إلى التأملاّت ، كنتُ في خيمة بسيطة ، حيثُ كانَ كلّ ما فيها يدلُّ على الزهد ، وعلى فضائل الطائفة ، كما لو كنّا في زمن العصور الفلسفية الأولى ، وكانَ الفتيان قد أتمّوا صلواتهم المعتادة واستسلموا إلى النوم ، فهو الشيء الوحيد الذي كانَ ينسيهم تعب اليوم ، كانَوا يتذوّقون عذوبة الراحة بعدَ تعب طويل ، وكنتُ أنا الوحيد الذي يسهر في هذا المكان .

كنتُ موجوداً في المعسكر على بعد بضعة خطوات من خيمة الخواجة الرئيس ، من هنا ، ربّما من فضائل هذهِ الحياة المتقشفة الورعة ، والتي تقوي وجودنا كلّه - تقوي وعَينا بحياتنا الداخلية ، وعينا ذلكَ أم لم نَعِه ، قَبِلنا به أم لم نقبله . فصيرورة

حياتنا تقوم على وحدة الظاهر والباطن . وصيرورة حياتنا هي معرفتنا المتجدّدة . إنها السرُّ الذي لا تنفصل فيه الرياضة عن الرياضيّات ، التقشّف عن اللذة ، المتعة عن الفكر ، وقد أدرك الإنسان عِبْر العصور هذهِ الحقيقة : أنه لا يمكن تجيير المعرفة إلى شكل دون آخر ، مادي صرف ، أو تجريبي ، أو عقلي ، أو روحي .

ومن هنا ربّما ومن هذا المعسكر انطلقت شرارة المعرفة في قاموس بغداد .

كانَ دخولي تلك اللحظة هو الذي جعلني أرى كما يرى النائم أحلام شبابه الورعة وقد تحقّقت ، وصورة بغداد كمدينة مقدسة والتي كانَت حاضرة على الدوام في ذهني هناكَ أمام ناظري ، وكنتُ أسند رأسي إلى إحدى الكوى في الخيمة التي كانَ شعاع القمر يصلني من خلال قضبانها ، فرأيت وميضه الشاحب مستطيلاً حتّى قبّة الخيمة ، وظهرتْ لي بغداد في الأفق وكأنّها ظلّ الجنّة على الأرض ، فاجتاحتني ألف ذكرى من قاموس بغداد ، وألف فكرة مبهمة ، وأحلام للمستقبل ، وتأملات حميمية وجسيمة ، لا أعلم كم من الوقت دام هذا الوجد ، ولكنّي عندّما عدت إلى نفسي كانَت روحي منبسطة وأجفاني ندية .

الفصل الثالث

مدرسةُ الحكمةِ في طبرستان: أفكارٌ وشقاق

I

الطريق إلى الحكمة في طبرستان

بعدَ أن أنهيَتُ عاماً في تدريبات معسكر الطائفة عدتُ إلى بغداد ، وبعدَ أشهر قليلة جاءني الأمرُ بالذهاب إلى مدرسة الحكمةِ في طبرستان . وهذهِ المدرسةُ بالنسبة للطائفةِ على درجة عاليةِ من الأهميّة ، على الأقلّ بالنسبة إلى الخواجة عماد الدين الذي كانَ يعدّها مدرسة كبرى للمعرفة الأسراريّة في الشرق ، وكانَ يعتقدُ أن المعرفة الأسراريّة وحدها التي ستدفع عن بغداد يوم العتمةِ وقسوة الشتاء الطويل .

وكانَ مجلس الخواجات قد أقرّها كحلقةٍ أساسيّة في النظام ، وفرضَ أيضاً على المنتسبين إلى الطائفة من الشباب أن يحصلوا على المعرفتين البدنيّة والعقليّة . فالمعرفة الأولى أي البدنيّة تُلقّن في معسكر التدريبات ، والعقليّة في مدرسة الحكمةِ في طبرستان ، أو ما يُطلقُ عليها بمدرسة الخواجات .

وللدراسة في هذهِ المدرسة شكلان ، حسب المدّة التي يمضيها الطالبُ هناكَ ، ففي المدّة الأصغريّة يحصلُ على علوم عامّة ، وفي المدة الأكبريّة يحصلُ على معرفة أسراريّة ، ويبقى عقل الطالب خلال مدة الدراسة متوهّجاً لما تشهدهُ المدرسة من

نقاشات حيّة في العلوم النقليّة وابتكارات دائمة على صعيد العلوم العقليّة ، وقد كانَت هذهِ المدرسة أول نشوئها في بغداد ، على الضفّة الثانيّة من النهر ، إلا أن الخواجة عماد الدين بن أبي ريحانة النقاش قد أبعدَها عن بغداد إلى طبرستان ، لتكونَ بمنأى عن أعين العسس والرقباء ، وبعيداً عن سلطة الفقهاء والقضاة .

ولا يجد الداخلُ للنظام في هذهِ المدرسة الخلاصَ وحدهُ ، إنّما الحريّات الأكثر سموّاً ، بل القدرات التي ستعمل على تحرّرِهِ حتماً من العقليّة الصلبة والصارمة ، فالمعرفة السرّية تُقدّمُ هِبةً في هذهِ المدرسة التي تأسّست لكلّ فنّان ، ولكلّ صانع فذّ في قلبهِ حنين عنيف للضوء ، ولكلّ من يريد أن يسير منتشياً في البقعة التي غمرتها شمس الأفكار بضوئها الساطع ، ومن يريد أن يمضي منتشياً بالمعرفة باتجاهِ الحياة المتوهِّجة والمنيرة .

هكذا هِيَ مدرسة الحكمةِ في طبرستان . وكانَ ذهابي لها بأمرٍ من الخواجة عبّاس الطغْرلي هو بحدّ ذاتهِ حدثاً عظيماً في تاريخي الشخصيّ . فتحصيل العلم والفلسفة والمنطق والرياضيّات والرسم والموسيقى ، بأمرٍ من واحد من أبهر العناصر التي تتكوّن منها السلسلة الجابريّةَ هو بحدّ ذاتهِ حدثٌ لا يمكن أنْ يكونَ عادياً أبداً .

وفضلاً عن ذلكَ فقد مرّ بمراسيم متعددة ، فما إن أنهيَت تدريبات المعسكر الشاقّة وعدتُ لتحصيل المعرفة على يد والدي في بغداد ، بعثَ لي المجلس في البدء رسولاً من عندهِ

ليخبرني بالقرار ، فوصلتني رسالة بيد أحد خدام الخواجة أبي يحْيى التغْلبي ، واسمهُ مريود ، جاء منزلي في الضحى ، وكنتُ ذلكَ الوقت منشغلاً في قراءة كتاب أهل المدينة الفاضلة للفارابي . وقد دخلتْ عليّ الجاريّة مسرعة ومضطربة ، قالَت لي سيّدي إن مريود خادم سيّدي أبي يحيى التغلبي يريدك لأمرٍ عاجل ، وهو يحمل مكتوباً من سيّدي الخواجة أبي يحيى ويقف في الباب ، فهل أدعهُ يدخل ، قلت لها :

-نعم دعيهِ يدخل في الحال .

دخل مريود مسلماً ووقف أمامي .

-أهلاً بك مريود!

-سيّدي لدي رسالة من سيّدي أبي يحيى قالَ إنها مستعجلة .

وقد استغربتُ أوّل وهلة ذلكَ أني كنتُ أدرك أن مخاطباتنا في الطائفة كلّها شفويّة ، ولا تتضمن أيّ شيء مكتوب بين الأعضاء لضمان سرّية ما نقوم بهِ ، وما نفعلهُ ، ففتحتُ الرسالة وكانَت قصيرة ومكتوبةً بخطّ نسخيٍّ جميل ومعطرة ، ووجدتُ فيها بيتين من الشعر ، يرمزان للقاء بيني وبين أحد الرسل في المسرب الذي يحاذي باب السلطان من جهة جامع العبّاسيين .

اللقاء

تحتَ سماءٍ أشدّ صفاء وفي هواء أكثر نقاوة من طقس بغداد ، كنتُ التقَيت الرسول الذي بعثهُ مجلس الخواجات لي

على مقربة من باب خراسان :

وقفَ الرسولُ أمامي تحتَ فيضٍ من نور الشمس الآيلة للمغيب ، يردُّ فضلة عمامتهِ على فمهِ ومتوثباً على جوادهِ الأسود ، كانَت عمامتهُ بيضاء صغيرة ، ممن يرتديها أبناء الخواجات ، وفي يدهِ اليمنى شارةٌ قرمزيّة ، لأتعرّف عليهِ من خلالها .

وهذا هو الذي بلّغني بالأمرِ وأعطاني موعد الرحيل . وقال لي إن كلمة السرَ التي أذهبُ بها هي «آكَ-زابت ، واحد» وقال ما إن ألفظها أمام الشخص الذي أقابلهُ حتى يعرف من أنا وماذا أريد . ثمّ أذن لي بالرحيل .

نعم . . ليكن الرحيل قلت في نفسي . هذا الرحيل سيكتبهُ التاريخ حتماً ، ذلكَ أن تاريخ الطائفة الحقّ هو تاريخ البشريّة ذاتهِا ، وربما غاب هذا التاريخ عن البشريّة ، لأنّها تردّت في عَماء الأحداث التي صنعتها قوى الجهل والغرائز والأنانيّة المفرطة ، فعمدت الطائفة على انتشالهِ ، وتطهيرهِ ، وترقيتهِ بالانضباط والنظام ، وهذا هو ما جعلني مستسلماً في داخلي ذلكَ الوقت لكلّ أوامر الطائفة ، وكنتُ أدرك ، ثمَّ بعد ، أني سأكون حامل الرسالة السرّيّة ، بعدَ أن حملها عظام البشريّة ، وضحّوا من أجلها ، وكانَ عليَّ أن أعدَّ نفسي لهذهِ الرسالة العظيمة .

وهذا الأمرُ هو أمرٌ أخلاقيٌّ بالضرورة ، وهو معروفٌ لكلّ من هيّئتهُ الظروف لكي يعرف تاريخ الطائفة ، فلا يمكن أن نستشفَّ

صيرورة طائفتنا من «الأحداث» السياسيّة والاجتماعيّة فقطْ ، إنما من الإمكانَات والتحوّلات الأخلاقيّة التي أنجزها كلّ عصر ، فعلى الرغم من الفترات الطويلة التي يبدو أنَّ الإنسانيّة خبت بها ، إلا أننا نشهد تلك «الانعطافات» الحاسمة التي تؤكّد على الصيرورة الداخليّة ، والتي تحضّر ، بعدَ استيعاب طويل للخبرات الخارجيّة ، ظهور إمكانَات سرّيّة جديدة .

لذلكَ فإن تاريخ الطائفة لا يرتبط في النهاية بفرد أو بجماعة : إنما هو سلسلة متّصلة من الإمكانَات المتّفتحة باستمرار ؛ ونسمّيها نحن في الطائفة بالسلسلة الذهبيّة .

إنّها ظهورٌ حاسمٌ لسلسة من علماء ومفكّرين وفلاسفة يتواترون في تسليم المعرفة من واحد لآخر ، إنّهم يتواترون في إدراك المعاني القصوى التي تختبئ خلف مظاهر العالم ، ويقدّمون لنا رؤيا كلّية ، باطنة وظاهرة في آنٍ واحد ، ويضع هؤلاء كلّ أسرارهم في المدارس الأسراريّة العظيمة . ومن هنا تنبع أهميّة مدرسة الحكمةِ في طبرستان ، صحيح أنّ العديد من هذهِ المدارس السرّانيّة ، قد خلطت الخرافة والشعوذة بتعاليمها في أحيانٍ كثيرة ، والسبب هو تعميم هذهِ المعارف وإشاعتها على الناس ، فالمعرفة يجب أن تكونَ مقصورةً وسرّانيّةً ، وتظلُّ محفوظةً وماثلةً في مدارس رمزيّة تقدم تجربة لعدد محدودين من الناس ، وتبقى المعرفة مقصورة عليهم .

**

هل كانَ أمرُ مفارقتي لبغداد هيّناً . . .أبداً .

بغـداد هيَ المدينة التي كـتب اللهُ لهـا أن تكونَ مناظرةً لواحدة أخرى خلقها في السماء ، (الفكرة التي كتبها الخواجة عـمـاد الدين بن أبي ريحـانة النقّـاش في هامشٍ صـغـيـرٍ من هوامش القاموس) . فقد صنعَ الله بغداد في السمَاء من أفكارٍ وصورٍ ومثلٍ ، لقـد خلقـهـا مـدينةً جـمـيلةً تقع خـارج الفـردوس وعلى مثال الفردوس ، وما بغداد الحاليّة إلا فيض من صورتها الأولى ، أيّ فـيض عن الصـورة الإلهـيّـة ، وهـذهِ الصـورة الأولى هيَ التي تفيضُ عن نفسـها بصورة لها على الأرض ، غيـر أنّ الصورة الأرضيّة تشوّهتْ على يد البشر ، وما على الخواجات إلاّ إعادتها إلى صورتهِا الأوليّة ، صورتها السماويّة ، وتخليصها من التشوّهِ والتخريب والتقهقر والتآكل والفساد ، فمهمة الخواجات في بغداد هو تشييد بغداد لتبلغ صورتها الموجودة في السماء ، أو لتبلغ مثالها الموجود في الفردوس .

فكيفَ لي أن أفارق هذهِ المدينة التي أرادها اللهُ أن تكونَ صورة مطابقة لمدينة في الفردوس؟

مفارقة

في البداية كانَ في الأمر مفارقة عجيبة ، ذلكَ لأنَّ بغداد السلام هيَ المدينة التي يؤمّها التجّار ويأتيها طلاّب العلم من كلّ مكانَ للتعلّم والدرس والتقرّب من فلاسفتها وفنّانيها ، فكيفَ لي أن أفارق أعظم مدينة للعلم في مشارق الأرض ومغاربها ومن كانَ يسمّيها الناس ، بالمدينة العجيبة ، أو بسرّة

الفردوس ، أو دار السلام . وأذهب إلى مدينة أخرى .

كما أن بغداد كانَت مركزاً عظيماً للمعرفة والعلم ، المركز الذي لا ينقل خبراته إلى كلّ مكانَ فقطْ ، إنّما كانَت المركز الذي يفيضُ ليشكّل صوراً لهُ في غرب الأرض ومشرقها ، في خراسان وفي الهند ، في الأندلس وفي نيقيا ، في بلخ والرها وفي نيسابور .

وحين ذهبَ الفتى رسول الخواجات ، عدتُ بقوامي المنتصب على جوادي الأكحل إلى منزلي ، ماراًّ بمركز المدينة ، ومتهادياً في الطريق على مهل . كانَت الشمس قد تراجعتْ وخفّ لهيبها . وعلى مقربةٍ من السور رأيتُ مجموعةً صغيرةً من الحرس السلطانيّ ، يتسابقون للخروج من باب خراسان ، ويمكن أن نميّزهم عن سائر فصائل الجيش في بغداد ، من عمائمهم وقلانسهم ، ومن بيارقهم التي تهفهفُ في الهواء .

عودة إلى المنزل

كانَ الطريقُ المؤدّي من باب خراسان إلى مركز المدينة يحاذي نهر دجلة ، وكانَ المسرب الذي اتخذتهُ مملوءاً بالبرك الصغيرة . فسرتُ على حصاني بهِدوء متجنّباً البرك ، وقبل وصولي للمنزل كدتُ أنْ أصطدم ببغلة تمتطيها جارية قوقازيّة ، فدرت عنها قليلاً ، غير أن الجارية سقطت في البركة ، فهبطت عن جوادي ، وأمسكت بمقود البغلة ، وساعدتها على النهوض ، كانَت جميلة ، وقد سقط خمارها فردته إلى وراء ، وكشفت عن

وجه أشبهُ بالبدر ، وشعر أسود يهبط ثقيلاً على أكتافها .

– أشكرك يا سيّدي . قالَت ، وومضت عيناها بصورة حييّة .

واصلت المسير لأعبر الجسر ، وقطعت محلّة الظفريّة حتى نهايتها ، هنالك جامع الخلفاء المقابل لقصر السلطان ، وعند المدخل الطابوقي القصير عدّة منازل يقطنها الخواجات :

منزل الخواجة شرف الدين الذي ينفتح على رحبة للخيل واسعة تحيطُ بهِ حديقةٌ كبيرة . منزل الخواجة مسعود وقد وقف قرب منزلهِ الذي تنير واجهاتهُ المشاعل ، بعمامتهِ السوداء ومسبحتهِ في يدهِ ، إلى جوارهِ ابنهُ محمّد الذي لم يتجاوز السابعة عشرة من عمرهِ ، وخادمهُ الأفريقيّ . سلمتُ عليهم وسرتُ .

كانَ المساء قد حلّ ، وأعتمت السماء ، وأخذت أشجار النخيل على ضفتي النهر ترسم أشكالاً بألوان معتمة لا تبهج الحواس ، وقد لاحت أشجار البرتقال رماديّة تحتَ الرذاذ الخفيف الذي يدفعه موج نهر دجلة على الضفّة .

كنتُ وحيداً في الطريق ، أسير بخطى وئيدة ، رغمَ الوحل الذي جعل الأرض زلقةً ، بينما الأفكار التي كانَت مكبّلة أخذت تستفيق ، فعقدتُ مقارنة في نفسي بين الأفكار الرئيسيّة الثلاث للطائفة عن المعرفة ، وهي الأفكار التي تتنازع مدارس بغداد ، وتثير صراعات بينها :

فهناك من يقرّ بأنّ المعرفة لا يمكن سبرها إلا من خلال العرفان والإشراق .

هذهِ الفكرة هيَ التي كانَت ترنّ في أذني .

كنتُ أشعر بهذا الأمر بقوّة ، كنتُ أشعر بهِ في قرارة نفسي قويّاً وصلداً ، إذ إنّنا- كنتُ أقول في نفسي- لا يمكننا الوصول إلى المعرفة الكاملة ، إلا من خلال السرّ ، كما أن هذهِ المعرفة لا بد أن تكونَ مجموعة من الأسرار المتعاقبة والممنوحة سرّا بعدَ سرّ ، وحتى منحها لا يتم إلا بسرّ ، كما أنها لا تكونَ ولا تمنح إلا من خلال سلسلة مستمرّة من الفلاسفة والمفكرين الذين نطلق عليهِم بالأسراريين ، وهم من الخواجات المانحين للفكر والمعرفة ، كما أن هذهِ السلسة لم تنقطعْ طوال التاريخ ولم تتوقف أبداً ، ويمكن لنا أنَ نجدها في كلّ عصر مر على البشريّة وفي كلّ عهد ، كما لو كانَت شعلةً متواصلةً لا تخبو ولا تحد .

أما الفكرة الأخرى فهي أفكار بعض الخواجات المتأثرين بفلاسفة اليونان ، والتي تقولُ بالبرهان ، وترى أن المعرفة لا تأتينا إلا من خلال التجربة المستمرّة ، حيثُ لا تكون إلا من خلال الظواهر والأعراض التي توصلنا إلى استكناه ما تحتَها وما وراءها ، وهو أمر لا بد من الاعتراف أيضاً بصحته ، ولكن ما كانَ يخيفني حقّاً ، أن البرهان يتخلّى أحياناً عن أخلاقيّته ، ويتخّفى تحتَ الشر الذي تحملهُ الحقيقة ، والتي لا يخفّف منها ، إلاّ وجود الإشراق كمعاند دائم للشر ، ومنصت دوماً للحقيقة الداخليّة .

أما الفكرة الثالثة فهيَ تتركز في نموذج البيان ، وهو الاعتقاد أنّ الحكمة لا تصلنا إلاّ من خلال المعرفة البيانيّة ، إننا نحصل

على كلّ شيء وفي البدء من اللغة ، إنها هيَ أول الخبرات وأوّل الإشراقات ، لا عرفان ولا برهان إلاّ من خلال الرموز والكلمات ، وهذهِ الكلمات ليست حاملاً فقطْ ، إنما هيَ معرفة لا تقف عند حدٍّ ، فهيَ تسبر الظاهر والباطن ، وتكتسب معناها من هذا التوازن القائم على التفتّح المستمر .

وكنتُ أتذكر والدي وهو يقف أمامي ويقول لي جملته التي لا يمكنني أن أنساها أبداً :

- أنت كإنَسان ، قل لي ، هل تعرف نفسك؟ أنت تنطوي على أعماق لا يُسبَر لها غور ، بما هيَ منبع دفّاق لأشياء جديدة ومتفتحة ، أليس كذلكَ؟

ثمَّ يقول : كلّما تعمقت في نفسك ازددتَ جهلاً بها ، أنت متغير إلى ما لا نهاية ، أنت نفسك منبع داخلي موجود في أنماط الموجودات لا يمكن حصرُها في الطبيعة والكون ، وهذا التعدد وإن ينطوي على صورة ولكن هذهِ الصورة لا يمكن معرفتها .

**

نعم ، ربما! وكنتُ أحاول جاهداً ذلكَ الوقت أن أجد عوامل مشتركة بين هذه الأفكار الثلاث ، فنحن لا يمكننا أن نعيش في عالم الظواهر وحسب ، كما لا يمكننا أن نعيش في عالم الباطن وحده ، ولا يمكننا أن نعيش بالبيان وحده ، وهكذا يمكنني أن أقول على صعيدي الشخصي : إنها تتكون من هذه الطرق الثلاثة ، فالحروف والأرقام من وسيط واحد .

ألم تكن اللغة رمزًا؟

هكذا سألت الخواجة عبّاس مرّة ، فقالَ لي :

إذا لم تكن هذهِ وقعتْ بعدُ في فخِّ التعبير المباشر ، نعم . فالتعبير يصعب حصرُه في مفردات .

**

وأنا أفكر بهذه الطريقة وصلتُ إلى سوق الوراقين ، فهبطتُ عن جوادي ، وأمسكتُ بهِ من رسنه بيدي ، وسرتُ في الطريق .

كنتُ أبحثُ أوّل الأمر عن رسالة الكندي «في المدخل إلى الأرثماطيقي» ، فعبرتُ الميدان نحو دكان أبي يحيى الورّاق ، وأنا أسير في الطريق مرتْ أمامي قافلة من الجمال تحمل محفّات نساء ، تمهّلتُ حتّى مرّت القافلة ، وعبرتُ الميدان وصرتُ عند دكانَ أبي يحيى الوراق ، كانَ ثمّة رجلٌ من مرّاكش يسأل عن ثمن كتاب الشفاء لابن سينا ، وكانَ قد اشترى مجموعة من الكتب السميكة وحملها لخادمه الذي وضعها على رأسه وسار بها نحو جمله .

وبعد أن اشتريت الكتاب ، حملتهُ معي ، وسرتُ .

ثمّة دكانٌ لحدوات الخيل مغلقٌ ، ومسجدٌ يؤذّن لصلاة الظهر ، وثمّة طبقة خفيفة من الضباب تصعد فوق نهر دجلة ، فصعدتُ جوادي وسرتُ . ذلكَ أن متعة النزهة الحرّة على الحصان تضاعفت في نفسي ، وكانَ مشهد بغداد المبللة تحتَ غلالة من المطر تملكتني .

II

الوصول إلى المنزل

وما إن وصلتُ إلى الدار حتّى وجدتُ أحد الخواجات هناكَ ، واسمه مهيب الدين النظّام ، وكانَ مساعداً لوالدي وصديقه ، وقد أحضر لهُ مجموعةً من الكتب والرسائل باللغة اليونانيّة .

قالَ لوالدي إن سعرها قد تضاعف ، فصارت تباع هذهِ الأيّام بالدينار الذهبَي . ثمَّ أمر أحد الخدّام واسمهُ «موحّد» أن يحضرها ملفوفةً في كيس ، تبعهُ خادم والدي الذي كانَ يحمل سراجاً في يده ، وقد رفعهُ إلى أعلى كي ينهمك موحّد في تنظيف ما علق بالكتب من غبار ، كانَت أغلفتها من الجلد ومكتوبة باليونانيّة .

ثمَّ امتطى الخواجةُ مهيب الدين النظّام جوادهُ من باب منزلنا ، وأردفَ خادمهُ خلفهُ . كانَت حياصتهُ جميلة ، ونعلهُ خراسانيّ أحمر اللون . فحمل خادمنا الكتب اليونانيّة وأدخلها إلى المنزل ، وقد تبعهُ والدي في ممشى دائري يشرف على الباحة ، كانَ الجدار مشيداً على هيئة عقود وتيجان طابوقيّة ، ومثبتاً عليهِ ثلاثة قناديل فضيّة . استدار الخواجة واضعاً

الدنانير الذهبيّة التي نقدها لهُ والدي في جيبهِ ، واكتفى بإلقاء نظرة من زاوية عينه وقالَ :

- قل لوالدك لا يطلع عليها أحداً . كانَ يقصد الكتب .

وغادر بلا إيماءة من رأسه ، ودون أن يلقي نظرةً على أحد ، ولم يبق في الشارع سوى الدوي الرنان لحدوات جواده ، ونباح كلابنا في الحظائر ، وقد انتظر الخادم هناكَ حتى تأكد من أنه توارى في الظلام ، بعدَها أغلق الباب بالمفتاح والمزلاج وولج المنزل .

والدي مشغول بكتبه

لم ينظرْ إلي والدي ، ولم ينتبهْ لوجودي ، وحين دخلَ المنزل خلعَ عمامتهُ ومسحَ على لحيتهِ البيضاء ، وهرع ليتفحص الكتب ، كانَ والدي في حجرة ، نسميها خزانة الكتب ، حيثُ يعمل فيها ويرسم ويعزف على العود ويجري أبحاث الفلك ، وكانَت هذهِ الحجرة مرتفعةً بدرجتين عن الحجرة التي تقابلها وهيَ حجرة الإماء ، وهنالك قاعة أخرى للضيوف .

دفعتُ باب الحجرة الملبّس بالأصداف والنحاس البّراق ، رفعتُ السراج إلى أعلى ، وأجلت البصر في والدي : رأسه أصلع وتحيط بهِ ذؤابات شعر أبيض ، كانَ يجلس على أريكته الدمشقيّة مع كتبهِ ، تحتَ السقوف المحمولة بالعمد والمصنوعة من الخشب المحفور ، بجواره خزانتان متقابلتان فيهما كتب كثيرة ، وبعضها مجلّد بجلد الغزلان .

صورة لا أنساها أبداً ، كانَ والدي جالساً ، وكتبهُ منثورة على الأرض المفروشة بالسجاجيد الفارسيّة حولهُ ، على مقربة منهُ محابرهُ ، ريشتهُ . سيفهُ الفضيّ معلّقٌ على الجدار . وبالقرب منه إسطرلابهُ الذي أهداهُ إلى أحد أجدادي «نظام الملك» ، وورثه والدي وأخذ يجري عليهِ أبحاثه في علم الفلك . وفي صدر الحجرة أبياتٌ من الشعر مطرّزة على قطعةٍ من الحرير .

**

من الصور التي لا أنساها عن والدي صورتهُ وهو يمسكُ العودَ ويجرّب أحد ألحان الفارابي ، يضع العود الكبير تحتَ خاصرته ، ويجرب بريشة الطاووس ألحاناً تخلبُ اللبّ ، في كلّ رنّة من هذهِ الرنّات ، وكلّ لحن منها ، هنالك قبس من الوجود . كانَ والدي يعتقد أن الموجودات لا تنفصل عن بعضها ، فكلّ ما يحيط بنا هو موسيقى ، وما روح الموسيقى سوى القدرة على إدراك الحقيقة في هذا العالم الذي يقع عليهِ حسُّنا ، وكان يقولُ إن الموسيقى هيَ مزيجٌ متداخل مما هو ظاهر للعين ، وبادٍ للحواس ، وما هو خبيء خفيٌّ مستعصٍ على إدراك الحواس ؛ وعلينا أن نتعلّم الأشياء بوصفها وحدة ، فهيَ التي تقربنا من الله ، الموسيقي الأعظم ، وهو الذي خلق الكون متناغماً على شكل موسيقى . .

وفي مرّة قلت لهُ : يا والدي أريد أن اتعلّم فنّ هذهِ الأصوات . .

قالَ لي : لا . . . ستتعلّم في مكانٍ آخر .

- في مكانٍ آخر .

- نعم في مدرسة البلخي ، التي تسمّى اليوم مدرسة الحكمة في طبرستان .

- ولكنّي أريد التعلّم على يديك!

- أتمنّى أن تسافر إلى مدرسة الحكمةِ في طبرستان . قالَ لي ذلكَ من مدة طويلة ، ولم أفهم ذلكَ الوقت ما هيَ ، وماذا يدرس بها ، ولكنني كنتُ أتذكر فكرة والدي عن المعرفة التي لا يمكن الحصول عليها إلاّ من خلال الترحال والسفر ، فكانَ كلّ أصحابهِ من الصوفيين ، والفلاسفة والبنائين والتجّار ، يعتقدون أن الفكرة بحاجة إلى قوة أبدان ، ورقة أرواح ، ورقة الأرواح تذهب باللحم والجلد والعظام ، إنها تذهب بالبدن ، ومن يريد أن يتعلّم الموسيقى أو الفلسفة عليهِ أن يجاهد في هذا ويرحل ويتعلّم ، وهكذا كنتُ أربط بين السفر إلى مدرسة الحكمةِ في طبرستان وبين تعلّم الفلسفة والفنّ عن طريق السفر والترحال ، ولم أكن أعرف أن المدرسة هيَ مدخل للانتساب إلى الطائفة والنظام .

حيرة وتفكير

كنتُ حائراً وبحاجة إلى مناقشة والدي في أمر رحيلي إلى مدرسة الحكمةِ ، وكانَ والدي منشغلاً بكتبهِ ، وبقيت واقفاً هناكَ حتى انصرف مسعود الخادم وولج حجرة المطبخ ، ترددت أوّل الأمر من أن أكلّمه في الموضوع أوّلاً ، بعدَها قرّرت أن أؤجل

ذلكَ وألجُ إلى حجرتي .

**

بعدَ أن دخلت ، فتحتَ الكوة الكبيرة المقابلة للنهر التماساً للهواء العذب ، ثمَّ أخرجتُ حشيّةً كبيرةً ووسادةً وتمددتُ ، بعدَها أحضر لي مسعود طعام العشاء في صحاف صغير ، أدخلهُ ووضعهُ جنبي ، فأكلتُ ثمَّ مررتُ بالحجرة التي كانَ فيها والدي وهو يقلّب كتبهُ ، صليت العشاء على حصيرة مفروشة على مقربة منهُ دون أن ينتبه لي ، وعندما انتهيت ، جلستُ قربهُ ، همهمتُ همهمة خافتة لأنبهه إلاّ أنّهُ لم ينتبه لي .

ما أثار انتباهي هو انشغالهُ بكتب مكتوبة باليونانيّة ، الكتاب الأول لأرسطوطاليس ، والثاني للحكيم أفلاطون ، وهنالك تعليقات بخط جميل باللغة العربيّة عليها ، قلت في نفسي ماذا يفعل بها والدي وهي موجودة لدينا باللغة العربيّة ، لمترجمها إسحق السريانيّ أيّام الخليفة العبّاسي هارون الرشيد ، وكنتُ قرأتها أنا .

جلست قربهُ وأخذت أقلب بكتاب بطليموس في الفلك ، وهو الكتاب ذاتهِ الذي ترجمه بن مطر في زمن الخليفة المأمون ، وكانَ والدي بوجهه المليح وبعينيه الواسعتين يتفحص هذهِ الكتب وينقل منها بضع فقرات ، كانَ يقرأ بها وكأنّه يحصي كلماتها ، مجرياً إصبعه عبر الورقة ثمَّ يعبس فجأةً ويرفع إحدى أصابعه ويدني النص من عينيه كما لو كانَ يخشى أن يكون قد اخطأ في قراءته . وأخيراً ينظر محتاراً إلى الخادم الواقف من

دون حراك كأنّه تمثال .

أطرفت عيناه حين رآني ، ثمّ أوْمأ إلى الخادم أن ينصرف ، مشى متثاقلاً عبر الغرفة ، والكتاب في يدهِ ، ثمّ أخذ ينقر بمفاصل سلامياته عليهِ ، قالَ لي :

- أنا سعيد هذا اليوم لأنّك ستلتحقُ بمدرسة الحكمةِ في طبرستان .

- أو تعرف؟ قلت له وأنا أنظر إليه مندهشاً .

- لقد كانَ الاختيار عظيماً ، من بين أبناء كلّ الخواجات كانَوا اختاروا ابني ليذهب إلى مدرسة الحكمةِ وهيَ المخرج لأن تصبح خواجة عظيماً .

أومأ لي أن أجلس ، وقد تقدّم نحوي وهو يمسك بلحيته الصغيرة البيضاء ، بمثل لون شعره ، وينظرُ إلي بعينين نفّاذتين ، برّاقتين .

- ولكن يا أبتي أريد أن أتعلّم الفلسفة والفنّ هنا .

بدت حالة الغضب على وجهه مباشرةً ، ففمه الراسخ مال قليلاً ، وأخذ منخراهُ المتوهّجان يبدوان كأنّهما يستنشقان هواء يفيض عن حاجة بدنه . غمغم لي بصوت غاضب :

- ماذا تتعلّم هنا؟ عليك أن تفرح لأن أكبر خواجات بغداد اختاروك لتكونَ في هذهِ المهمّة ، هل أنت مجنون ، لا تريد الذهاب «إلى مدرسة الحكمةِ في طبرستان ، هذهِ المهمّة التي كانَ ينتظرها كلّ الخواجات لتكونَ من نصيب أبنائهم .

- أنا ، في الوقت الحاضر . لا يمكنني أن أمدّ لك يد العون-

أكمل - هذا مؤكد ، أو أن أعلمك أشياء جديدة لا أظن» .

- هل تعني أن الجديد أصبحَ بعيداً عن بغداد .

- لا ، ولكن شيء رائع أن تتعلّم في هذهِ المدرسة التّي خرجت أعظم الخواجات! قالَ ذلكَ ثمّ دمدم كلمات لم أسمعها جيداً .

- لا تفوّتْ هذهِ الفرصة يا ولدي أبداً! بغداد ما زالت فيها روح ، ولكن هذهِ الروح أخذت تنحسر مع ضعف الولاة ، وفساد التجّار ، وجهل الفقهاء ، هكذا حتّى أخذت الناس تحيا حياة عابثة كالحيوانات .

عدل قميصه ، وبإيماءة راضية من رأسه ، قالَ لي :

- اسمع ، اسأل هناكَ عن الخواجة يعقوب السمرقندي ، فهوَ سيعلمك أشياء كثيرة . . .

- يعقوب السمرقندي . . من هذا؟

- خواجة ماهرٌ تعلّم والده على يد جدّي ، حتى أصبحَ الأشهر في أمصار المسلمين . .

«ما اسمهُ . . . ما اسمهُ؟»

- «اسمهُ الخواجة يعقوب السمرقندي ، ولد في سمرقند ، وعاش في قاشان . وهو الآن معلّم في مدرسة البلخي أو مدرسة الحكمة في طبرستان»

«هل تعرفهُ أنت هل عملتَ معهُ . .»

ترك الكتاب إلى جانبهِ ، وقالَ :

«والدي هو الذي يعرفهُ . .فبعدَ أن توفي والده أصبحَ

يعقوب مساعداً لوالدي ، وقد ذهبَ مع والدي ليعمل خطاطاً ومزيّناً ونقّاشاً في قصور دهاقنة وأمراء خراسان» .

-وكيفَ عرفتَ بهِ؟

-أنا عرفته من صنعته ، لقد سمعت ألحانه ، وقرأت رسائلهُ الفلسفيّة ، وكانَ أحد المبشرين برسائل إخوان الصفا وأتباعهم ، ثمَّ أصبحَ صانعاً مشهوراً بين الناس ، يشيد القصور ، ويريز الجوامع ، ويعبد الطرقات ، ويزين الحدائق ، وينقش الخمّارات ، ويبني الحمامات .

في كلّ مكانَ يذهب إليه ينحني الناسُ لهُ ويلقّبونه بالصانع . . فلم لا تذهب عنده ، وتتعلّم منه كما تعلّم أبوه من جدك ، وتأخذ الجديد منهُ . . فنحن لم يبقَ لدينا جديدٌ كي نعلّمه . . الجديد . . هو سرّ صنعتنا . . عليك كلّ مرّة أن تأتي بالجديد . .لا يمكنك أن تكرر كلّ ما تتعلّمه مرّة بعدَ أخرى . .»

عاد إلى كتابه وهو يقول لي :

-إنه واحد من أعظم الخواجات ، سيعلّمكَ أشياءً كثيرةً ، اذهب هناكَ واسأل عنه ، لتكن أحد تلامذته ، لا تنس الاسم ، يعقوب السمرقندي! قالَ .

-هل عليّ أن يكون لي خواجةٌ رئيسٌ أو إمام ؟

-نعم فالإنسان هو عالمٌ صغيرٌ أليسَ كذلك .

-نعم!

-لكنّهُ موجود على مثال كبير أليس كذلكَ؟

-نعم!

-إذن واجبهُ هو تنظيمُ العالم الأدنى الذي يتربّع على قمته .

كانَ والدي يعتقد أن تنظيم العالم لا يتم إلاّ عِبْرَ الخواجة أو الإمام ، وهذا الخواجة لا يتصرّف في أيّ شيء بحياته إلاّ كتجلٍّ لما يطلق عليهِ في الطائفة بفيض العقل الكلّي ، وهكذا فوظيفة الخواجة هو العمل على ردِّ النفوس الساقطة إلى مرتبتها الإلهيّة . وتكونَ مهمته هيَ تحرير نفوس العالم الأرضي ، لتعود إلى نقائها الأصلي ، فترتفع بعدَ موتها إلى الأفلاك السماويّة .

بعدَها أخذ يمازحتي ، ثمَّ عاد إلى كتبهِ اليونانيّة وغرق مرّة أخرى في فحصها والتنصيص منها .

**

كنتُ أعرف أن ذهابي للمدرسة هو نوع من الارتقاء المعرفي ، والذي لا يتم في الطائفة إلاّ عبر المساررة ، وكنتُ أعرف أن ارتقاء المريد في طائفتنا هو تدرُّج وفق تراتبيّة متناغمة مع تراتبيّة كونيّة . والحق أن الانتقالَ من رتبة إلى رتبة أعلى كانَ يوافق «طقسًا أسراريًا ، يتم من خلالهِ إطْلاع المريد على أسرار جديدة صار قابلاً لمعرفتها . وهذهِ المعرفة المتدرِّجة هيَ معرفة كلِّيّة تقوم على بناء نفس وعقل سليمين في جسم سليم . وبهذا فإن الأخلاق لم تكن غير هذهِ القابليّة المتجددة للمعرفة الأعمق فالأعمق . والعلم هو أداة معرفيّة ، والأسرار لا تُمنَح إلاّ لِمَن يستحقها . والصفائيّون والخواجيّون يعتمدان شروط المساررة ذاتِها» . وهكذا كنتُ سعيداً بذهابي إلى هذا المكان .

III
طريق الواعظين

قبل الوصول إلى طبرستان وصلتُ قريةً صغيرةً اسمها سردان . وصلتُها في غمرة أيّام الصيف الملتهبة ، وكانَ الوقتُ ضحى ، وأخذت الشمسُ تسحق بأشعتها اللاهبة سابلة الطريق وحميرهم الرصاصيّة ، وكنتُ أرى الذباب كبيراً وقبيحاً وهو يؤوم إلى الظلّ حيثُ بقايا مزبلة البازار التّي أخذت تكبرُ شيئاً فشيئاً مع مرور الوقت .

وأوّل وصولي أخذ الباعة يصرخون بملء حناجرهم يمتدحون سلعهم ، فبقيتُ هناكَ حتى الظهيرة ، حيثُ أخذ المؤمنون الفقراء يذهبون إلى مسجد القرية الصغير ، وتجمعّت النساءُ بصخبٍ حول بئرها الوحيدة ، وتوقّف بعض السابلة عند مجزرتها الوسخة الكائنة وسط الساحة المقابلة للجامع ، حيثُ جزّارها القبيح برائحته العطنة يذبح جَدْيه ويترك نصفه لشيخ الجامع والنصف الآخر يبيعهُ بثمنٍ باهظ للناس ، وقد نادى الإمامُ المؤمنين لأداء الصلاة ، وسمعتهُ وهو يحذّر الناس من الطائفة الخواجيّة ، ويتوعّدهم بالموت والهلاك ، ومن دون أن أمرّ بالجامع اخترقتُ السوق حيثُ كانَ هنالك مبغى ، وعطّار

يسمونهُ الشيخ القبيح ، ومتسوّلون على جانبي الطريق ، وكلابٌ جرباء تستظلّ بنخلةٍ عجفاء وحيدة .

**

شعرتُ بأسى كبير ، وكآبة استولتْ على قلبي فجأةً ، وما زادها كانَ ثمّة رجلان يتشاتمان في نهاية السوق ، ويستخدمان ألفاظاً بشعةً ، وهنالك شخصٌ آخر يصيح بصورة فظّة على صاحبهِ ، وجاريات يتضاحكن ويستخدمن لغةً بذيئةً ، وبائعون يصرخون بأعلى أصواتهم وبطريقة خشنة .

ما جعلني أشعر بكلّ هذا الحزن الذي أثقل قلبي ، هو الاستخدام الفاحش للغة ، وهذا ما كانت تقول به طائفتنا ، إن الاستخدامَ الفاحشَ للّغة هو نوعٌ من التدنيس البشع لهذه الوسيلة العظيمة . ذلكَ أنّ اللغة بالنسبة إلى طائفتنا لا تشتملُ على ظاهر تصوريّ فقطْ إنما على باطن تناغميّ أيضاً . فكيف لهُم أن يفعلوا بها هكذا ، كيف يؤدّون اللّغة أداء فظّاً ، وبصورةٍ خشنةٍ ، وبذيئةٍ ، وبطريقةٍ فاسدة ، ألا يجبُ علينا أن نلجمَ من يستخدمونها في قولِ أشياءً قذرةٍ أو فاحشةٍ .

فمن الأشياء التي كانَت تشعرني بالتعاسة في بغداد بعد عودتي من معسكر التدريب في السنة الأخيرة ، هي اللّغة ، لقد أدركت الفرق بين استخدامها داخل المعسكر واستخدامها بين الناس ، لقد شعرت بأنّها أخذتْ تفقدُ ، في بغداد ، حيويتَها التصويريّة والنغميّة ، وأخذتْ تغرقُ في التراكيب الغثّة ، وكنتُ أدرك جيداً أن هذا الضعف والتردّي هو من ضعف النفوس

وتردّيها ، لقد كنتُ أشعر بهذا الأمر بقوّة ، وهذا هو ما جعلني مؤمناً حقّاً باللغة الأسراريّة ، والمدارس البعيدة عن الاستخدام الفظّ للّغة .

فالّلغة التي كانَ يتداولها الناس عاجزةٌ وقاصرةٌ ومستباحةٌ وملوّثةٌ ، لأنّ النفوس مهدّمةٌ ، والأخلاقُ مفكّكةٌ ، والروحُ منهوبةٌ بكلّ ما هو ماديّ وبشع وإجراميّ ، كنتُ أشعرُ بالنفيّ من هذا العالم لأنّي كنتُ منفيّاً عن اللّغة ، فما هذهِ التعابير التي يتناقلها الناس؟ إنها وسائل سائبة ، عاجزة عن نقل جوهر المعرفة الروحيّة ، وعاجزة عن نقل الجوهر الروحيّ للمعرفة ، هذا النموذج لا تقدّمهُ إلاّ لُغةٌ خاصّةٌ ، لغةٌ أسرايّةٌ ، رمزيّةٌ ، رقميّةٌ ، فتتحوّل المعرفة المغلقة إلى معرفةٍ متفتحة ، معرفة تنبثق فينا لفظًا وصورةً ورقمًا .

يوماً بعدَ يوم كنتُ أجد أن انتظامي لهذهِ الطائفة هي من نعم اللهِ عليّ ، فلو قيّض لهذه الطائفة أية سلطة فإنها ستقضي على الاستخدام الفاحش للألفاظ ، وستجعل الناس تتكلّم بأجمل ما في اللّغة من طاقة ، ستعلّم الناس المُناغَمة بين المعنى السامي والموسيقى ، وهذهِ هي من يجعل المعنى يتفتحُ فينا ، ويجعل قولنا معرفةً ، ونطقُنا انسجامًا مع الخير ، وهو الحقيقةُ المتأصّلةُ فينا .

**

لم أطق البقاء طويلاً في هذهِ القرية القبيحة ، والتي يسيطر عليها فقيهٌ بليدٌ ، يرتبطُ بعسس السلطان ، إنّما رحلتُ مع فلاّحٍ

بسيطٍ ، صعدتُ معهُ على حمارهِ واتجهتُ إلى طبرستان ، وبعدَ مسيرةِ يوم بين البساتين كنتُ وصلتُ إلى قرية صغيرة اسمها دياري على مقربة من مازران .

- إذن هذهِ هي دياري بعدَ أن تركتُ ورائي سيران . .هكذا قلت في نفسي . مدينة الحسن الصبّاح والشاعر عمر الخيّام ، والمدينة التي انطلق منها النزاريون شرقاً وغرباً .

ولا أخفي أبداً بأنّني ارتعتُ أوّل الأمر ، تراجعتُ تلكأتُ ، ولكن بعدَ ذلكَ لم يكن لي من خيار آخر ، كانَ عليّ أن أذهب إلى مدينة دياري ، طوعاً أو قسراً ، فعدلتُ عمامتي ووضعتُ زوّادتي على كتّفي ، وتوكلّت على اللهِ ، وسرت .

في بادئ الأمر ، بقيت الأفكار الخالية من أي معنى تقرع صدغي قرعاً موجعاً . وأخيراً لم أعدْ أحتمل ما يحدث ، كلمات صاخبة قادمة من كلّ الأفواه ، عيونٌ عند كلّ منعطف تثب إليّ مثل كلاب مقيتة ، ولأنّني كنتُ أحاول أن أقرأ الأفكار خلف آلاف الوجوهِ التّي تمرّ بي . كانَت تلك الأفكار ، تتمركّز حول شيء واحد هو أن السلطات بعثت مجموعة من الجواسيس خلفي ، أفكاري لا تذهب بعيداً عن هذا الأمر ، وكنتُ أشعر باني مندرج في اللعبة الحاسمة التي كانَت حياتي جزءاً من مجازفتها ، أعوامي المدخرة التي كانَت تؤلف معنى الفنّ الذي كنتُ أنشدهُ وأبغيه .

كنتُ قد وصلتُ ديارى عند صلاة الظهر ، وقد كانَت المدينةُ كبيرةً جداً . أهلها مسلمون في معظمهم ، وبعضهم مجوس ، وآخرون يهودٌ ونصارى أيضاً ، والمسلمون كلّهم دون استثناء من الإسماعيليّة النزاريّة ، وكانَوا أناساً طيبين ، ومنازلهِم فسيحةٌ ، ومتجاورةٌ ، وتكثر في المدينة البازارات والخانات والخمّارات ، لم تكن مثل بغداد ، ولكنّها جميلة ، حيثُ يحتضنها الجبل من الخلف ويقطعها النهر من الوسط ، ظننتها أكبر مدن خوارزم قبل أن أزور سمرقند أو بخارى . وقد قطعتُ المدينة من وسطها إلى الشمال ، وكانَ قبالتي يرقد الجبلُ الموحشُ الذي يحتضن الفرقة الحشيشيّة .

كانَ هنالك شيخ يردّد بصوتٍ عالٍ : يا خفيّ الألطاف نجّنا مّما نخاف!

زعق أحد خلفي : بالك! التفتُّ لأرى حصاناً يمتطيه شابٌ في سروالٍ كبير أحمر اللون ، وصديري واسع ذي أكمام طويلة ، وعمامة ملفوفة حول رأس حليق ، وهو يلوّح بسيفهِ ، وقد شقّ طريقهُ بعنفٍ بين الجارين فأوقع بعضهم أرضاً ، وجاسهم بحدوات حصانه .

هنالك عبدان يتخاصمان وقد سقطت عمامة أحدهما ، ونساء واقفات ينفجرن من الضحك على المتخاصمين ، ويشجعنهم على بعضهم . عويل نساء في البيوت يأتي من الأبواب المفتوحة . رجال يهرولون وأمتعتهم فوق رؤوسهم

يقودهم ربُّ العمل بوحشيّة مريعة . نساء حاسرات يحملن أطفالهن فوق الأكتاف ويقفن في صفّ ، من الواضح أنهن من الجواري التي يبيعونهن في سوق النخاسة .

كانَت المدينةُ شبهَ مقفرةٍ ما خلا فلاّحات عجفاوات في جلاليب سود ، ورجال ضامرين بجلابيب خشنة يشدّون خصورهم بأحزمة من الجلد ، يقفون على مقربة من منازل ضبّاط الحرس ، والتجّار الذين يكدّسون أمتعةً وسلعاً على ظهور الجمال . وفي الطريق المقابل لهُم يمر فلاّحون فرسٌ على حميرهم المخبّة .

**

وسط القرية كانَ هنالك جامعٌ فقيرٌ ، وتحيط بهِ بعض المنازل شبهَ متداعيةٍ ، وثمّة خمسة رجال من الصوفيّة الحلاجيّة يعيشون متوحدين فى ذاك الموضع القفر ، وكانَت روحانيّة المكانَ ظاهرة تشعر بها بها ما إن تدخل وتسلم على ساكنيه .

لمْ أشعرْ بالوحشة التي تبدو عادةً واضحةً في الأمكنة المتداعية ، بل شعرتُ بهذا المكانَ ومع هؤلاء الشبان الذين ارتدوا الخرق والصوف ، بألفةٍ كبيرة ، وقد قضيتُ هناكَ معهم يوماً كاملاً ، قبلّ أن أعثرَ على الطريق الموصل إلى سيّدي ومولاي يعقوب السمرقندي ، فخرجتُ من الصباح ، وقد ودّعني هؤلاء الشعراء الطيبون وقد كانَ أحدهم ماجناً في شبابهِ ، وهو اليوم في الأربعين ، بعدَ أن سلك التصوف والمجاهدة

في سبيل اللهِ . وقد تكلّم لي مع قافلة صغيرةٍ ذاهبةٍ إلى طبرستان مكوّنةٍ من بضعة زوّار كانوا في بغداد ، وحجيج قادمين من مكّة ، وتجّار ذاهبين إلى سمرقند ومارّين بطبرستان .

وذهبتُ مع هذه القافلة ، غير أنّ ما أثار انتباهي فيها كانَ معنا متصوفٌ رثٌّ في ملبسه ، ولهُ لحيةٌ بيضاء طويلةٌ ، كانَ يرتدي ملابس غريبة بعض الشيء لا في رثاثتها ولكن في غرابتها أيضاً ، ففي الصيف الساخن كانَ يرتدي عمامة حمراء غريبة ، وعباءة من الصوف ، كانَت حوافُّها متهرئة ، وكانَ ثوبه نظيفاً حريرياً لامعاً ، وقد انسل من طرفه خيط واضح ، من الظاهر أنه تعمّد قدّه بسكّين أو موسى أو بشيء حادّ ، فاندهشت لهيئته ، ذلكَ أن الصوفيّة لا يرتدون الحرير ، أيكونُ لا يعرف أنّ ما يلبسهُ هو ليس من الحرير ، أم أنّهُ يتظاهرُ بأنّهُ صوفيّ؟

هكذا كنتُ أحدّثُ نفسي وأنا أسيرُ مع قافلة الحجيج الذاهبة إلى طبرستان ، خافياً عن الناس وجهتي الأصليّة ، فقد اشتدت تلك الأيّام مراقبة الخواجيّة ، صحيح أن عسس السلطان والفقهاء ومخبروهم لا يعرفونَ عن أمرِ المدرسة كمخرج لبعض الطلاّب إلى الطائفة الخواجيّة ، إنّما هي مدرسة عاديّة ، مثل كلّ مدارس الأمصار الإسلاميّة ، تخرّج أبناء المسلمين بعدَ أن تعلّمهم الصنعة ، وتعلّمهم الفلسفة والشعر والفنّ والحكمة ، بينما ثمّة طلاّب منهم تتعهدّهم الطائفة الخواجيّة السريّة ، ولا أحد يعرف بذلكَ ، وربّما هذا الرجل الغريب الهيئة قد كشف

سرّي ، وها هو تقدّم نحوي وقال بنبرةً ماكرة؟

- هل أنتَ من طلاّب مدرسةِ الحَكمةِ في طبرستان؟

- أنا ذاهب هناكَ أريد مقابلة سيّدي يعقوب السمرقندي هل تعرف الطريق إليه!

ضحك الرجل وقد علّق فى رقبته عقداً فيه خرزةٌ كبيرةٌ :

- أعرفه ، دون شك! ولكن ماذا تفعل هنا؟ أنتَ هنا خارج مدينة طبرستان . . . هل تعرف ذلكَ؟ عليك أن تذهب في هذا الطريق أوّلاً . . . وأشار لي بيده إلى طريقٍ طويلٍ ، محفوفٍ بصفٍ من الأشجار . . .

ثمّ ابتسمَ لي ، فشعرتُ بالمكرِ وهو يلتهبُ في عينيه ، والخداع في ابتسامتهِ ، وقد رأيتُ رغم المكرِ نوعاً من الذكاء المتوقّد في عينيه ، وشيئاً من المرح في سرائر وجهه ، ومع ذلكَ فقد وجلتُ منهُ ، وصرتُ أتظاهرُ باللامبالاة تماماً أمامه ، وذهبتُ دونَ أن التفتَ إليه ، إلاّ أنّهُ أخذ يتعقّبني ، ويقتفي خطوي ، ويسمعني رغماً عَنّي صوتهُ ، لقد كانَ يتكلّم بلغة عربيّة من النوع العالي والتي لا يحسن استخدامها أيّ من عوّام بغداد ، كما أنّ نطقهُ الصحيح من دون لكنةٍ هو مما كنتُ لا أصادفه هنا مع القاطنين الفرس أو التركمان ، الذين يتكلّمون العربيّة بلكنة واضحة ، لقد كانَ يتكلّم وكأنّه واحدٌ من أهل بغداد ، ومن قاطني الرصافة ممن يحسنون العربيّة بلهجة البلغاء والأدباء والمتكلّمين .

ثمّ نظر لي وتهيّأ للكلام ، فرمقته رغماً عني ، كانَ وجهه

طولياً ولحيته كثّة سوداء من دون حنّاء ، وكانَ وجهه أبيض ، وقد زادت لحيته السوداء بياض وجهه وضوحاً .

- هل تبحث عن مكانَ تنام فيه . . .

- لا يا سيّدي أنا أريد أن أذهب إلى طبرستان . .

- هذا الوقت لا يصحّ للسفر إلى طبرستان ، سيدركك الليل قبل أن تصل . .

- أنا على عجلةٍ من أمري . . . أريد الذهاب إلى المدينة . .

- اسمع يا فتى ، لا أنصحك بالذهاب الآن إلى طبرستان فربّما يتعقبك أحد قطاع الطرق ويقتلك . .

توقفتُ مرتبكاً قليلاً ، مفكراً في قولهِ ، فربّما في كلامه شيءٌ من الصحة ، فالوقت الآن ليلٌ ، وفي الليل يكثر السلاّبة وقطّاع الطرق واللّصوص على الطريق إلى طبرستان ، وإلى مازران ، وهنالك الطريق الموصل إلى قلعة الموت حيثُ تكثر المواجهات بين رجال الحشيشيّة الفرقة التي ابتدعها الحسن الصباح قبل مائتي عام ، وبين جند الخليفة .

فأجبته بصوتٍ مرتَبك قليلاً :

- ولكن ألا يوجد هنا خان يا سيّدي . . .

- ألست من أبناء ميمون . .؟

- أو تعرفهم يا سيّدي؟

- أرسلني الخواجة عبّاس لمتابعة طريقك لئلاّ تضيع يا فتى!

- لا أعرف من هو الخواجة عبّاس يا سيدي . . .أنا ذاهبٌ إلى خواجة اسمه يعقوب السمرقندي . .

- ولكنّهُ ليس هنا! قالَ ذلكَ بهدوءٍ ماكر .
- أين هو؟
- إذا أردت أن تبيت في مكان ، يمكنك أن تقضي الليلة في خانٍ قريبٍ من الجامع .
وأشار لي إلى جامع قريب .
- ألا خوف عليّ من أتباع الحشيشيّة يا سيّدي . .
- من عليك أن تخشى منهم هم أصحابُ السلطان ، ومخبرو القاضي عبد الرحمن ، وأتباع فقهاء الظلام ، يا فتى لا من أهل الحشيشيّة . . قالَ ذلكَ غاضباً .
- حسن يا سيّدي . . هل هذا الخان للإحسان أم عليّ أن أدفع أجراً . .
- ستدفع أجراً قليلاً . .
- حسنٌ يا سيّدي ، قلت لهُ ذلكَ وسرتُ .
في الواقع كنت شعرتُ بالراحة ، شعرتُ بنوع القوة التي دخلت جسدي ، كنتُ في البدء حائراً من هذا الرجل الغريب ومن تصرفاته ، ولكنني عرفت أنه مرسل من النظام ، وشعرتُ بالاطمئنان منه ، وما عليّ إلاّ أن أتبع فطرتي في معرفة أحوال البشر .

الخان

دخلتُ الخان .
كانَ هنالك رجلٌ صغيرُ الحجم ، ولكنني لا أدري لماذا

حدستُ أنّهُ من أتباع النزاريّة ، كانَ ملبسهُ غريباً بعض الشيء ، ولكن لهُ نبرة فارسيّة خاصة ، وطريقةٌ في الكلام واثقة .

سألني أسئلةً واضحةً وهو ينظرُ لي بعينين قويّتين وفي عينيّ مباشرة . كانَت أسئلته بسيطة وليس فيها أي شكّ أو عداء ، مثل من أينَ أتيت وما هي وجهتك ، ولكني شعرتُ بأنّه يخفي شيئاً ما .

كنتُ أعددت مكانَي للجلوس وأعطيته زوادتي والتي لم يكن فيها غير الكتب ، وقد تناولها ووضعها على دكّة مقابلة ، وقالَ لي :

- هل هذهِ هي كلّ ملكيتك؟

- لا سيّدي بل لدي نقودٌ أيضاً ومددتُ يدي إلى جيبي . .هل الدفع مقدّماً . .

ابتسم وقالَ :

- لستَ بحاجةٍ أن تفعل هذا ، لقد دفعَ عنك شخصٌ قبل أن تأتي .

- أيّ شخص يا سيّدي أنا لا أعرف أحداً هنا .

- الشخص الذي كنتُ تتكلّم معه قبل أن تأتي هنا . .

ذاك الرجل وأشرت لهُ من الباب إلى الرجل الواقف قرب ميدان المدينة ، قربَ شجرةٍ كبيرة تحتها سبيلُ ماء .

- أجل ، ذاك هو من دفع أجرَ مبيتك ليومٍ واحد . .

- أتعرف هذا الرجل؟ أتعرف اسمهُ؟

غير أنه نظر لي مستغرباً وقالَ باستهجان :

- تتكلّمُ معهُ ويدفعُ أجرة مبيتكَ ، وتسألني عن اسمه ، أيّ رجل أنتَ؟

اعتذرت منه ، وبعدَ أن وضعت أغراضي وحاجياتي على الدكّة المقابلة سألتهُ :

- سيّدي ألا تقدّمون الطعام هنا؟

- بلى نقدّم الطعام .

- أريد غداء يا سيّدي فأنا جائعٌ جداً .

- ولكن الدفع مقدّما لأنّ صاحبك لم يدفعْ عنك في هذا الأمر!

- حسن يا سيّدي ما ثمن الطعام؟

- درهمان فقطْ .

- إنّهُ رخيصٌ جدّاً يا سيّدي .

**

وبعدَ الغداء دخلتُ إلى حجرة مجاورة ، حيثُ كانَ بالحجرة صنبوران واحد للماء الساخن والثاني للماء البارد ، فاغتسلتُ ، وارتديتُ جلباباً نظيفاً وعدتُ إلى الحجرة الأولى . جلستُ فوق حشيّة موسّدة فوق دكّة حجريّة . وقدّمَ لي الخادمُ ماءً بارداً . كانَ بجانبي شيخٌ أصلعٌ ذو لحيّة عظيمة . وكانَ يتبادل الحديث بصوت خافت مع زميل لهُ شديد البدانة .

خرجت بعدَ ذاك للتجوال في المدينة ، وشعرتُ بأنّي في مدينة جميلة وناسها طيبون ، وكنتُ اندهشت ذلكَ أن قاطنيها

هم من الفرقة الحشيشيّة ، وما كنتُ أسمعه عنهم مخالف كلّياً عن حقيقتهم ، ربما هي ذات الصورة التي تلصق بالطائفة الخواجيّة ، ثمَّ سألت بعض المارّة فعرفت أن هنالك خمّارة يرتادها بعض الشعراء والأدباء غير أني لم أدخلها . وتناولتُ العشاء وهو طعامٌ بسيط من السمك والبلح والماء ، ثمَّ أخرجتُ كتاباً قرأتُ منهُ فصلاً ، وأعدتهُ إلى زوّادتي ، ثمَّ نمتُ حتى الفجر .

IV

الوصول إلى طبرستان

حين وصلتُ مدينة طبرستان كانَ الوقتُ عصراً . مشيتُ وحدي في الشوارع التي كانَت مزدحمةً جدّاً بالمتسوّقين والتجّار والسابلة ، حاملاً صرتي على كتفي .

كانَت أزّقتها ودروبها كلّها تؤدّي إلى السوق ، وفي مقدّمة السوق حوانيتُ السمك ، والجزارة ، وسوقُ الحبوب ، وموقفُ الحمير والبغال ، ودربُ الفرسان ، وفي وسط السوق رجالٌ صوفيونَ يذكرون الله بالدفوف والطبول . وعلى مقربةٍ منهم جلس عجزةٌ ، ومتسوّلون ، وعميان ، و كانَ ثمَّة تجار يذهبونَ إلى المساجد ، بعدَ الآذان ، وأمام السوق نصب سرادقٌ كبيرٌ يجلس فيه الوالي وبعض التجّار .

وعند نهاية السوق رأيت رجلاً يضع ذيلَ جلبابهِ بين أسنانهَ ويجري ، وأمام حانوت القمح امرأةٌ تبيع الحنّاء والسكّر والزعفرانَ ، والصمغَ ، والعاجَ . أما بعدَ السوق فهي طبرستان ، فهنالك قصورٌ ومنازلُ صغيرةٌ على الجانبين ، وأصحاب الحمير والكدش يحملون البطيخَ الأحمرَ أكواراً ويذهبون بهِ إلى الجانب الآخر من المدينة ، وعند ميدان المدينة قرب سوق الصاغة ، كانَ

هنالك ماءُ سبيل ، تقف عندهُ جاريةٌ جميلةٌ ، ترتدي قميصاً أزرق ، وعمامةً بيضاء ، فسألتُها أين يمكنني أن أجدَ الخواجةَ يعقوب السمرقندي ، الصانع ، والموسيقي والفيلسوف .

صمتتْ برهةً ، ثمَّ التفتتْ يميناً ، وأشارتْ بيدها ، قالَت لي بصوت بهِ غنةٌ جميلةٌ :

- اذهب إلى خمّارة الفلاسفة الظرفاء فهي على مبعدَة فرسخ من هنا ، وستجدهُ هناكَ مع الفيلسوف أبي مخلّد ، بإذن اللهِ .

فسرتُ مسافةَ فرسخ ، ودخلتُ زقاقاً ضيّقاً في آخرتهِ جامعٌ ومدرسةٌ ، لمْ يكنْ هنالكَ أحدٌ في الشارع غير صبيةٍ يلعبون ، غير أنّي وجدتُ خمّارةً في عطفة الشارع من جهة اليمين ، وحينَ وصلتُها قرأتُ على بابهِا أنها خمّارة الفلاسفة الظرفاء .

ما إن دخلتُ حتّى هالني ما رأيتُ من هندسةٍ جميلة لهذه الخمّارة الكبيرة ، فقد كانَتْ لها قبّةٌ مقرنصةٌ ، وسجّادةٌ تغطّي البلاط كلّهُ ، ومن مخملها ونقشها عرفتُ أنّها مصنوعةٌ في بخارى ، وعلى الجدران المقرنّصة منظرٌ لجنّة عدْن ، بركٌ مضلّعةٌ نبتتْ فيها أشجارٌ ونماذجُ متشابكةٌ ومزهرةٌ ، ألوانٌ عديدةٌ فوق موزائيك أخضر وفي أسفلهُ مذهّباتٌ ، وعلى الجدار المقابل كانَ ثمّة إبريق معدنيّ مرسوم عليهِ نباتات وبشر وحيوانات ، تشبهُ زخارف النباتات الفارسيّة على القصور والمساجد وعلى جدران المنازل والقبور .

على اليمين هنالك ساقيةٌ فارسيّةٌ تغنّي بصوتٍ عذب

وآسر أبياتا من أشعار حافظ شيرازي :

«تا سر تو در دست نسيم افتادست دل سودا زده إز غصة دو نيم افتادست»

ومعناها : «منذ وقعتْ أطرافُ طرتك في أيدي النسيم ، وقد انشطر قلبي المولّهُ المشتاقُ إلى نصفين» .

فشعرتُ لحظتها بنشوة كبيرة ، شعرتُ بدوار خفيف وكأنَّ الأرض مادت تحت قدمي ، فقد كانَ هذا اللحن ساحراً ، ومؤثراً بل وعبقرياً أيضاً ، كانَ منسجماً مع معاني الأبيات الشعريّة بشكل كبير ، وكانَ أثر هذه الكلمات القليلة وفي هذا البيت بالذات طاغياً ، فتوقفت قليلاً ، فقد كادت النشوة تغمي عليّ ، بعدَ برهة ، اقتربتْ مني جارية تحمل الإبريق الفضيّ ، وفي رأس الإبريق من مصب الخمر وضعت قصبة ريحان ، وصبّت لي في الكأس خمرة ، قلت لها :

«يا جارية من شيّد هذهِ الخمارة»

قالَت بصوت عذب :

«إنه سيّدي الخواجة يعقوب السمرقندي . .» .

ثمّ قلتُ لها :

- ولمن هذا اللحن الذي تؤدّيه الجارية؟ قالَت إنه لسيّدي يعقوب السمرقندي أيضاً يا فتى . بعدَ برهة سألتني هي بصوتٍ ناعم :

- من أين أنتَ يا فتى؟

- من بغداد يا سيدتي!

- أهلاً بك . . . قالَت ذلكَ وأشاحت بوجهها وسارت عنّي بضعة خطوات .

- يا جارية! أنا قلت .

- نعم يا سيّدي .

- اسقيني كأساً آخر .

- خادمتك يا مولاي !

كانَت هنالك طاولةٌ صغيرةٌ على شكل سبيل ماء ، وفخارٌ مزججٌ عند الزاوية ، فأخذتُ كأسي وتحركت هناكَ ، خلعتُ عمامتي ووضعتها إلى جانبي وجلستُ ، أتملّى الخمّارة الجميلة ، والرسوم على جدرانها ، وأسمع صوت الجارية التي تغنّي وتضربُ على العود ، وأشربُ من كأسي شيئاً فشيئاً حتى شعرتُ بالنشوة في جميع جسدي .

صيرورة الصدور والتحول

رأيتُ على الجدار رسوماتٍ جعلتني أفكر كثيراً ، وأفهم السرّ في هذه الخمّارة ، فقد صنعها الخواجة يعقوب بهيئة مختلفة ، لقد صنع زخرفة متداخلة تقوم على مبدأ الصفر ، حيث ترتكز الفيثاغوريّة على مبدأ التحول الصفري . وقد أبدع في صنع هذه الرسومات التي تعكسُ الكثير من التناغمات ، فكل ما رسمه من شجر وماء وطيور هي تناغمات على مستوياتِ الوجودِ كافّة ، وقد عبّر عن هذا لا من خلال الصورة فقطْ ، إنّما من خلال لغةِ الأعداد . وهكذا كان هذا البناء

متجهاً بكليته نحو الـ«صفر» وهو الـ(عدم) ، بمعنى : أنّ الشكلَ الدائريَّ الفارغَ الذي رسمهُ الخواجةُ يعقوب هو قابلٌ لاحتواء الموجودات والأنّماط كافة . وهكذا صنعَ تشكّلاتٍ عدديّةٍ تشيرُ إلى انبثاقاتٍ من الدائرة التي ترتكزُ في مركزها ، ويصبح الجالسون جميعهم في دوّامة ، كأنّهم في دوّامة وجودية ، أو فلسفية ، فهم جالسون في هذا المكان ، وحين يرفعون رؤوسهم فكأنهم يسبحون في الفضاء .

انتظار

ساعةٌ مرّت ، وأنا أنظرُ إلى هذا الجمال المعماريّ العظيم ، وهذه الرموز السريّة التي تحيط بي ، وأنا أستمعُ إلى الصوت الجميل وهو يغنّي شعر حافظ شيرازي ، وقد شربتُ كأسين حتّى دخل الخمّارة رجلٌ نحيفٌ فجأة .

كانَ زيّه أكثر من أن يكون متواضعاً ، وشعر جبهته لم يكنْ ممشطاً ، ولم يجد وقتاً ليخيط ثقباً في عمامته السوداء ، كانَ للرجل نظرات غريبة ، فعيناه سوداوان حادتان ، وشعر لحيته كثّ وأسود ، وكانَ في صوته بحّة خفيفة ، كان يترنّم بأبيات من الشعر الفارسي لجامي ، وهو يدخلُ الخمارة .

عيناي راحتا مباشرةً ليديهِ ، فعرفت أن صنعة الموسيقى وهندسة هذهِ الخمارة من هاتين اليدين الغريبتي الشكل ، أصابعها طويلَة وناعمة ، ولكن فيها قوّة غير اعتياديّة ، لقد عرفت أن هذا الرجل النحيف هو ابن تلميذ جدي عبد الله ،

وهو من أشار لي والدي عليهِ ، بأن عليّ أن أتبعه في الصنعة ، وفي الموسيقى وفي الفلسفة ، وسيكون هو أستاذي ومولاي ، سيكون هو الصانع الأمهر ، سيّدي ومولاي الخواجة يعقوب بن هبة الدين السمرقندي .

**

تركتُ كأسي على الطاولة وهرعتُ نحوه ، ما إن وصلتُ قريباً منهُ حتَّى انحنيتُ لهُ ، وركعتُ لأقبّل يديه . فارتاع أوّل الأمر وفزّ مني ، تراجع قليلاً ، بعدَ أن سحب يده من فمي بقوّة ، وهو ينظرني بعينيه الحادتين ، قلت لهُ :

« سيّدي أيها الصانع العظيم أنا خادمك . . . وتلميذك»

قالَ لي :

«من أنتَ يا غلام . . ومن أين تعرفنّي . . وماذا تريد مني؟» قالَ ذلكَ وهو يغمغم كما لو يترنم بأغنية ، فعذوبة صوته تجعل كلماته كأنّها أغنية .

قلت لهُ :

- ائذن لي يا سيّدي أن أقول لك إني نصر الدين ، ويسمونني نصرت خوجا وأنا ابن البها خوجة!

فاقترب الخواجة يعقوب مني ، دنا خطوة أو خطوتين وقالَ :

- أحقا أنتَ سليل أسرة الخواجات العريقة النبيلة ، التي تنتمي إلى سلالة طويلة وفذّة من صناع بغداد العظام ، وجدك هو أبو عبد الله ، ذلكَ البناء والصانع المشهور الذي وفد إلى خراسان وطبرستان من بغداد ، بعدَ أن استقدمه الوزير نظام

الملك، في عهد ألب أرسلان؟»

قلت لهُ: «أجل يا سيّدي!

قالَ: «ارفع ذقنك قليلاً كي أستبين صفحة وجهك»

فرفعت لهُ وجهي، فتقدم خطوتين مني، بينما جاءته الساقية بإبريق خمر في رأسه قصبة ريحان، وصبت لهُ في الكأس.

قالَ وهو ينظر وجهي:

- أجل ذلك أنف عائلتك، وتلك ذقنهم، وهو جميل ومميز أيضاً!

فجأة دخل رجل وهو ينظر لي مستغرباً، كانَ في ضحوة العمر، ساقاه تحملانه في اختلاج، إذ إن اختلاج مشيته يميل بهِ قليلاً، أما وجهه فثابت، ونظراته قويّة، كأنّه في الحقيقة لا يفكر في أمر معين، وكانَت تتدلى من ذراعه سلة فيها كتب كثيرة، وكانَ ظاهر عمامته جميلة، وإن بليت من حافتها، التفت الخواجة يعقوب لهُ وقالَ لهُ:

- أهلاً بالمؤرخ أبي مخلد.

ثمَّ أشار لهُ عني وقالَ:

- هذا الفتى يقول إنه نصرت خوجة ابن البها خوجة.

ثمَّ التفت لي وقالَ لي:

- هذا المؤرخ أبو مخلد الطبرستانيّ.

هنا تقدم ذلكَ الرجل الذي قالَ عنه إنه مؤرخ من خلفه، وقالَ موجهاً كلامه لي:

- لقد كانَ جدّك أحد البنائين الاثني عشر في بغداد ، وتولت فروع بيتكم الصنعة في شتَّى أمصار دولة بني العبّاس ، وقد ظهرت أسماؤهم من عهد هارون الرشيد وحتى اليوم ، وكانَ أحدهم في عهد الخليفة المأمون قد خطط شوارع بغداد ورصفها بالحجر ، وفي حكم المستنصر بالله دعي سلفك الخواجة يعمر ليبني حمامات بغداد ، وقد أفل نجمكم قليلاً في أيّام المستظهر ، ولكن إلى حد ضئيل ، ومن ثمَّ وفي زمن ألب أرسلان منحتم لقب صناع بغداد ، جزاء على إخلاصكم!

قلت لهُ :

- أجل يا سيّدي هؤلاء أهلي وأنا جئتُ لأتعلّم الفلسفة والموسيقى في مدرسة الحكمةِ في طبرستان ، وعلى يد سيّدي ومولاي يعقوب السمرقندي .

- أجل قد خلت أجيال تعاقب فيها الصانع ابن الصانع وكأنّه لقب موروث ، فكما يخلف الولد أباه في الفروسيّة ، كانَ كلّ مرّة يظهر منكم بناء أو فنّان ، أو نقاش ، يشيد جزءاً من مدينة بغداد ، ويضيف إلى جمالها جمالاً جديداً .

ثمَّ نظر إلي الخواجة يعقوب وقالَ لي مستفهماً ومستنكراً :

- ولكن مالذي جاء بك هنا؟

- أريد أن أتعلّم على يديك يا سيّدي الموسيقى ، والفلسفة والهندسة .

- تتعلّم على يدي وأنتَ من سلالة الخواجات هل جننت ، والدي تعلّم على يد جدك .

- ولكن يا سيّدي والدي هو الذي بعثني لك .

- ولكن لماذا لم يعلمك هو الصنعة؟

- يقول إنه لم يعد من شيء جديد ليأتي بهِ ، وقالَ لي إنك أنتَ الذي يأتي بالجديد اليوم ، والفنّ لا يستقر على حال ، إنه يطلب الجديد على الدوام . لم أذكر لهُ أمر الطائفة الخواجيّة .

فكر قليلاً وهو ينظرني بعينيه الواثقتين ، ويضرب رجلهُ بمخصرته :

- لقد تعلّمنا على يد جدك ، كانَ والدي يضرب في الأرض عاماً بعدَ عام ، تتقاذفه فجاجها كأنّه لا يمتاز عن أحقر أبناء هذهِ الأمة! وبعدَ أن تعلّم الصنعة خرجت أخباره إلى النور .

قلت لهُ : وماذا يخلق بي أن أفعلهُ في هذا الشأن يا سيّدي؟

قالَ : لا شيء ، لا شيء . . .تعال معي فأسقيك قليلاً من الجعة احتفاء بهذا الأمر ، ففي حان الفلاسفة الظرفاء جعة جيدة ، وإن لم تضاه جعة بغداد أبداً .

هكذا ختم الخواجة يعقوب كلامه ، واستلقى باسطاً جسمه بأبهة بين أزهار الأقحوان ، تحت واحدة من أجمل أشغال الرسام الفارسي بشر النيسابوري على جدار الحانة ، كانَت الرسمة تصور سماء بيضاء ممتدة مع قطع من الغيوم البيض متفرقات على الصفحة اللازورديّة الممتدة ، وأسفل اللوحة صبيات جميلات ، معتمرات عمائم ملونة ، كن يضربن

على القيثار ، وأسفلهُن أبيات بالفارسيّة من شعر الشاعر والفيلسوف والحكيم سيّدي ومولاي عمر الخيام ، وواحدة من أجمل أبيات شعره بالفارسيّة .

هكذا وقفت ذلكَ اليوم أمام الخواجة يعقوب السمرقندي ، وأنا أصعد من بصري فيه ، من مفرقه إلى أخمص قدميه ، بينما جلس المؤرخ على مقربة منّا ، مع اثنين من روّاد الحانة ، أحدهما شاعر والآخر عالم كيمياء وكانَ صوت نقاشهم يعلو على كلّ صوت ، إلاّ صوت الجارية التي كانَت تضرب على العود وتغني قصيدة من قصائد مولاي حافظ شيرازي .

**

كأنَ صوت الموسيقى هو الذي يجعلني أفكّر تلك اللحظة بهذا العالم ، العالم الذي يقومُ على التناغم والعدد . فكوسمولوجيا فيثاغوراس وإخوان الصفا كلاهما تقومان على رؤيا فراغ غير محدود يقعُ خارج السماء . وهنالك علاقةٌ بين الأعدادٍ والحركة وهو ما يصدر الصوت ، وهكذا هي الموسيقى . هذهِ الموسيقى التي تأتيني الآن وفي هذا المكان من طبرستان .

V

الوصول إلى المدرسة

لمْ أذكرْ مع الخواجة يعقوب أمرَ الطائفة الخواجيّة ، أو انضمامي لها أبداً ، ولمْ أذكر لهُ أيّ أمر آخر حول مهمّتي في مدرسة الحكمةِ ذلكَ المساء .

ولمْ أكن أعرف ما هي العلاقة بين طائفتنا ومدرسة الحكمةِ في طبرستان؟ لا أعرف فيما إذا كانَت هنالك علاقة أو اتصال للمدارس السرّانيّة ببعضها ، فالعلاقات ليست عموديّة فقطْ ، أي وجود اتصال مباشر بين المدارس في مختلف الأقطار وبين العصور المتعاقبة ، إنما أفقيّة أيضاً ، أي بين المدارس الأسراريّة المتعددة في العصر الواحد ، فهنالك خط عامودي يمتد من المدرسة الأسراريّة السومريّة إلى المدرسة المصريّة التي أثرت بالمدرسة الهنديّة ، وثمّة وجود لآثار بابليّة وأورفيّة في الفيثاغوريّة . ولا يخفى على الجميع أن هنالك خطّاً متّصلاً بين الفيثاغوريّة والأفلاطونيّة والغنوصيّة ، وهي التي تؤدي إلى المانويّة والحرانيّة ، وتتجمع جميعها وتتركّز في المدرسة الأسراريّة الإسلاميّة ، التي قادت إلى إخوان الصفا ومنها جاءت الطائفة الخواجيّة .

كما أنه من جانبهِ لمْ يسألني عن أيّ شيء يخصّ هذا الأمر ، ولمْ أكنْ أعرفْ فيما إذا كانَ يعرف عنّي شيئاً أم لا .

ولدى خروجنا في الّليل من الخمّارة ، مسح لحيته بيده ، وعانقني ، والتفت إلى اليمين ، كانَ هنالك شخصٌ يقفُ على مقربةٍ منّا ، ولمْ أكن أتبيّنه في الظلام ، وأشار لهُ بيده ، فاقترب الشخصُ ولاحتْ ملامحهُ على ضوء السراج المعلّق على بوّابة حانةِ الفلاسفة الظرفاء ، وكانَ شاباً أسود ، يتكلّم بصوت عذب ، وتقاطيعُ وجههِ ناعمة ومليحة ، قالَ لي الخواجة يعقوب وهو يشير إلى هذا الشاب ، إن اسمهُ الأسود ابن الدهان ، وهو أحد طلاّبهِ المفضّلين ، وقالَ لهُ :

- خذهُ يا أسود إلى منام المدرسة وفي الصباح أرشدهُ إلى الدروس .

انفرجت أسارير وجه الفتى الأسمر الذي يشي بأصوله الحبشيّة في ضحكةٍ خافتة ، ثمَّ عانقني ، وقادني إلى الطريق لنسير معاً . كانَ يرتدي ملابسَ بيضاً ، ويعلّق على كتفهِ حمّالةً مملوءةً بالكتب ، وأخذ يترنّم بأبيات شعريّة على الهواء العذب والبارد الذي يهبّ من صوب الجبل ، وسرنا في الطريق المؤدي إلى سكن الطلاّب في مدرسة الحكمةِ .

**

كانَ النهرُ يجري وسط المدينة ، ويتمدّد الجسرُ إلى الصوب الآخر مهتزاً بإيقاع ثقيلٍ ، كأنّه يذوب في الموج ، كلّما مرتْ عليهِ قافلةٌ من الجمال أو مجموعة من الفرسان . إلى يسار

الجسر يفضي درجٌ من الحجارة إلى حديقة دهقان فارسيّ كبيرة ، قادني إليها أسود بن الدهان عبر درب ضيّقة في نهايتها منارةٌ جامع صغيرة ، فحوّطتنا نباتاتٌ غليظةٌ ، سميكةُ الأوراق ، أزهارها بنفسجيّة وصفر وحمر تهتزّ بحفيف خفيف ، وسرنا بها كما لو كنّا في ريف نيسابور .

وفي الطريق عنَّ لي شيءٌ ، وطالما أن هذا الشاب هو تلميذ الخواجة يعقوب السمرقندي ، وكانَ لي فضولٌ أن أعرف تفاصيل أكثرَ عن هذا الخواجة الذي طلب منّي والدي أن أتعلّم الموسيقى على يديهِ ، فقررت أن أسألهُ عنهُ ، وعن رأيهِ فيهِ ، قلت لهُ :

-تعرف يا ابن الدهان ، وهذا هو لقائي الأوّل بالخواجة يعقوب السمرقندي ، فقد وجدتهُ لا يشبهُ الخواجات لدينا ، لمْ يكن صارماً ، ولا عنيداً ، وليست لديه فكرةٌ واحدةٌ ، وهو أشبهُ ما يكون بالعابث منهُ إلى المفكّر أو الفيلسوف ، فما هو رأيك أنتَ؟

قالَ لي أسود :

-نعم إنه ليس صارماً ، الخواجة يعقوب أشبهُ ما يكون بالفيلسوف الحرّ ، نعم هو خواجة لكنّهُ لا يشبهُ الخواجات الآخرين ، إنهِ فنّان لا يركن إلى فكرة واحدة ، وحين يتكلّم فهوَ طائرٌ يقفز من غصن إلى آخر . لكنه لا يسقط في فخّ!

-فخّ أي فخّ؟

-فخّ الأفكار البشريّة العنيدة ، العناد في الأفكار فخّ .

قالَ أسود ذلكَ وهو يعدل عمامته البيضاء على رأسه ،

عيناها المسحوبتان لا تطرفان هو يتكلّم ، الجفنان يلتقيان بكسل وبطء ؛ وتبدوان كلتاهما مخيطتين قليلاً إلى الأنف ، مما جعلهُما ضيقتين .

قلت لماذا لا أختبرهُ وأنطقُ أمامه كلمة السر التي زودتني بها الطائفة لمعرفة الإخوان ، فيمكنني أنا أقولها عفواً ، فإن عرفها سيكلّمني هو بذلك ، وهكذا وما إن اجتزنا ساقية صغيرة تفصل بين الحي المحيط بالنهر ، والسوق الكبير في طبرستان ، ذكرت كلمة السر كما لو كنتُ أرنّم بها :

فالتفت لي ، وقال بصوت خافت :

- ماذا قلت ، آكت زابت ، أنا أعرفك يا ابن البها خوجة ، وأعـرفُ من أنت! ومن أينَ جـئتَ . . .أهلاً بك في مـدرسـة الطائفة في طبرستان! قال لي ذلك وعانقني .

قلت له : أهي مـدرسـة الطائفـة ، مـدرسـة الحكمـة في طبرستان هي مدرسة الطائفة برمتها؟

أطرق ابن الدهّان وقال :

أكثر طلابها وخواجاتها من الطائفة ، ولكن هنالك بعض الطلاب ممن لم ينتموا للطائفة ، ولكن بشكل عام ، في نهاية مرحلتهم الدراسية ينتمون طوعاً .

سررتُ جداً بما قال ، وسألتهُ فيما إذا كان هدف الطائفة جذب المريدين القادرين على استلهام الأسرار وحفظها ، فقال لي ولم لا ذلك أن رسائل إخوان الصفا وهي دستور الطائفة كانت تهدف هي الأخرى إلى جذب هؤلاء المتميزين من

الناس ، القادرين على سَبْر معانٍ تحملهم خطواتٍ أبعدَ في عالم المعرفة ، إلى ما وراء حدود الطقس والحرف .

- حسن قلتُ لهُ إنها مدرسةٌ أسراريّةٌ؟

- طبعاً هي مدرسة سّرانيّة تهدفُ تحرير روح المريد الذي يحيا على المثال الإلهي ، وهنالك درجات للمساررة . . .

- هل نخضعُ لاختبارات؟ قلت به .

- المريدون المقبولون ، من مثلك ، لا بدَّ أنّهم خضعوا لاختباراتٍ كثيرة ، مثل معسكرِ تدريبِ الطائفة . . . أليس كذلك؟

- نعمْ . . . أنهيتُ معسكر التدريب ، ولكنّي أسألُ عن تلقّي التعليم السرّانيّ ، هل نتلقاهُ هنا مباشرةً في مدرسة الحكمة؟

- طبعًا ، ستتلقّى التعليم السرّاني ، وهنا يتمّ عبرَ تطهُّرات كثيرة وفترة صمت ربما تدوم خمس سنوات ، ولاسّيما بعدَ اجتماع مجلس الخواجات الشهير في بغداد ، وأقرّوا فكرة الطائفة القائمة على فلسفة إخوان الصفا .

- وهل سيكون هذا عبرَ درجات؟

- طبعاً ، لأنَّ بلوغ الحقيقة يتطلب تنقية النفس ، أي يقتضي تعليمًا أخلاقيًا وعقليًا متدرجًا . ولا يكون هذا إلا بالعلم ، وهذا أمر صعب ، وليس سهلاً كما تظن ، ذلك لأنك ستنتقل من المحسوس إلى المجرد . وبهذا التنقل تستطيع التعرف إلى أبعاد نفسك ، وستعرف ذاتك أولاً وسترتقي من رتبة إلى رتبة أعلى فأعلى ، وصولاً إلى معرفة العقل الكلّي ، في تلك

المرحلة سترى في نقاء النفس العالم الحقيقي وتصبح قابلاً لتلقِّي الإلهام .

- وهل يتمُّ هذا عبر خواجة رئيس ، هل أنا ملزمٌ بمعلّم . .

- أكيد ، صمت قليلاً وهو يحول كتبه إلى الكتف الأخرى وقال :

لا يمكن لإنسان مفرد ، إذا لم يكن قد بلغ مستوى معينًا ، أن يحقق أي ارتقاء ، والارتقاء تدريجي وجماعي أيضاً . ويتطلب هذا التدرُّجِ تراتبيّة أسراريّة على رأسها إمام ، حيثُ ترفع كلُّ رتبة الرتبةَ التي تليها إليه ، وهكذا .

**

لقد كنّا نسيرُ في هذا الظلام الدامس في ليل طبرستان ، وهوائه البارد المنعش ، وكنت سعيداً ، أفكر بطائفتنا التي انتقلت من الصفائية كعقيدة مجرّدة لتتحول إلى طائفة لها غاية نبيلة ، وغايتها هي المدينة الفاضلة والإنسان الكامل ، إلى طائفة لها فلسفتهما التي تعنى بظاهر مطروح للجميع في الحوارات المعروفة ، وبباطن أكثر تجريدًا وعقائديّة ، ويشكلّ سرّانيّةً مستلهَمةً من الفيثاغوريّة والرمزيّة العدديّة ومن الإفلاطونيّة .

ووجودي هنا في مدرسة الحكمة ، لا لتعلم الموسيقى وأسرارها ، والنقش ، والخيمياء ، والفلك والصناعات فقط ، وإنما لترقي النفس ، وتدرّج المعرفة السرانية في العمق .

**

في الطريق لمحنا جاريةً تشربُ من ماءِ السبيلِ في الليلِ ، معها خادمٌ وجحشٌ أبيضُ ، رأينا حمّالاً قادماً من الريف يحملُ على ظهرهِ جريدَ النخيل رصّتْ ولفتْ بالحبال ، عبيداً عرايا عند مخرج السوق المطلّ على ميدان جامع طبرستان ، واختار الأسود الاتجاه المعاكس المؤدّي إلى مدرسة الحكمةِ ، فمررنا من محكمة المدينة ، وبيت الوالي ، حتى وصلنا سور المدرسة .

**

حين وصلتُ بنايةَ السكن الملحق بالمدرسة اندهشتُ ، فقد كنتُ أعتقد أن المدرسة ملحقةٌ بالجامع ، ولكنّي هذهِ المرّة وجدت الجامع ، جامع البلخي ، ملتحقاً بالمدرسة ، أي بمعنى أن المدرسة كبيرة جدّاً ، أمّا الجامع فهوَ صغيرٌ ومفتوحٌ لمن يصلّي فيه ، كما أن المدرسة كانَتْ مفصولةً عن هذا الجامعِ بمسافة شارع تقريباً ، وهذهِ المرّة الأولى التي أجدُ فيها مدرسةً مفصولةً عن المسجد ، فسألتُ أسود عن ذلكَ ، قالَ لي :

-نعم ، هو كذلكَ ، والمدارس الكبيرة بشكل عام مثل نظاميّة نيسابور ، أو نظاميّة بغداد ، أو المدرسة المستنصريّة مدارس علم مستقلة ، أما الجامع فهوَ ملحق بها لعبادة الله ، ولا يسيطر الجامع أو شيوخه أو فقهاؤه على المدرسة مطلقاً .

وحين دخلتُ السكن اندهشتُ لجماله ، فقد كانَ مشيّداً من الطابوق ، وكانَت واجهاته التي تضيئها المشاعل تكشف

عن زخرفة جميلة بأشكال هندسيّة متعدّدة ، وما إن تجاوزتُ المدخل حتى أصبحَنا أنا وأسود تحت سقف مزخّرف على شكلِ قبوٍ مدبّب ، يرتكز طرفاهُ على عمودين بشكل اسطوانةٍ ملتصقةٍ بالجدار .

- هذا هو المسكن؟ قلت لأسود مندهشاً .

- نعم ، إنه كبير جدّاً ، ومشيد بطابقين ، يحيط بهِ صحن دائري جميل ويبلغ عدد حجرات الطابق الأول أربعين حجرة والثاني ثلاثين حجرة .

سرت قليلاً وأنا أنظر زخرفة السقف التي كانَت تثير الإعجاب حقّاً ، وتدلُّ على ذوق رفيع ، وهي ذات أشكال متنوعة تعتمد معظمها في أساس تكوينها على الدائرة ، والخطوط المنبعثة منها ، ولكلّ نوع وحدة زخرفيّة تكونُ على شكل مربع أو مستطيل ، ومثال لذلكَ ربع الشمسة التي اشتقت منها تسمية النجمة الكثيرة الرؤوس التي تشبهُ الشمس .

وقالَ لي أسود ، إن الخواجات أشرفوا على بنائها ، وأنفقوا أموالاً كثيرة لذلكَ ، وجاءت بمباركة من الوزير زين الدين النيسابوري الذي أعدَّ وليمة كبيرة بهذهِ المناسبة ، وعملت الحلوى صفوفاً ، وأقيم سماط عظيم في صحن المدرسة كانَ عليهِ صفوف شتى وألوان مختلفة من الأطعمة الفاخرة ، أكل منه الحاضرون وحُمل منه إلى سائر دروب طبرستان .

كانَ الليل دامساً ، والمشاعل موزّعة على الواجهات ، حيثُ تظهر الزخارف الطابوقيّة على نور المشاعل المهتزّ . وقد شرع بعض الطلاّب في الدخول فتبعناهم . تلفتُّ حولي رأيتُ محمد بن جاد الحق الخونساري وهو يكتري حماراً ليذهب بهِ إلى منزله في طبرستان . وهو في مثل عمري ، وكنتُ قد تعرفتُ عليهِ لدي الخواجة سنان ، كانَ يعمل عنده قبل أن يضمّه الخواجة عبّاس الطغرلي إلى حلقته ، وقد انتقل للعيش في طبرستان ، حين رآني شحب وجهه . وعانقني بلهفة . تبعته وأنا أردّد بصوت مرتفع : يا خونساري . .يا خونساري . .

قالَ لي إنه في حلقة الخواجة علاء الدين الكرخي ، وسألني مع أي خواجة أنا؟

قلتُ لهُ أنا قادمٌ كي أدرس في حلقة الخواجة يعقوب السمرقندي .

حينَ قلتُ لهُ ذلكَ ، اندهش وسألني :

- لماذا اخترتهُ؟

- والدي نصحني بهِ . .

لم يكن بادياً عليهِ الارتياح من كلامي ، إلا أنه لم يكنْ راغباً في مواصلة الحديث معي ، فطلب منّي أن أذهب وأرتاح ، وفي الصباح سيناقش الأمرَ معي . وقالَ إنه لا يبيت الليلة في سكن الطلاّب إنما ذاهب إلى منزلهِ في المدينة ، وقد اكترى حماراً ليذهب بهِ ، وطلب منّي درهمين كي يدفعهما إلى

المسئول عن رحبةِ الحيوانات في المدرسة ، وهي حظيرةٌ لكراء الحمير والبغال والخيول للطلاّب والخواجات .

قلّبت جيوبي فوجدت دينارين وخمسة دراهم وهي ما تبقّى معي من المصروف الذي قدّمه لي والدي للرحلة ، أعطيتهُ درهمين ، فعانقني ومضى .

**

عند دخولنا السكن كانَ ثمّة صخبٌ وصياحٌ ، ورأيت بعض الطلاّب وهم يخلعون عمائمهم ، ويضعونها على بسطة طويلة ، ويتناقشون بينهم بصورة متوترة .

فسألت ابن الدهان لماذا هم هكذا فقالَ لي :

- يا عزيزي إن المدرسة منقسمةٌ بين ثلاثة خواجات ، وكلّ خواجة منهم لهُ وجهة نظره ، منذ أسبوعين والمدرسة لا تستقرّ بسبب الخلاف الذي نشب بين أساتذتها الثلاثة الخواجة يعقوب السمرقندي والخواجة علاء الدين الكرخي والخواجة النيسابوري ، فأصبحَ لكلّ خواجة من الخواجات تلامذته .

- وأنتَ مع من؟

- مع الخواجة يعقوب طبعاً .

- ولماذا؟

- الأمر يطول شرحهُ عليك أن تشهدَ الجدالَ بنفسك لتعرفَ أين تكونَ ومع منْ .

- وهل هنالكَ جدالٌ؟

- الجدال قائمٌ والمناظرات مستمرّةٌ بين الخواجات الثلاثة .

- وأمام الطلاّب كلّ هذا يحدث .

- نعمْ ، نعمْ ، إنّه جدال دائمٌ ويستغرق أيّاماً بطولها .

- وهل اخترتَ أنتَ على أساس هذا الجدال .

- في الواقع كنتُ اخترتُ أوّل الأمر الخواجة علاء الدين لأنّ لي صديقاً أفريقياً عمل مساعداً له ، ولكن بعد الجدال والسجال انتقلت مع الخواجة يعقوب .

- وهل يحقُّ للطالب التنقل بين الخواجات الثلاثة؟

- يمكنك أن تغير رأيك مرتين أو ثلاث مرّات ، ولكن لا يمكن أن تغير رأيك أربع مرّات .

- قلت لي إن صديقك يعمل مساعداً لدى الخواجة علاء الدين ، وهل يمكنني أن أكون مساعداً أيضاً للخواجة يعقوب .

- نعم يمكنك ذلكَ فالمدرسة كبيرة ، ولكلّ خواجة ثلاثة مساعدين .

نظرتُ من حولي مندهشاً من هذهِ العمارة الهائلة ، وقلت لهُ مدرسة كبيرة ، فقالَ لي مبتسماً :

- نعمْ ، إنها لا تشتمل فقطْ على الطلاّب والأساتذة ، إنما هنالك الطبابة ، فيها الطبيب وعشرة أشخاص يعملون معه لمعالجة الطلاّب والخواجات ، وتقديم الأدوية والشراب والأطعمة ، وقد انقسموا بينهم أيضاً بمناصرة أحد الخواجات ، وهذا جعل ناظر المدرسة في حيرة من أمره .

**

حينَ دخلتُ استقبلني ناظرُ السكن ، وهو شابٌ طويلٌ

بعمامة بنيّةٍ وقميص أبيضَ عريض يصلُ إلى الركبة ، وبسروالٍ من الحرير ، من سحنته ولهجته ظننتهُ بلخيّاً ، غير أنه قالَ لي إنه من السند ، وقالَ ثمّة عدد من الطلاّب القادمين من السند ، ولكن أغلب الدارسين هنا هم من سمرقند ، ودمشق ، ونيسابور ، وسجستان ، والقاهرة ، وبلخ ، وبغداد .

وقد قادني إلى حجرة صغيرة ، قالَ لي :

- هذهِ حجرة للضيوف وفي الغد سنهيء لك حجرة طالب . ثمّ سلم عليّ وغادر .

خلعتُ عمامتي ، واستلقيتُ على الفراش الوثير والنظيف ، وكنتُ متعباً جدّاً ، ولكني قبل أن تأخذني سورة الكرى ، فكرت بمصيري ، وشعرتُ بسعادة لأنّي سأتخرج من هذهِ المدرسة العظيمة التي خرجت العديد من الخواجات الفلاسفة والفنّانين والموسيقيين في الأمصار الإسلاميّة ، وعلى مقربة منها كانَت نظاميّة نيسابور التي أنشأها نظام الملك والتي خرجت العديد من القضاة والولاة والفقهاء ومشايخ الصوفيّة والقراء والواعظين .

VI

في صباح مدرسة الأسرار

أيقظني ناظرُ السكن في الصباح ، غسلتُ وجهي وارتديتُ عمامتي ، وخرجتُ من السكن إلى باحة المدرسة ، جاء صديقي الخونساري الذي رحلَ مساءً على بغلتهِ ، وتوقف عند مجموعة من النظار أمامَ الديوان ، وخرج من الجامع بعض السقائين بستراتهِم الجلديّة ، واتجهوا نحو حجرة الخواجات ، وكانَ هنالك مجموعة من الطلاّب الأحباش يتقدمهم أسود بن الدهان ببشرتهِ اللامعة وعينيهِ الجاحظتين وخديهِ البارزتين وهو يبتسم ابتسامة جميلة ، وإلى جانبهِ شخص آخر فوق رأسهِ عمامة بيضاء كبيرة ، ويتدلى من خصرهِ خرج كتب بجلد أحمر .

سرتُ في الجامعة ، إنها تُشبهُ بيت الحكمة أو المدرسة المستنصريّة في بغداد ، وهي مثلها في فرض ارتداء الزي الموحد الخاص على الطلاّب والخواجات ، وتتميز كلّ مرحلة علميّة عن أخرى ، أو الدرجة التي حصل عليها الطالب من خلال لون العمامة التي يرتديها ، فالعمامة البيضاء هِي للسنوات الأولى ، وبعدَ بلوغ مرحلة من المعرفة تتحول إلى الأصفر ، أمّا المرحلة المنتهية فهِي بلون قرمزي ، أمّا الأساتذة فهم يتمّيزون بلون العباءات السود ، والعمائم القرمزيّة الداكنة ، وقالَ لي الأسود

بن الدهان إن الخلفاء والوزراء إذا أرادوا زيارة المدرسة فإنهم يخلعون زي الإمارة والوزارة ويلبسون زي المدرسة قبل دخولها، وقالَ لي إنّهُ سيُصرفُ لي زيٌّ جديدٌ، وجرايةٌ لطعامي.

ويطلق الطلاّب في المدرسة على السكن بالأروقة. ويطلق على الطلاّب، بالمجاورين، لسكناهم بجوار المدرسة. وهم من كلّ عرق وجنس- عرب، وفرس، وأكراد، وأتراك، وصينيون، ومغاربة، ومصريون، وشوام- أمّا التدريس فهوَ حلقات داخل الفصول. ولكن أكثره في الخلاء، بالساحات أو بجوار النافورات، ولكلّ حلقة خواجة، ولكن من اشتهر في المدرسة هم ثلاثة خواجات فقطْ، بسبب الجدال والخلاف حول طرق المعرفة وإدراك العالم، وبالدرجة الأخص حول المعرفة الأسراريّة، أو طرق المساررة في المدرسة، وموقع فيثاغورس وهرمس وجابر بن حيان الكوفي والمهرجانيّ والزنجانيّ والبستي، أي إخوان الصفا بشكل عام، في السلسلة الذهبيّة، وحول الإدراك الحروفي والرقمي للعالم، وخلاف الكندي وبني موسى في زمن الخليفة المتوكل.

المدرسة الأسراريّة والفنّ

أشّر ابن الدهان لي بيدِهِ، وجاء نحوي، قالَ لي:

- كنتُ قضيتُ صلاة الصبح لأنّي لم أستيقظ مع الآذان فجراً.

وقفتُ معهُ، وتبينت المدرسة جيداً.

كانَت قد شيدت بطابوق أصفر اللّون يسمى الآجر، وعلى تنوع أشكالهِ وأحجامهِ إلا أنهُ رتب بشكل جميل حقّاً، ولاسيما بناء الأعمدة الاسطوانيّة والدعامات.

كنتُ أنظر إلى الجدار الذي أمامَنا، وكانَت تزينه زخارف تتخذ من الصفر وحدة هندسيّة، فقالَ لي الأسود إن المدارس الأسراريّة هِي التي أضافت للأرقام الصفر.

- الصفر؟

- نعمْ، لولاه لما استطعنا أن نحل كثيراً من المعادلات الرياضيّة، وقد سهل استعماله جميع أعمال الحساب، وخلص نظام الترقيم من التعقيد، ولقد أدى استعمال الصفر في العمليات الحسابيّة إلى اكتشاف الكسر العشري الذي اكتشفه جمشيد بن محمود غياث الدين الكاشي.

ثمَّ أخذ يتحدث لي عن الأرقام العربيّة بصفرها وكسورها العشريّة، وعن كتاب الزيج وهو عبارة عن جداول حسابيّة فلكيّة تبين مواقع النجوم وحساب حركاتها.

ثمَّ أدركتُ فجأة وأنا أتقدم إلى الداخل، أن مدخل المدرسة يقع في منتصف الضلع الشمالي الشرقي، وهو مدخل شاهق البناء، يرتفع عن باقي أجزاء البناية، وهذا ما يُظهر اهتمام الخواجات العظيم، بهذهِ المدرسة، وإعطائهم لها عناية خاصة، وكنتُ شعرتُ لحظتها بقداسة هذهِ اللحظات التي لا تنسى وأنا أسير في هذا الصرح الكبير.

**

كانَت أبواب المدرسة في الصباح الباكر مشرعة ، حيثُ يتوافد الطلاّب إلى الداخل ، وعند طرف الباحة مجموعة من الحجر الكبيرة المتجاورة ، هنالك حجرةُ الخواجات ، وحجرةُ الناظر ، وحجرةُ المشرف ، وحجرةُ خازن الكتب ، وحجرة المعماريين الذين يشرفون على صيانة المدرسة ، فضلاً عن حجرتي الفرّاشين والبوابين . وعلى مقدمة الباب الكبير من الجهة الخارجيّة كُتِبَ التعريفُ بالمدرسة على النحو التالي :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، قد أنشأت هذه المدرسة رغبةً في أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً وطلباً للفوز بجنات الفردوس ، وقد أعدّها للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وأمر أن تدرس فيها العلوم الطبيعيّة والفقهيّة ، إنّهُ سيدنا ومولانا إمام المسلمين ، وخليفة رب العالمين ، المؤمن باللهِ ، أمير المؤمنين) .

**

كنتُ توقفتُ أمامَ مجموعة من الزخارف البنائيّة التي كانَت موضوعة داخل مساحات هندسيّة كالنجوم والمضلعات ، فرأى ابن الدهان اندهاشي بها ، فأشار إلى مجموعة أخرى مذهلة أيضاً ، قالَ إن سيّدي الخواجة ابن منقذ البغدادي قد شيدها .

ما أدهشني بها هو اعتماد هذهِ الزخارف على عنصر المروحة النخيليّة بأشكالها البسيطة ، وهو أسلوب معروف في ريازة جوامع بغداد ومدارسها ، وهو حسب ما يرتسم في مخيلة الفنّان من شكل زخرفي يتناسب مع المساحة المخصصة للزخرفة

التي ستكون على شكل أغصان وفروع نباتيّة . وهنالك أيضاً كتابات على شكل أشرطة تزين واجهة المدخل وأعلى الجدران . وقد لفت نظري أيضاً أن جميع الكتابات كانَت على خط الثلث الذي يمتاز بحروفهِ اللينة ، وهو ما يحبّهُ أهل بغداد ، فشعرتُ أن البغداديين أرادوا أَن يشيدوا مدرسة على ذوقهم في طبرستان ، ليتمتّعوا بمناظرها ويبعدوها عن سلطة الوزراء والفقهاء .

حجرة الناظر

دخلتُ حجرة الناظر وسلمتُ عليهِ ، فرد السلام مبتسما ، كانَ أسمر الوجهِ ، لم يكن كبيراً في السنّ كما يبدو على وجههِ ، ولكن لحيته كانَت بيضاء كثة ، وكانَت عيناه السوداوان مشغولتين بالنظر في ورقة أمامَهُ يسجّلُ عليها ، ثمّ رفع رأسهُ نحوي ، نظرَ إلي وقالَ :

- أهلاً بك في مدرستنا .
- شكرا لك يا سيّدي .
- هل نمتَ جيداً .
- نعمْ يا سيّدي .
- سنعطيكَ اليوم حجرةً خاصّةً بك ، لا يمكن أن تبقى أكثر من يوم واحد في حجرة الضيوف .

ثمّ أخذ يكتب بريشتهِ على الورقة التي أمامَهُ ، وبعدَ برهة رفع عينيهِ نحوي وقالَ :

- عليك أن تعرف ، وربما قالَ لك أسود بن الدهان ، لدينا في هذهِ المدرسة تسعون طالباً ، وقد انقسموا على الخواجات ، وعليك أن تختار أحد الخواجات الذين تدرس على يديهِ ، فأي خواجة تريد؟

- أنا جئتُ من أجل الدراسة على يد الخواجة يعقوب . . .

- طيب سيكون لك ذلكَ ، الأمر يتعلّق بك ، وكلّ ما عليك هو أن تخبره فإذا وافق تلتحق بهِ ، وإذا لا عليك أن تختار آخر .

- أنا رأيته بالأمس وأظنّهُ وافق يا سيّدي .

- على العموم أنا أريد منهُ أن يؤكّد لي ذاك ، فأسألهُ أن يبعث لي ورقة بيدك ، يقول بها هذا ، ليتمّ تسجيلك في حلقتهِ .

- أمرك سيّدي .

قيّدَ شيئاً ثمَّ التفت لي وقالَ :

- كلّ طالب هنا يتقاضى دينارين نيسابوريين ذهبيين في الشهر ، ولكن لك كلّ ما تحتاجه من الطعام والشراب . . .ثمَّ نظر إلي وقالَ إن هذا الأجر يتضاعف في شهر رمضان .

ثمَّ أردف : لقد أوقف الخواجات على المدرسة وقفاً كبيراً ؛ حتّى يتفرغ القائمون عليها والملتحقون بها للدراسة والتحصيل ، لا تشغلهُم أعباء الحياة عن مواصلة البحث ولا يلهِهم التفكير في لقمة العيش عن متابعة التحصيل .

قلتُ لهُ : أدام الله ظلهم!

- فقد خصصوا لنظارها وشيوخها ومدرسيها ومعيديها وأطبائها وطلاّبها وكلّ العاملين بها ما يكفيهم من الطعام والشراب والنفقات . ثمَّ رفع عينيهِ لي وقالَ :

- هل قالَ لك ابن الدهان إن الأطعمة توزّعُ يوميّا مطبوخةً على طلاّبها المثبتين في المدرسة ، بالإضافة إلى ما يجهز لهُم من الحصر والسراج والزيت والورق والحبر والأقلام . .

- أظنه سيقول لي يا سيّدي .

- حسن وعليك أن تعرف أيضاً أنّهُ يوزع عليكم كميات كبيرة من الخبز واللحم والخضراوات التي تكفيكم وتكفي ضيوفكم ، بالإضافة إلى ما ستنالونه من هبات وعطايا .

قلتُ لهُ :

- حسن يا سيّدي . . . وكنتُ سعيدا جدّاً .

- اذهبْ إلى قسم الخواجة يعقوب السمرقندي الآن .

- وأين سأجده يا سيّدي .

- أوّل خروجك من الباب اذهب شمالاً ، سر في الممر وستجد ، مجموعة من الطلبة هناكَ ، واسأل أي واحد منهم .

قادني بن أسود وأشار لي بيدهِ من أين أتجه ، وقالَ لي ، إن عليهِ أن يذهب لأمر عاجل ، ولن أراه الليلة إلاّ في المساء ، فودعتَهُ ومشيتُ .

**

حينَ وصلتُ القبة المقرنصة سألتُ أحد الواقفين قرب

العمود الوسطانيّ في صحن المدرسة وهو يقرأ بكتاب فنّ الشعر لأرسطو .

- أين أجد الخواجة يعقوب يا أخ؟

- أنتَ طالب جديد؟

- نعمْ .

- اسمع ثمّة ثلاثة أقسام هنا في هذهِ المدرسة ، وكلّ خواجة من الخواجات الثلاثة لهُ قسم يدرس فيهِ الفلسفة والعمارة والسياسة والفنون ، وقسم الخواجة يعقوب يقع في القاعة الكبرى في الجهة الجنوبيّة من البنايّة . شكرتُه ومضيتُ .

كانَت هنالك دارة ملحقة بالصحن جميلة ، ليس لها مثيلٌ في الإمارات الإسلاميّة أبداً ، وتقع القاعة بين الصحن ودار الكتب ، وأمامَها من الجهة الشماليّة قاعة مخصصة لدراسة العمارة ، ورأيتُ وأنا أسير عشرة أشخاص يعملونَ في الزخرفة والريازة في الإيوان الواقع مقابل المدرسة ، فعرفتُ إنّهُ إيوان الفنّ .

**

كنتُ مندهشا حقّاً ، فأمامَ الفسحة الجميلة مكتبة ضخمة ومكتوب على واجهتها خزانة الكتب ، وهي كبيرة جدّاً ، وقد كتب على بابها بأنها تحوي ثمانين ألف مجلد .

وحينَما دخلتُ القاع وجدتُ اصطرلاباً ، وكانَ هو أكثر تطوراً من الاصطرلاب الذي صنعه محمد الفزاري ، وهنالك آلة

فلكيّة ترصد الكواكب . كما عرفتُ فيما بعدُ أنّ المدرسة تصدر كتاباً دورياً باسم المناخ ، وهي موسوعاتٌ تنبؤيّةٌ حوليّةٌ أو فصليّةٌ تبيّن أحوال الجوّ في كلّ عام ، ومواسم زراعة النباتات ، والطقس والمطر حسب التوقّعات الفلكيّة ، ممّا كانَ يساعد الزرّاع والمسافرين والحجّاج على التعرّف علىّ الأرصاد الجويّة .

**

وبعدَ أن سرتُ عدّة خطوات في الرواق شاهدتُ مجموعةً من الطلبة يقفون أمامَ المخزن حيثُ توزع عليهم القراطيس ، والمحابر ، والأطعمة ، وهنالك مجموعةٌ منهم قد أخذتْ عدّة من ناظر آخر ودخلتْ الحمّام . وهكذا أصبحَ الخونساري أمامَي :

-يا خونساري . .! صحتُ .

هرع نحوي وعانقني ، وسرنا قليلاً ونحن نتحدث ، وبعدَ أن تجاوزتُ الفسحةَ ، دخلتُ في إيوان كبير تقف في وسطه ساعة ضخمة ، تشبهُ إلى حدٍّ كبير الساعة الموجودة في الجامعة المستنصريّة في بغداد ، والتي شيّدها الخليفة المستنصر بالله بعدَ تكامل بناء الإيوان الذي أنشئ قبالة المدرسة . فسألتُ الخونساري مندهشاً :

– أليست هذهِ الساعة ذاتها الموجودة في المدرسة المستنصريّة؟

-لا . . هذهِ تشبهُها . . .فقد شيّد الخواجات هنا ساعةً تُشبهُ تلك التّي في المستنصريّة .

في الواقع ، هذهِ الساعة تُشبهُ ساعة بغداد التي تعمل على

إرشاد الناس إلى أوقات اليوم ليلاً ونهاراً . .

وكانَت عبارة عن صندوق في صدرهِ ساعات موضوعة بطريقة تعرّفُ الناسَ على أوقاتِ الصلوات ، وانقضاء الساعات الزمانيّة نهاراً وليلاً ، فالصندوق هو عبارة عن دائرة فيها صورة للفلك ، وهنالك دائرةٌ فيها طاقاتٌ لها أبوابٌ ، وفي طرفي الدائرة بازانِ من ذهب في طاستين من ذهبٍ ، ووراءهما بندقتان ، فعند انقضاءِ كلّ ساعة ينفتح فما البازين وتقع منهما البندقتان ، وكلّما سقطت بندقة انفتح بابٌ من أبواب تلك الطاقات . والباب مذهّبٌ فيصير حينَئذ مفضّضاً فتمضي ساعةٌ زمانيّة . وإذا وقعت البندقتان في الطاستين فإنّهما تذهبان إلى مواضعهما من نفسيهما أي بصورة تلقائيّة . ثمّ تطلع شموس من ذهب في سماء لازورديّة في ذلكَ الفلك مع طلوع الشمس الحقيقيّة . وتدور مع دورانها ، وتغيبُ مع غيوبتها . فإذا غابت الشمس وجاء الليل فهناكَ أقمار طالعة من ضوء خلفها ، وكلّما تكاملت ساعةٌ تكاملَ ذلكَ الضوء في دائرة القمر . ثمّ تبتدئ في الدائرة الأخرى إلى انقضاء الليل وطلوع الشمس فيعلم الناس بذلكَ أوقاتهم .

حديث في الطريق

كانَ الخونساري هو الآخر على عجلة من أمرهِ ، وقد قالَ لي إنّهُ يريد أن يراني الليلة في السوق ، وسألني إن كنتُ سأتركُ المدرسة في المساء وأذهبُ إلى السوق ، قلتُ لهُ بأني لا أعرف ،

ولكن لديّ رغبة أن أفعل هذا . قال إنّهُ يريد الحديث معي حول اختياري للخواجة الذي أدرس معه ، قلتُ لهُ من الناحية المبدئيّة أنا جئتُ للدراسة على يد الخواجة يعقوب ، وقد أوصاني والدي بذلكَ .

- والدك . . . عجيب . . . كنتُ أظنّكما أنتَ ووالدك من أتباع الخواجة عبّاس .

- نحن كذلكَ . . . وإن كنتُ لا أعرف جوهر الخلاف ، ولكن ما دخل المدرسة بهذا؟

- الخلاف الحاصل في المدرسة هو صورة عن الخلاف الحاصل في الطائفة . .فكلّ خواجة يمثّل ما يحدث في بغداد من خلاف ، مع اختلاف في المعجم والمنهج . .

- هل هنالك علاقة بين . .

- نعمْ . . نعمْ . . الخواجة السمرقندي هو صورة عن الخواجة سنان ، والكرخي صورة عن الخواجة عبّاس ، والنيساوري صورة عن الخواجة عماد الدين . .

- الخواجة عبّاس كانَ غامضاً . قلتُ لهُ هكذا كي أستدرجه في الحديث ، فقالَ لي بصورة ثابتة :

- كلّهم غامضون . .فيثاغورس غامض ، الزنجانيّ غامض ، الصفائيون كلّهم غامضون ، والخواجة عبّاس ليس الوحيد في أمر الغموض ، إدريس غامض ، وهو طبيب الروح والجسم ، على الرغم من أنّهُ يتكرّر بصفاته السرّانيّة عبْر المدارس بأشكال مختلفَة .

ثمَّ شـرح لي كـيـف كـانَ هو من أتبـاع الخـواجـة سنان ثمَّ انقلب عليهِ وذهب إلى الخواجة عبّاس ، وأفاض في شرحه عن الخواجة عبّاس ورؤيته لهُ ، قالَ إنّهُ تمظهرٌ للنبي إدريس الموجود في كلّ العصور . .

-هل تعتقد ذلكَ؟ قلت لهُ .

-نعمْ . . ما معنى إدريس ، قالَ بحماس ، أنّهُ هُرمس ، أنّهُ الحكيم العظيم المؤسِّس للمدنيّة ، ومخترع الكتابة ، والطبيب والعالم . .

-ولكن هل يمكن أن يكون في هذا العصر؟

-نعمْ . . إن حضورُه لم يغبْ عن كلّ إشعاع معرفي أو روحي .

صَمَتَ قليلاً ثمَّ أفاض :

-اسمع . . إنّهُ في كلّ عصر وفي كلّ مكان . لا تنس ذلكَ ، إنّهُ متأصّل في بغداد ، ولذا فهي مدينةٌ مقدسة؟

- . . .

- إنّها مدينةٌ مقدسةٌ لأنّ هنالك شيئاً عظيماً تأصّل في تعاليمها السرّانيّة ، وهذا ما تريدهُ الطائفة ، بغداد هي الاسم الظاهر ، وحقيقتها الباطنيّة تكمن في المعرفة الأسراريّة ، ولن تتطابق هاتان الحقيقتان إلا بالتّفتح الروحي وبالعلم والخبرة . وبمقدار ما نقول إن الفيثاغوريّة هي الهرمسيّة أو الإدريسيّة ، وما نراه في فيثاغوراس بوصفه «هُرمساً» ، يمكنك أن تقول إن بغداد

هي الاسم الظاهر للمدينة الفاضلة ، وهذا ما تريد تحقيقهُ الطائفة .

**

عانقني الخونساري ومضى ، وسرتُ سكرانَ ومنتشياً بالأفكار التي قالَها لي ، حتّى وصلتُ إلى قاعة كبيرة وواسعة ، تزيد على ثلث المساحة الكلّيّة للمدرسة ، وتلي الصحن من حيثُ الاتساع ، وهي عالية جداً ، دائريّة الشكل ، ومن فوقها قبّةٌ طابوقيّة جميلة . وأمامَها عدّة قاعات أخرى أصغر منها ، حوالي سبع قاعات ، ومعظم هذهِ القاعات ذات شكلٍ مستطيلٍ ، يتقدّمها رواق شاهق الارتفاع ، كما تحتوي المدرسة على حجراتٍ صغيرةٍ مطلة على الساحة الوسطيّة (الصحن) وهي مرتّبةٌ علىَ أربع مجموعات في الأركانَ الأربعة للبناية .

الوصول إلى القاعة

طوّفتُ البصر في أرجاء القاعةِ الكبيرة وكانَ فيها بضعةُ طلبةٍ ، كلّ واحد منهم يمسك بكتابهِ ويجلس متكئاً بظهره على عامودٍ ويقرأ بصمت . وسمعتُ صوتاً منغّماً لقراءة قرآن في إحدى القاعات ، وصوت شخص يتكلّم في قاعة أخرى ، وكانَ هنالك بغلٌ يحمل كتباً في الساحة يقوده أحد الخواجات ومن الواضح أنّهُ يذهب بهِ إلى خزانة المدرسة .

تقدمتُ من القاعة ، كانَتْ كبيرةً مفروشةً بالسجّاد ، وقد جلس الطلاّب فيها حلقة ، وكانَ الخواجة يعقوب السمرقندي

يجلس على تختٍ عالٍ ، في يده كتاب ، وعلى مقربة منه الريشة والمحبرة .

أجلتُ النظر بالطلاّب ، كانَوا مجاميع متنافرة ، خليطاً مشوشاً من الأعراق والهيئات ، فمنهم الصينيون ، ومنهم الفرس ، ومنهم الأروام ومنهم الهنود ، ومنهم العرب .

كلّهم ارتدوا الزيّ الموحّد لطلاّب مدرسة الحكمةِ ، وقد خلعوا ملابسهم القديمة ، من كانَ يرتدي الحرير ، ومن كانَ يرتدي الجلود كلّياً ويكسب رزقه برعي القطعان ، ومن كانَ يرتدي ملابس مالكي مراعي المواشي ، ومن كانَ يرتدي ملابس الحدّادين أو النجّارين ، ومن كانَ من العبيد الهاربين من المقرعة ، والماء المالح المسكوب على آثار السياط المسلوخة . جلس الجميع هنا بزيٍّ واحدٍ ، وبروحٍ واحدةٍ أيضاً .

**

تقدمتُ ، حتّى بانت صورته جليّة أمامَي ، كانَ يجلسُ على تختٍ ووراءه كتب شتّى من بينها شرح الإشارات والتنبيهات الذي كتبهُ أبو فخر الرازي عن كتاب ابن سينا ، والمباحث الشرقيّة وهو كتاب موسوعيٌّ على غرارِ كتاب ابن ملكا البغدادي : المعتبر في الحكمة ، وهو من أشهر كتبه ، وقد أودع فيهِ إنجازاته العلميّة كافة . وأمامَهُ كتب الرازي الأخرى مثل القانون في الطب والرسالة الفلكيّة .

صمت قليلاً ، وأشار لي مبتسماً ، أن أجلس أمامَهُ ، فخلعتُ حذائي ، وجلستُ متربّعا أمامَهُ ، وكنتُ الجالس

الوحيد دون زيٍّ موحّد ، وقد أشعرني هذا الأمر بالحرج قليلاً .

**

كانَ يتحدّث عن نفسهِ ، قالَ إنّهُ مذ أيّام صباهِ الأولى وقد استحوذتْ عليهِ فكرة خلق شيءٍ لم يكن من قبل ، وكانَت حداثة سنّهِ جعلتهُ يعتقد أن هذهِ المهمّة سهلة التنفيذ . فالموسيقى لم تكن تحتاج إلا إلى العود الذي يصنعه العوادون من الخشب . ولم يكن يعرف آنذاك أن الموسيقى أكثر تعقيداً من ذلكَ بكثير ، وأن ما هو محسوس صعب على التصوير بما هو مجرد ، فكيف لهُ أن يعزف شيئاً يدلُّ على شعاع الصباح مثلاً ، أي كيف يعبّر الصوت عن الصورة ، وتصبح هذهِ النغمات ألواناً؟

قالَ إنّهُ كانَ يشعر باليأس وهو يرى انعكاس الشمس على صفحة نهر دجلة ، حيثُ تتوهج الضفّة من بعيد كسبائك الذهب من خلال شقرة الشمس الهابطة عليها ، دون أن يستطيع أن يصوّر هذا بالأصوات .

**

في الواقع لم أكن أعرف أول الأمر إلى أين يريد أن يصل بمحاضرتهِ هذهِ ، وهو يستخدم كلمات بسيطة ، وأفكاراً سهلة ، إلى أن وصل إلى جوهر موضوعهِ ، كانَ يريد أنْ يقولَ إن للمعرفة صورتان ؛ صورة الظاهر وصورة الباطن ، والصورة الثانية يمكننا أن نستدلّ عليها من الأصوات أو من الحروف ، وهو بالتالي اقترب قليلاً من الخواجة عبّاس ، ولكنّهُ فارقهُ بالابتعاد

عن واسطة المعرفة ، فبدلا من الأرقام ، كانَت نسبة لهُ هي الحروف .

مع ذلكَ شعرتُ لحظتها كم صعبة هي حياة الخواجات؟

إنّها ليستْ سلسلةً من اللحظات المنسابة من الأحداث والتأمّلات ، بل هي بحر دائم الاضطراب ، وعاصفتهُ تهدر فيه على الدوام ولا تكاد تهدأ ، إنّها عاصفةُ عدم الرضا عن النفس ، والاندفاع العارم نحو الكمال . فما روح طائفتنا في صميمها؟

إنها بحثُ هؤلاء الخواجات الدائم عن إدراك الحقيقة الكبرى ، وهذِهِ الحقيقة تقع في بغداد ، وعليهم ومن خلال الجزئيّات الكثيرة والتّي يقع عليها الحسّ ؛ أن يطلقوا نظرياتهم ، فالفكرة الأساسيّة التّي جاءت بنا كلّنا تقريبا هنا هو هذا المزيج المتداخل بما هو جزئي ظاهر للعين بادٍ للحواس ، وما هو خفي مستعصٍ على إدراك الحواس ، ولكن في الوصول إلى المعرفة يمكن الارتقاء بالناس إلى السعادة ، وهذِهِ السعادة لا يمكنها أن تنوجد إلا في الأفكار ، وهذه الأفكار هي التي سترقّي بغداد ، ومن ثمّ تقدّم بغداد إشعاعها للمدن الأخرى .

كيف يمكن رسم المشاعر

كنتُ أستمعُ إلى الخواجة السمرقندي وأشعرُ بأريج خاصّ يفوح في الهواء المفعم برائحة الكتب القديمة والسخام الضَعيف المنبعث من القناديل .

كانَ هو يتحدث ، وأنا أتذكّر على صوته ما كنتُ أفكّرُ بهِ في بغداد ، أي كيف تتحوّل الإشارات والتلميحات في الموسيقى والرياضيّات والحروف إلى خلق عالم المدينة الفاضلة :

وميضُ النجوم في ليل بغداد ، بروزُ الخضرة النضرة في مراعيها ، وجوهُ الجواري الوضيئة رغم سواد الليل ، امحاءُ النور مع بريق الأرجوان والفضة ، اشتعالُ ألوان قوس قزح واختلاطها مع شآبيب الغيوث المتألقة ، وكلّ السحر المنظور لهُ بجبروتٍ وعظمةٍ ، قد أبرزتهُ بصورة رمزيّة صفحاتٌ طويلةٌ من قاموس بغداد ، مستندةً إلى ما ورد في كتب الخواجة جابر بن حيّان الكوفيّ ، والخواجة أبي نصر الفاربي ، والخواجة الكندي وكلّ ما صنعه خواجات بغداد من عمارةٍ وريازةٍ وفنٍّ ونقشٍ ، وكلّ هذا الخيال الذي انبثق من هذهِ المدينةِ المقدّسة ، ومن أجلِ هذا الإنسان الذي يعيش فيها ، دون أن يعرف أي شيء عن هذا الأمر ، وبدلاً من الارتقاء الروحي ، والصعود في سلّم الأبديّة ، نراه الآن وهو يعيش عيشةً فقيرةً ، كالحةً ، ومبتذلة .

كلمات الخواجة السمرقندي

هكذا كانَت كلماتُ الخواجة السمرقندي تنقلني إلى بغداد ، إلى مشهدِ الخواجة يحيى الواسطي وهو يرسم مخطوطةَ إخوان الصفا على ضوء شمعةٍ ترتعشُ على منضدة سوداء ، وضوؤها يكشف عن ثلاثة أساطينٍ من الطائفة هم البستيّ

والزنجانيّ والمهرجانيّ ، كانَ الخواجة الواسطي يرسمُ الكلمات ، يجعلُ من حروفها الصامتة أشكالاً وألواناً ، حتّى يمكنك أن تشمَّ لحظتها عطرَها الفوّاحَ ، وكانَ إلى جانبهِ أحّدُ الرسّامين العظام في بغداد اسمهُ الخواجة هبة الدين الكوفانيّ وهو من أولئك الذين تأثّروا بلوحات الواسطي ، كانَ هذا يرتل لهُ بصوته العذبِ صفحاتٍ طويلةٍ من الكتاب ، وكان الواسطي ينقل خطوطها على القماشة ويضعُ الألوان ، لقد نقل في تلك اللحظة تحفة الإخوان بلغةٍ مرئيةٍ ، رنّانة بشكل خاص ، رنانة على مشهد خريف بغداد الدافئ ، على خريف دجلة الذي كان يلمع ، وقد أحاطت بجانبيه الشوارع العريضة المزدحمة ، وقصور الأمراء .

**

كانَ الخواجة يعقوب السمرقندي يتابع أفكارهُ ، ويتحدّث ، قالَ :

- إذا قالَ الشاعر في الزهرة شعراً ، أو إذا رسمها مصوّر فنّان ، فهل يقف عندها محاكياً ورقة بورقة وعوداً بعود؟

ثمَّ استدرك :

- لا بل إنّهُ ليمزج بين خصائصها المميّزة الفريدة من جهة وبين ما توحي لهُ من المعاني التّي تكمن وراءها مما هو بطبيعته مفارق للحس .

ثمَّ قالَ : ما دمت قد سرحتَ مع الفنّان بوجدانك فيما وراء الزهرة المصورة ، فلا سدود عندئذ ولا حدود ، بل ستظل

غارقاً في بحر الوجدان حتّى ينتهي بك آخر الأمر إلى اللامتناهي واللامحدود ، إلى الحقّ الواحد الذي هو جوهر الوجود .

وهكذا بقيتُ أستمع لمحاضرته حتّى انتهتْ .

صراع وشقاق في مدرسة الحكمة

بعدَ نهاية الدرسِ ذهبتُ إلى الحلاّق ، لبستُ نعلي وتحركتُ خارجَ القاعة ، لم أتحدثْ مع أيّ طالب من الطلاّب ، كما أني لم أذهبْ إلى الخواجة يعقوب كي أحصل منهُ على ورقةٍ كي أرسلها للناظر ، وفي ظنّي أنّي عليّ أن أحضر محاضرات الخواجات الثلاث ، كي أقرر الخواجة الذي أريد التعلّم على يدِه ، بدلاً من اتباع نصيحة والدي .

عند وصولي من مكانَ قريب من الأروقة ، رأيت الحلاّق ، كنتُ أريد الذهاب للحصول على الزيّ الموحد وعلى الجراية التّي عليهِم أن يدفعوها لي ، ولكن قبل هذا قلت لأذهب للحلاق ، ومن ثمَّ أذهب للحمام ، فقد تعبت من السفر ، ولم أتمكن من الذهاب للحمام بالأمس .

دخلتُ . كانَ هُنالكَ طالبٌ مصريٌّ قد انتهى من حلاقة رأسهِ قبلي ، وقد ذهبَ إلى الحمّام ليستحمّ ، فأخذت سريعاً مكانَه ، وجلست على تخت خشبي مفروش بمفرش من الصوف أزرق ، وقد وقف الحلاق أمامي مباشرة ، فخلع عمامتي بيده ووضعها على طاولة قريبة ، وأخذ يجز شعري ، وبعدَ أن انتهى

تركتُ مكانَي لطالب شامي، وذهبت إلى حجرتي فأخذت ملابس نظيفة، ومشيت بضع خطوات ثمَّ ولجت الحمَّام.

**

استقبلني هناكَ شاب يرتدي وزرة وطاقية جلدية، حيثُ استلم الملابس عنّي وعلمها باسمي، إلى يمينهِ شابٌ آخر كانَ قد ناولني وزرة طويلة من القماش القطني، وسألني فيما إذا كنتُ أستخدمُ هذا الحمَّام أوّل مرّة، قلتُ لهُ بلى، فشرح لي كيفية استخدام الحمَّام، وطلب مني أن أتبعهُ، فلففتُ الوزرة حول جسمي، وسرتُ خلفهُ.

كنتُ تبعتهُ في ممرّ ضيّق طويل يقود إلى حجر متقابلة، ثمَّ دخلت حجرة الماء حيثُ أحاطت بي سحابة من بخار ساخن، تمددت وأخذ هذا الرجل يرميني بجردل الماء الساخن ويدلّكني بقوّة، وأنا على هذهِ الحال كأنّي منفصلٌ عن العالم، طائرٌ على جناح البهجةِ، بين سخونة الماء، وألم العظام، واللّذة المأخوذة من كليهما.

الطعام

بعدَ أن حصلتُ على الزيّ الموحّد، ذهبتُ إلى الأروقة، ارتديتهُ في الحجرة التّي منحوني إيّاها كحجرة خاصّة بي، وكنتُ مبتهجاً جداً. وفي الرواق ذاته تقع حجرة الخونساري، وهكذا صادفتهُ هناكَ، وكانَ لون عمامتهِ يختلف عن لون عمامتي، أمرٌ طبيعيّ فقد سبقني في المدرسة، وتمت مسارّرتهُ

بمعارفَ أكثر منّي ، وهكذا كانَ قد أطل عليّ من واحدة من حجر المجاورين في الأروقة ، ومن ثمَّ جاء ودخل حجرتي .

- هل حضرتَ درس السمرقندي؟ قالَ .

- نعم .

- كيف وجدتهُ؟

- لا يمكنني الحكم عليهِ الآن!

- حسنٌ ، لمَ لا تحضر دروس الخواجات الثلاثة كي تتمكنَ من اتخاذ قرار؟

- هذا ما فكّرتُ بهِ ، سأفعل ذلكَ حتماً .

- طيب هل تناولتَ الغداء؟

- لا . .

- حسن يمكننا الآن الذهاب للمطعم كي نتناول الغداء ، وبعدَ صلاة العصر ، يمكننا أن نذهب إلى درس الخواجة الكرخي في المختبر .

- أين يكون؟ سألتهُ .

- يقع قريباً من الإيوان الموضوعة فيه الساعة .

- حسن! قلت لهُ .

في الطريق عرفت من الخونساري أن الخواجة يعقوب السمرقندي مترجمٌ عن الهنديّة ، والخواجة علاء الدين مترجمٌ عن الفارسيّة ، والخواجة نور الدين النيسابوري مترجمٌ عن الإغريقيّة ، والخواجات الثلاثة متخصّصون بترجمة المخطوطات الكثيرة في المدرسة ، بل هنالكَ مجموعة خاصة بالنسخ

والنقل، ومجموعة أخرى خاصة بالحفظ والتوزيع. وكانَ مهمة النقلة والنساخين إصدار نسخ جديدة من كلّ كتاب. وكانَت المخطوطات بالآلاف في كلّ علم وفرع من فروع العلم، وكلّها ميسرة للاطلاع أو الاستعارة. وتتباهى الطائفة الخواجيّة بما لديها من مخطوطات نادرة وثمينة. وكانَ البعض منهم يسافر إلى أقصى بقاع الأرض لكي يحصل على نسخة من مخطوط نادر أو حديث. ويدفع بسخاء من أجل أي مخطوط جديد.

الغداء في المطعم

ذهبنا معاً إلى المطعم، كانَ الغداء في حجرة طويلة تقع بالتقابل مع مكتبة المدرسة الكبيرة مباشرة، ثمّة مجموعةٌ من طلاّب الخواجات جالسون على الطريقة السمرقنديّة، وهي التربّع أمامَ طاولةٍ خشبيّةٍ طويلةٍ ترتفعُ عن الأرض ثلاثةَ أشبار، وهي الطريقة ذاتهِا المتّبعة في مدارس بغداد، مثل المستنصريّة والنظاميّة.

كانَوا يتناولون طعام الغداء في هذهِ الحجرة الطويلة، وهم يرتدون أحزمتهم الصفر وعمائمهم القرمزيّة، وهو ما يميّز طلاّب المرحلة المنتهية في مدرسة الحكمةِ، لا سنّهم الأكبر ولحاهم التّي بدأت تخطُّ على وجوههم الشبابيّة فقطْ، إنّما ملابسهم المتميّزة أيضاً، وكانَت أقواس الحجرة الكبيرة المطليّة بلون أبيض محتضنة الطلاّب وخواجاتهم، فعلى طاولةٍ أخرى كانَ ثمّة بعض الخواجات في المدرسة وبعض طاقم المكتبة، والجميع

كانَ يتناول الحساءَ ذاته الذي يوزّعهُ الطهاة عليهِم بطاسات ومغرفات كبيرة يدورون بها على الجالسين .

**

صخبُ الطعام ، والنوافذُ الكبيرة التّي تسمحُ لأشعّة الشمسِ الذهبيّة بالدخول إلى المطعمِ بشكلٍ مائل ، صوتُ الملاعق الخشبيّة في الصحون ، وطنينُ بَعض الذّبابير الهائمة ، وحيثُ يخرج طبّاخ المدرسة حاملاً طاسَ الحساء الكبير بهدوءٍ ، ويلفُّ على الأساتذة والطلاّب ليضعَ في صحونهم شيئاً من الحساء واللّحمة ، بينما تنفرج أساريرُ الجالسين المتجهّمة جرّاء الدراسةِ والنقاشاتِ ، كلُّ هذا جعلني منتشياً ذلكَ اليوم وبقوّة ، وقد جلستُ على طرف المائدة المحاذية لمائدة الخواجات وهذا ما جعلني أرقبُهم عن قربٍ :

فهنالكَ الخواجة علاء الدين الكرخي ، بعينيهِ الحادّتين ولحيتهِ البيضاء القصيرةِ ، يجلس وهو يأكل بهدوء ولطيبة قلبهِ كانَ يرشدُ الطاهي ليضعَ المغرفة في الصحون الفارغة ، أما الخواجة يعقوب النحيف والبارز العظام يتعالى صوته مَرِحاً متداخلاً مع صوت المطقِ والمضغ الصادر من الخواجات والطلاّب ، أما الخواجة نور الدين النيسابوري فقد جلسَ وقد تراقصت عمامته على رأسه وهو يدخل في نقاش مع الخواجة بهاء الدين ، ناظر المكتبة ، ذي الرؤيّة الدنيويّة ، والذي كانَ يدفن وجهه في الصحن وكأنّه لا يسمع كلام الخواجة نور الدين .

**

بعدَ أن أنهينا طعام الغداء سرنا ، الخونساري وأنا- بضعَ خطوات خارجَ المطعم ، على مقربةٍ من الإيوان الذي يحملُ الساعةَ الكبيرةَ ، كانَت صلاةُ العصرِ قد حانتْ ، وتوجّه الجميعُ نحوَ المسجد ، وتبعناهُم ، حيثُ مررتُ بأرضٍ حرّة ، وفي الحال شممتُ رائحتها البريّة .

إنّها رائحةٌ قديمةٌ كانَت تتخمّر تحت الحرِّ ، كانت تتخمّر منذ زمن بعيد ، فجأةً شعرت بأن إيماني الذي كان حاداً وقويّاً ، لم يكنْ إيماناً وحسب ، إنّما معرفةٌ أيضاً ، إيمانٌ سخيٌّ يصعدُ من تراب هذهِ الأرض إلى الشمس ، إيمانٌ يسعى إلى لقاء المعرفة ، فأنا لم أقدم هُنا من أجل نفسي فقط ، إنما من أجل الحياة المحيطة بي ، فالحياة المحيطة بي -بعد تعرّفي على فكر هذه الطائفة-أخذتْ تكتسب معناها ، مثلما يكتسب الحديد الصدأ ، شعرت بها ذات مغزى بعد أنْ كانتْ باطلةً وعقيمةً ومن دون ماهيّة ، لقد علّمتنا مبادئ هذه الطائفة أنّ هنالكَ ما نهتمُّ بهِ على وجهِ الأرضِ ، ونسعى لمجدهِ ، ونراهُ حرّاً وأصيلاً .

إنّنا هنا من أجل أن نقرأ على أسارير من نحبّهُم الابتسامةَ الوضّاءةَ ، والرقّة التّي يشرقُ بها وجهُ الحبِّ ، وحياةَ النظام والاعتدال ، والخلاصَ من الفجور والخرائب ، وننظف القلوب التّي استحالت صخوراً ، والقسوةَ التّي تجرّدت من العدل الذي فرضهُ اللهُ على هذهِ الأرض . لسنا هنا من أجلِ عظمتنا نحن ، إنّما نحنُ هنا لنقاومَ الجورَ والخطأَ على هذه الأرض ، ونجعل الحياةَ البشريّةَ تنفلتُ من المصادفة والنسيان .

نحو محاضرة الخواجة علاء الدين

سرنا-هو وأنا- نحو محاضرة الخواجة علاء الدين الكرخيّ ، وقد قالَ لي إنّها في مختبر المدرسة ، ويطلقون عليهِ مختبر جابر ، ويقصدون جابر بن حيّانٍ الكوفيّ .

وقالَ لي الخونساري إن الخواجاتِ يقومون في هذا المختبر بتجارب التقطيرِ والتبخيرِ والترشيح والتبلورِ والتذويبِ والتصعيدِ والتكليسِ ، وتنقيةِ المعادن من الشوائبِ وتحضيرِ الصلْبِ ، وأصباغ الملابسِ والجلدِ والطلاءِ ، وصناعةِ الزجاج . وهُم في هذا يتّبعون مسيرةَ أشهر الكيميائيين وهو جابر بن حيّان . وقبل وصولنا للمختبر كنّا سمعنا صوتَ الخواجة علاء الدين من المختبر وهو يلقي محاضرتهُ عن الهُرمسيّة ، واستأذنّا الدخولَ منهُ فسمحَ لنا ، وسرنا قريباً منهُ ، أي في الصفّ الأوّل من الطلاّب تقريباً ، وجلسنا .

كانَ الباب مفتوحاً ، فتظهر منهُ فسحة المدرسة الأماميّة ، من الجهة اليمنى من الإيوان ، وفيها نافوراتٌ كثيراتٌ ، وهنالكَ طلبةٌ يجاسون حلقةً ، يحيطون أحَدَ الخواجات ، وأظنهُ الخواجة نور الدين النيسابوري ، أما الخواجة الكرخي فقد كانَ مستمراً في محاضرتهِ ، بلحيتهِ السوداء الكثّة ، وعينيهِ الواسعتين .

**

لقد تربّعتُ أمامهُ ، وعيناي على شفتيهِ . أخرجتُ من الزوّادة التّي كنتُ أحملها ، قرطاسي وريشتي ودواتي ، وأخذت أدوّن ما يقولهُ ، كانَ واقفاً ، وصوتهُ عميق كأنّهُ قادم من مكانٍ

بعيد ، وهُو يسترسل في قراءة العلاقة بين الهُرمسيّة وبعض علماء العرب الحرانيّين مثل ثابت بن قرّة ، وكانَ هذا أشهر أطبّاء بغداد ، وهو الذي ألف كتابًا بالسريانيّة عن تعاليم هُرمس .

وكانَ هنالكَ طالب واسمهُ محمد بن الضحّاك وهو شامي ، كانَ الوحيد الذي يداخل في محاضرة الخواجة ، وقد قالَ لهُ :

- إن هُرمس قد دخل إلى العرفان الإسلامي ، حيثُ موهِيَ بينهُ وبين النبيين أخنوخ وإدريس .

وقد عقّب عليهِ الخواجة الكرخي بأن هنالكَ عدّة هرامسة أقدمهُم النبي إدريس الذي عاش قبل الطوفان في مصر ، فعلَّم الكتابة وشيَّد الأهرام .

إلاّ أنّ الطالب قاطعهُ بأن السهروردي وابن سبعين لديهُم الكثير من المعرفة الهُرمسيّة .

قالَ لهُ :

- نعم وكانَ الكندي معجبا بهِ ، بحسب تلميذه السرخسي .

وفي هذهِ اللحظة تكلّم الخونساري ، قالَ لهُ إن ابن النديم في الفهرست يعد اثنين وعشرين مؤلفًا هُرمسيًا تُرجِمَت إلى العربيّة .

قالَ لهُ الخواجة مباشرةً :

- بلى . . بلى . . أنتَ على حق يا خونساري ، وأخرج من كيسهِ كتاباً وقالَ :

-هذا من أهم الكتب الهُرمسيّة . . .

-ما اسمهُ؟ قالَ أحد الطلاّب .

- كتاب سرّ الخليقة وصنعة الطبيعة الذي تُرجِمَ على يد مجهول منسوبًا إلى أولونيوس التّيانيّ . .

ثمّ استدرك الخونساري : فضلاً مؤلّف غاية الحكيم ، الذي يُعزى خطأً إلى مسلمة المجريطي ، وهُو يتضمّن ، إضافة إلى المعلومات العامة في الكهانة الفلكيّة للصابئة ، مبحثًا في الطبيعة لأرسطو .

**

كنتُ أنظر إلى الخواجة علاء الدين وهو بلحيته الكثة ، بعمامته الكبيرة التّي تشبهُ عمم التجّار الفرس ، بقفطانه الطويل ، وعينيه الصغيرتين اللماحتين ، وقد عرج في حديثه عن الإخوان ، وهذا ما كنتُ أريدهُ حقّاً ، الإخوان الذين يرتكزون في فلسفتهم على المبدأ العريق الذي يقول بأن الحكمة يمكن أن تحلّ بنزول ملاك أو تُنال بارتقاء روحيٍّ حتّى الإشراق الإلهيّ وتحقيق الطبيعة الكاملة أو الجوهر الروحانيّ :

ولكن من هو ملك الفلسفة الذي يقودنا إلى طريق الحكمة العظيمة ، والمدرسة العظيمة ، والمدينة العظيمة ، والإنسان الكامل؟

**

ذهبتُ في اليوم التالي إلى الخواجة نور الدين النيسابوري ، كانَ موجوداً في مرصد المدرسة ، وهو مختبرٌ عظيمٌ فيه قرطسون

لوزن الذهب ، واصطرلابٌ ، وآلةُ رصدٍ فلكيّة ضخمة تدار بقوّة دفع الماء ، وكانَت تبيّن كلّ النجوم فيّ السماء وتعكسها على مرآة كبيرة .

أما طلاّبهُ فكانَوا متجمعين في مربّع من الدكك والأعمدة ، وإلي جواره فسقيّة عظيمةٌ ، وعند الحوض أسماكٌ منحوتةٌ من الرخام يخرج الماء من أفواهها ، وفي الداخل ألواحٌ للنوافذ ، مصنوعةٌ من الزجاج ، وثمّة سلالمُ رخاميّةٌ ومرمرٌ وأرضيّةٌ من الفسيفساء .

**

كانَ الخواجة نور الدين مهندّساً بارعاً ، وقد برع بشقٍّ القنوات المائيّة ، ويقالُ إن بينهُ وبين الخواجة يعقوب مشاحنات كثيرة ، كانَ ذلكَ قبل عشرة أعوام ، وقد قام بتأليب السلطان السلجوقي على الخواجة يعقوب ، لا أحد يعرف ماذا قالَ لهُ ، غير أن الشرطة استولت ذلكَ الوقت على مكتبتهِ ، مكتبة الخواجة يعقوب ، وقد شقّ عليهِ الأمر كثيراً ، بل أغضبهُ وأحزنهُ أيضاً .

يقال إنهُ بقي مدّة عامين دون مكتبتهِ ، إلى أن حدث حادث شهير ، يسمونهُ هُنا حادث النيسابوري .

وحينَ سألت الخونساري ، فقد شرحَ لي الأمر كالتالي ، أن السلطان السلجوقي كانَ قد طلب من الخواجة نور الدين أن يشقّ قناةً صغيرةً إلى جانب نهر طبرستان ، غير أنهُ لم يفعلْ ذلكَ بنفسه ، وبدلاً من العمل بها كلّف خواجة آخر من

خواجات الطائفة ، وهوَ أبو معزٍّ الجهشياري ، ولكنَّ الأخيرَ ارتكبَ خطأً فادحاً في تحديد منسوبِ المياهِ في القناة ، وفشل في جعلها تمتلئُ بالماء للعمق المطلوب ، لأنَّها كانَت أعلى من النهر .

وبسرعة البرق وصل الخبر إلى السلطان ، وقيل لهُ إنّ في الإنشاء خطأً ما ، فغضبَ من الخواجة نور الدين ، وأقسم أن كانَ قد صحّ هذا الخبر الذي سمعهُ فإنّهُ سيقوم بصلبه على ضفّة القناة .

وعندما سمع الخواجة نور الدين بقرار الخليفة ارتعبَ بشدّة ، وهرع إلى الخواجة علاء الدين المقرّب من السلطان ذلكَ الوقت ليتدخل لصالحهِ ، غير أن الخواجة علاء الدين اشترطَ على الخواجة نور الدين أن يعيدَ كتبَ الخواجة يعقوب السمرقندي ، لكي يذهب إلى السلطان ويخبرهُ بأن لا خطأ في الإنشاء ، فقد كانَ الخواجة علاء الدين صديقاً ودوداً للخواجة يعقوب .

وفي الحال استجاب الخواجة نور الدين لهذا الشرط ، وقالَ الخواجة علاء الدين بأنهُ سوف يعلم السلطان السلجوقي بأنهُ لا يوجد أي خطأ في حفر القناة لأنّ نهر دجلة كانَ في ذروة ارتفاعه ، ولن يستطيع أن يلحظ أحدٌ الخطأ طيلة أربعة شهور .

بعدَ شهرين قتل السلطان السلجوقي ونجا الخواجة نور الدين من العقاب .

جلستُ في محاضرتهِ ، كانَ ذلكَ في الظهيرة ، وفضاء المدرسة مذهّب بالشمس ، وكانَت قطرات النور والألوان ترتعد على حافّة الأهداب ، وتهجمُ رائحة النباتات العطريّة العابقة على الأنوف .

كانَت محاضرتهُ عن علم الفلك ، وحينَ تحدّث عن الفيثاغوريين انتقد وجهة نظرهم القاضية بأن الأعداد الفرديّة إلهيّة ، والزوجيّة أرضيّة ، وقالَ إن منطقنا اليوم لا يقبل بمثل هذا الكلام .

غير أن أحد الطلاّب رد عليهِ من أنهُ لا ينظر إلى عمق ما يقول بهِ الفيثاغوريون من أن الثنائيّة كانَت الحالة غير الكاملة التّي وقع فيها أول كائن متجلٌ انفصل عن الأحديّة ، مما أدى إلى نشوء الدربين الصالح والطالح .

في الواقع كانَ يتكلّم بصورة هادئة ، غير أنهُ يؤكد في كلّ ما يقول بأن الظاهر هو الوسيلة الوحيدة لمعرفة الحقيقة ، وهذا القول لا يتلاءم مع تعاليم الطائفة ، مع ذلكَ أشاد بعمق بالدراسات السرّانيّة ، وقالَ إنهُ يؤمن بأن رمزيّة الأعداد تكتسب معنى خاصًا جدّاً ضمن منظور الإيمان . ولكنّهُ قالَ إن وجود الأعداد هُو إشارة إلى مظاهر الكون المعقدة والمتشابكة ، ولذلكَ يمكن اختصار الطريق الطويل واللانهائي للصدور بمسافة رمزيّة بين الواحد والعشرة . فالكون مادي وروحي في آنٍ واحد ، ومتضمَّن في التشكيلات العدديّة ، ظاهرة وباطنة ؛ وهذهِ كلّها

تتركز في العُشار الفيثاغوري . وتمثل العشرة تمام خلق الكون في صيرورة تطوُّره في قلب الصمت ، حيثُ تتمخّض النفس الروحيّة وتولد .

VII
خواجات المدرسة الثلاثة

كان عليّ تلكَ الأيّام أن أحدّد الخواجة الذي أريدُ التعلم على يديهِ ، وبالرغم من نصائح الخونساري باتباع الخواجة علاء الدين ، إلا أنّي اتبعتُ الخواجة يعقوب ، لا لأنّ والدي نصحني به ، ولكنّي حين قاربتهُ بخواجات بغداد ، وجدتهُ هو الوحيد الذي يجمعُ في شخصيّةٍ واحدة صفات الخواجات الثلاثة في بغداد ، أي رؤساء الطائفة ، وقد أخذَ منهم أفضلَ ما فيهم .

وأدركتُ من الأشهر الأولى من وجودي في المدرسة ، أنَّ للخواجة يعقوب مواهبَ يصعبُ استكناهها بسهولة ، صحيح أنَّ شخصيته من الخارج خدّاعةٌ ، فله هيئة شخصٍ عابث ، وهي قريبة من هذه الناحية من شخصية الخواجة سنانٍ ، ولكنَّهُ يقترب في روحانيته من الخواجة عبّاس ، وفي عمله الأخلاقي من الخواجة عماد الدين .

وقد تابعتهُ أثناء وجودي في مدرسة الحكمة أينما ذهب ، لا في مناظراتهِ وفي محاضراتهِ فقطْ ، إنّما رافقناه –الأسود ابن الدّهان وأنا– ولاسيّما بعد أن أصبحنا مساعدين لهُ ، في كلِّ مكانٍ ذهبَ إليهِ ، لقد ذهبنا معهُ في أماكن عديدة كان يعقد

فيها الدروس والمناظرات ، ورافقناهُ في عملهِ في البناء ، وساعدناهُ في الصناعة في مختبراتهِ ، وحضرنا جلساتهُ الموسيقيةَ ، وشهدنا مطارداتهُ الشعريّة التي اشتهر بها ، وكنّا على الدوام في جلساتهِ وأحاديثهِ مع ندمائهِ وخلاّنهِ .

في الواقع ، هذا هو عمل المساعد للأستاذ في مدارس المسلمين ، كما أنّ هذا الطالب سيكتسب الخبرة التي ستؤهّله لأَنْ يحلّ محلّ أستاذهِ ، فهو يتعلّم لا العلم وحدهُ ، إنّما تعليم العلم وتقديمه أيضاً ، وسيكتسب من العلم أضعاف الطّلاب الذين يكتفون بحضور المحاضرات فقطْ ، فهي مدخل للمساعد أن يكون معروفاً بين العلماء أيضاً .

من حياة الخواجة يعقوب

وقد عرفتُ من الأسود ابن الدهان الكثيرَ عن حياة الخواجة يعقوب ، والكثير عن نشأته ، وهذه المعرفة جعلتني أكثر فهماً لهُ ، ولطبيعة أفكارهِ ، وهو أمرٌ طبيعيٌّ أيضاً ذلك أن طبيعة حياة الخواجة ستؤثّر حتْماً على نمط تفكيره وعلى اختياراته ، فحياة الخواجة يعقوب كانت ذات طابع مختلفٍ كليّاً عن مجايليهِ ، وربّما جاءَ اختلافهُ الحقيقي عن الآخرين من حياة مختلفة على نحوٍ شديد . فهو على العكس من الآخرين لم يعشْ حياةً وادعةً ومستقرّةً ، صحيح كان هو ابن أحد البنّائين الكبار ، وكذلك كان جدّهُ ، إلاّ أنّ أمّهُ كانت أمةً يجهل الناسُ أصولَها ، كانت سبيّةً اشتراها والده من تاجرٍ

هنديّ ، كان ماراً بسمرقند ، غيرَ أنّها مرضتْ وفقدتْ بصرها وهي شابّة ، وكان يعقوب طفلاً ، وقد بقي يرعاها حتّى وفاتها ، وقد تأثّر بهذا أشدّ التأثّر .

**

وفي صباه بدأتْ تظهر مواهبهُ المتعدّدة في الرسم والموسيقى والرياضيّات ، وشعر بأنّ مدينةً مثل سمرقند ذلك الوقت ضيّقةٌ على طموحاتهِ ، فعقد العزم على الرحيل إلى بغداد ، وما إن وصل هناك حتّى التحق بالمدارس العلميّة والحلقات الفلسفيّة فيها ، وكانَت المدرسةُ المستنصريّةُ هي محطتهُ الأولى ، وهناك تعرّف على الخواجة سنان ، وأصبحا كلاهما مساعدين للخواجة ناصر بن سعيد التيّاني ، وهو نقّاشٌ شهيرٌ في بغداد ، وقد عرف الخواجة يعقوب مع هذا الخواجة الطاعن في السنّ حياةً غنيّة في المعرفة ، وقد تنقّل بين مدارس فكرية متعدّدة ، فقد أصبح أشعرياً ثمّ معتزليّاً ، ثم التحق بإخوان الصفا ، وبعد ذلك عمل مع الخواجة سنان على الرسائل طويلاً ، ثم أصبحت الرسائل مدخلاً لهما إلى الفرقة الخواجيّة ، ولاسيّما بعد تعرّفهما على الخواجة عماد الدين والخواجة عبّاس .

في تلك الفترة من حياتهِ ، انطلق بأسفارٍ فكريّة عدّها شفاءً لروحه ، وانغمس بحياة فكريّة لا تنضب ، ورافق الخواجات الكبار من رؤساء الطائفة ؛ إذ رأى في الطائفة الخواجيّة انفصالاً عقليّاً وروحياً عن الطوائف الأخرى والمذاهب

التي كانت بعيدةً عن الفلسفة ، فكانَت هذه الأفكار التي نهل منها هي شفاء روحه الهائمة والمضطربة . وكان إيمانه بالمثل والقيم العظيمة ، والتقدّم الأخلاقيّ ، وإمكانيّة ارتقاء الإنسان ، وإنجازه لكمالهِ ، هو الذي جعله يكرّس كلّ حياته لخدمة الطائفة حتّى وقَع عليه الاختيار أن يكون معلّماً في مدرسة الحكمة في طبرستان .

**

وفي طريق عودتهِ من بغداد إلى طبرستان فعلَ ما فعلهُ والدهُ ، فقد صادف تاجراً هنديّا وبرفقته سبيّةٌ حبشيّةٌ ، وقد اشتراها منهُ ، وأعتقها وتزوّجها ، وقطن في حيٍّ قريبٍ من مدرسة الحكمة ، هكذا جاء إلى المدرسة وعمل بها ، أما الخلاف الوحيد الذي قاده مع بعض الخواجات هنا فهو لسبب تقديسه للجمال المحسوس ، وإضفائه عليهِ بعداً متعالياً ، وكان أول من دعا إلى امتداح الأحاسيس البشريّة ، وعدم التنكّر لها ، واستبعاد أيّة إمكانيّة للنفاق تنشأ داخل ملكوت النظام المعرفي الروحي ، الذي يرى في الانسياق وراء الأحاسيس البشريّة ، عيوباً أخلاقيّة .

ومرة كنّا في درس الموسيقى ، وكان يجرّبُ لحناً على العود ، عزف قليلاً ثمَّ قالَ إن الكون هو جوهرٌ واحدٌ متّصلٌ لا تجزئة فيه ولا تباين . وبعدَ برهة كنتُ التفتُّ إليهِ ، وقبلَ أن أجرب اللّحن الذي طلب منّي استعادتهُ ، سألتهُ :

ولكن أين عسانا أن نوجّه النظر لنرى هذا الجوهر؟

قالَ : إنك تلتمسهُ في هذ اللحن ، وهو يشير إلى آلة العود التّي في يدي .

- وتجدهُ في الزهرة وهو يشيرُ إلى حديقة المدرسة . وتجدهُ في النهر ، وهو يشير إلى النافذة . . وفي كلّ ما يحيط بك من مخلوقات الله ، وإذا ركّزتَ انتباهك في جزءٍ صغيرٍ من كلّ شي من هذهِ الأشياء ، فِي كلّ جزئيّة مهما كانَت صَغيرةً ، فإنك سوف تستشفُّ وراءها روح الكون الواحد .

ثمَّ صمتَ قليلاً متفكراً وقالَ :

أتستطيع أن تجرّد نفسكَ عن هذا اللّحن مثلاً ، أو عن جمال الطائر وأنتَ تتأمّل بهِ ، أو عن أيّة جزيئةٍ من جزيئات الفنّ الذي ننتجهُ؟

صمتُّ قليلاً أمامهُ وقلتُ لهُ بشكل قاطع : لا .

وجودي في مدرسة الحكمةِ

لقد شعرتُ بأنّ وجودي في مدرسة الحكمة في طبرستان هو نوعٌ من التطهّر ، أو كما قال الخواجة نور الدين في إحدى محاضراتهِ إنّ العلمَ يغسلُ القلبَ من قذارةِ الحياة ، ويطهّرهُ من الدنس الذي يعلقُ بهِ ، ففي العلمِ تتغير النفوس والأبدان ، وهذا ما حصل معي على الأقلّ ، فقَد وجدتُ نفسي قد تغيّرتُ كثيراً ، لقد تركتُ الموجودَ والتحمتُ بالوجود ، وكانَ اكتشاف المعرفةِ بالنسبة لي مع هؤلاء الخواجات الثلاثة هو نوع من الولوج الصوفي والالتحام بأكمل وجود ، مؤمناً بأن عالماً خفيّاً

كـامـلاً وتاماً ، مطهّراً ونقـيّـاً يرقـد خلف المظاهر القـذرة والملوّثة للعالم الظاهر .

وكـانَ عليٌّ الوصـول إلى هذا العـالم عـبـر الفكر ، ومن هنا جاءت المناظرات بين الخواجات الثلاثة ، هو كيف يتمُّ الوصول إلى الحقيقة :

كان الخواجةُ يعقوبُ أقربَ إلى تفضيل المعرفة البيانيّة ، وكان الخواجة نور الدين أقرب إلى تفضيل المعرفة البرهانيّة ، وكان الخواجة علاء الدين أقرب إلى تفضيل المعرفة العرفانيّة . وبين العرفان والبرهان والبيان كنا نلجُ -نحن طلاّب مدرسةِ الحكمةِ في طبرستان- عالماً جديداً من الأفكار ، لقد أصبح هذا الفكرُ رؤيا وسحراً واختراقاً واحتراقاً وتوهّجاً ونفاذاً إلى العالم النقيّ ، وهو عالم الجمال الحقيقيّ . . .

الأيام الأخيرة في مدرسة الحكمة

هكذا أمضيتُ الأعوامَ الثلاثةَ في مدرسةِ الحكمةِ ، وقد تحولتْ إلى ساحةٍ يقامُ عليها الجدالُ والنقاشُ ، وإلى ملعبٍ يتبارى فيه اللاعبون الكبار : الخواجات . ويتبعهُم اللاعبون الصغار : الطلاّب . حيثُ يحيي الخواجاتُ الثلاثة الجدلَ والنقاشَ بعدَ المحاضرات وحلقات الدرس مباشرة ، وفي الغالب بعد صلاة العصر ، حيث يتجّمع الجميعُ في الفسحةِ الكائنة أمام الساعةِ الكبيرةِ ، قبالة المطعم ، ويتحوّل هذا المهرجان الطلق إلى ساحة لتباري الأفكار بحريّة كاملة .

ويمكنني أن أقول بأني قد شعرتُ بالحريّة الفكريّة الحقيقيّة هنا في طبرستان، أكثر مما شعرتُ بها في بغداد، أو في أيِّ مكانٍ آخر، لقد كانت الأفكارُ تنبعُ من فيْضِ المعرفة المطلق، أليس اللهُ هو حريّة عظيمة؟ حريّةً مطلقةً، ونحن نكسبُ منها بعض حريّتنا، وبعض الطاقة القادمة من روح الأرواح، هذه

الطاقة التّي هي جوهرٌ، وعلمٌ، وعرفانٌ، وذوقٌ، إنّها حريّة لا يتجلى الوجود من دونها.

**

وربّما للحالة السياسيّة هنا شأنٌ كبيرٌ في هذا الأمرِ، فهذا المكانُ بعيدٌ عن مصادر السلطات الرسميّة، ولاسيّما في بغداد، التي هي مركزُ الخلافةِ والوزارةِ والقضاءِ، وهي عينُ الشرطةِ والحرسِ السلطانيّ، كما أنّها ساحةٌ لتنافسِ الطوائف والمذاهب والمدارس الفكريّة والفلسفيّة، وهي أرضُ صراعٍ حقيقيٍّ بين معتزلة وأشاعرة، وفلاسفة وكلاميين. وسيكونُ وجودها من دون شكٍّ فرصة لتمكين أعدائها منها.

وهكذا فإن وجودنا هنا بعيدون عن الرقابة التي كانت تلاحقنا في بغداد، هي واسطة لتمتّعنا بحياةٍ فريدةٍ، حياةٍ حرّةٍ وأصيلةٍ، فالعامّة في طبرستان من عربٍ وموالٍ وفرسٍ وتركمان لا تبالي بهذه الأفكار المعقّدة، ولا ترى فيها فائدة أبداً. كما أنَّ السلطات هنا لا همّ لها سوى جمع الضرائب لتدفعها لبيت المال في بغداد، أما الشرطة فهم مشغولون بتأمين طريق الحجّ والتجارة من اللصوص وقطّاع الطرق الفقراء، وقد ولغ صاحب

الجيش في محاربة الفرقة الحشيشية المتحصّنة ، والجماعة المحيطة بالحسن الصبّاح في قلعة ألموت القريبة من طبرستان ، وهكذا كنّا نعيش أكثر أيّام العمر بهاءً ، وربّما هي أكثر أيّام الخواجيّة بهاءً قبل أن تتنبّه السلطات للطائفة في بغداد وتعدّها خطراً عليها .

ولهذهِ لحريّة الفكريّة والتسامح مع الأفكار ، والتي تمتّعت بها الطائفة الفضلُ في تمكين الخواجات الثلاثة لا من عقد نقاشاتهم وسجالاتهم الفكريّة والعلميّة والأدبيّة داخل مدرسة الحكمة فقطْ ، إنما حتّى في نقلها إلى خارج المدرسةِ أيضاً ، وهو أمرٌ نادر الحدوث ذلك الوقتِ ، فقد تعدّت هذه المناظراتُ المدرسةَ وساحتها وحلقاتها الدراسيّة لتكونَ في أحد شوارع طبرستان ، أو في السوق المقابل للجامع ، وهو الجامع الرئيس في المدينة ، ولاسيّما بعد صلاة الجمعة ، وقد تستمرُّ هذه النقاشات حتّى المساء ، ليكملُها الطلاّبُ ، فيما بعدُ ، في الأروقة ، أيّ في السكن ، حيثُ يستكملونَ الجدال فيما بينهم ، وكلٌ فريقٍ منهم يتحلّقُ حول فكرةِ خواجةٍ من الخواجات .

وما أتذكّرهُ من هذه النقاشات التي كانت تجري في الشارع ، هو الجدالُ الذي حدثَ آخر يوم جمعة من وجودي في مدرسة الحكمة في طبرستان .

خرجتُ من المدرسة ومشيتُ في الشارع الرئيس في المدينة ، ذاهباً لملقى الأسود ابن الدهان الذي قالَ لي إنّهُ سيقضي الظهيرةَ في سوق طبرستان ، وقال لي أنّهُ يمكننا أن نلتقي هناكَ ، في المدينة لا في المدرسةِ ، بعد صلاةِ الجمعة .

كانَ السوقُ مكتظّاً بالنّاس ، ثمّة دكاكينُ متعدّدةٌ وأغطيةٌ ممدودةٌ لدرء الشمس ، وعند مدخل البازار رجلٌ عجوزٌ في دكّان من ألواح خشبيّة ، يعمل وهو جالس القرفصاء فوق نوع من التخوت العاليّة محاطاً بالجلود ، وكانَ يغرس بمطرقة حديّديّة صغيرةٍ المساميرَ الدقيقةَ في نعلٍ . ففيما توقفّتُ أتفرّج عليهِ سألني :

« هل تودُّ شيئاً . . .»

سكتُّ ، كنتُ أريدُ قولَ شيءٍ ما ، ولكن لا أعرف ما هو ، كنتُ في واقع الأمر منتشياً ومخدّراً بالنقاش الصاخب قبل يوم في المدرسة ، وهذا هو الذي يجعلني أصمتُ عن كلّ ما يحيط بي ، وفضلاً عن سكْر المعرفة ، كنتُ سعيداً أن أعرف أن هذا النقاشات الصاخبة هي صدى للنقاشات التي بدأها الخواجات الثلاثة في بغداد ، وهُم رؤساء الطائفة . ثمّ ذهبتُ عن هذا الرجل ، دونَ أن أكلّمهُ ، أو أنطقَ بأيّ شيءٍ أمامهُ ، حيثُ بقي الحذّاء ساكناً ومطرقتهُ مرفوعة . ثمّ صاح بي قائلاً شيئاً لم أفهمهُ ، مما جعل الناس تضحك .

**

كانَ مسجد طبرستان كبيراً جدّاً ، تلتحقُ بهِ مكتباتٌ عامّة ضخمةٌ ، وفي الشارع ذاته ثمَّة ديوان للحكومة ، وحمّامٌ ، ومطعمٌ للفقراء ، وخانٌ للمسافرين ، وهنالكَ خانقاهات وتكايا مجانيّةٌ للصوفيّة واليتامى والأرامل والفقراء ، وهُنالكَ أيضاً أسبلةٌ لتقديم المياه للشربِ بالشوارع ، وبيمارستانات تقدّم خدمةَ العلاج والدواء والغذاء ومساعدة أسر المرضى .

كانَت الناسُ في الشوارع مجاميعَ متنافرةً ، كانَوا خليطاً مشوّشاً من الأعراق والخلفياتِ والحرفِ . فمنهُم بيضٌ روميون يرتدونَ ملابسَ زاهيَّةً ، ومنهُم رعاةٌ ومالكو مواش ، ومنهُم تجّارٌ بغداديون أو شاميّون أو مصريّون ، وهُنالكَ جوار خلاسيّات يعملنَ في مزارع الدهاقنة الفرس ، وهُنالكَ عربٌ ومزارعون وبزّازون ، وخلفهُم عبيدهُم يحملون لهُم المظلاتِ التّي تقيهُم من الشمس .

**

من بعيدٍ رأيتُ الأسودَ بن الدهان وهو يقفُ على مقربةٍ من الخواجة يعقوب ، وهُنالكَ بضعةٌ من طلاّب مدرسة الحكمةِ ، وكانَ الفيلسوف أبو مخلّد يحملُ كيسَ الكتب معهُ ، وعلى مقربةٍ منهُ الخواجة علاء الدين واقفاً وهو يتطلّع إلى الحياة الصاخبةِ من حوله ، وقد كانا في جدالٍ ونقاشٍ مسامرين .

صاح بي أبو مخلد أول الأمر :

- أهلاً بابن البها خوجة!

- أهلاً بك يا سيّدي!

ثمَّ سلّمتُ على الجميع وصافحتهُم ، ووقفتُ مع وقفتهم ، توقفوا قليلاً ثم استأنف الخواجة علاء الدين كلامهُ للخواجة يعقوب :

«على الحاكم لا أن يحارب في الدفاع عن مملكة المسلمين فقط ، ولكن عليه الفوز بحسن الإدارة في ملكه ، وأن يتّبع الحكمةَ في الابتعاد عن أنواع الفساد ، وأن يقوم بنشرِ العدلِ في بقاعِ الأرضِ . وسنّ القوانين لحماية الضعاف ، وتخفيف مصائبَ الأرقاء ، وأن يعيّن ذاته وصيّاً على الأيتام ، وأن يمنع الظلمَ عن الولايات» .

قال الخواجة علاء الدين : «نعم ، أنا معكَ في هذا ، أن تكون هنالك مدينة فاضلة يجب أن تمتاز بالخير والسعادة والحقّ» .

قاله له الخواجة يعقوب ، أنا تكلمت لك عن بلاد اليونان وفيها مذهب المشككين وزعيمهم كارنياديس الذي بالغ في التشكيك إلى درجة القول بعدم التأكد من العلم بشيء على الإطلاق . وهذا قول قديم سبقه إليه ارسطفن القوريني أو الرفني الذي قال إن العلم بالحوادث إنما يصلنا عن طريق الإحساس وهو نتيجة التأثر بالأمور الخارجة عنّا ، ولما كان الإحساس لا يشبه تلك الأمور الخارجة حتماً فلا يمكن أن نعلم الأمور الخارجة علم اليقين ، وكان همهم محاربة فلسفة اللذائذ الأفيقورسية ، ويمكن القول بأنهم كانوا فلاسفة وسطا بين

الرواقيين والأفيقورسيين . وقال القفطي «إن شيعة افيقورس ويسمون أصحاب اللذة لأنهم كانوا يرون الغرض المقصود إليه في تعلم الفلسفة اللذة التابعة لمعرفتها» وأنت تتبعهم في هذا .

ثم انبرى الخواجة علاء الدين إلى الخواجة يعقوب وقال له :

- هل أنتَ تتأمل العالم ، وأنتَ وسط السوق؟

- التأمّل لا يكون إلا وسط الناس . . . قالَ الخواجة يعقوب مستنكراً .

- هكذا يمكن للخواجة أن يتأمل وهو وسط الخضروات في السوق . .

هذهِ الجملة جعلت الخواجة علاء الدين يضحك ويستهزئ .

- أنت بين الخضراوات . .هل تتأمل فيها؟

ثمَّ أخذا يتناقشان وقد تحركا من الظلِّ الذي كانَا واقفين تحتهُ ، ظلِّ المسجد واندفعا في العمقِ ، واندفعنا نحن وراءهما إلى عمق السوق .

هُناكَ يمكنك أن تكتشف أنهُما على حدّي نقيض ، كنتُ شعرتُ بالفارق لحظتها ، واحد يتأمل وسط الحياة ، حيثُ لا تكون الحياة إلا أداة للتأمل ، والآخر كانَ يريد أن يقفز فوق الحياة ، كانَ يريد أن يذهب في الهُناكَ ، في عالم ما وراء العالم . لا بد أنهُ ناقشهُ في هذا المعنى ذات يوم ، حيثُ بدا النقاش على سابق ، وكلّ واحد منهُما أبدى رأياً مختلفاً ، مع

أن الواقعة واحدة ، فالعالم وخارج العالم هذا هو الفرق بينهُما . وحينَ وصلنا ضفة النهر ، كانَا يواصلان النقاش ، حيثُ افترق الفيلسوف أبو مخلّد وودعهما ، ونحن نتزاحم نريد أن نسمع ما يقولاهُ ، كنتُ ألتقط الكلمات بصعوبة ، وأنا أمدّ رأسي بين أكتافهما ، لكي أسمع بشكل أحسن ، وكذلكَ كانَ الأسود والخونساري والآخرون يفعلون الشيء ذاتهُ ، كنا نتزاحم لنعرف ما يقولاهُ ، وما يتناقشان من أجله ، كانَ فضول المعرفة يدفع بنا نحوهُما ، ونحن نضبط خطواتنا على خطواتهما وهُما يسيران ، ويتناقشان عن التأمّل ، يا تراهُ أين يكون في العالم أم خارج العالم؟

كانَ الخواجة علاء الدين يعتقد أن الفكرة تأتي من خارج العالم ونحكم بها العالم ، الجمال هو شيء قادم من عالم الوراء ، من عالم وراء العالم ، بينما كانَ الخواجة يعقوب يعتقد أن الجمال أمرهُ نسبي ، ما نراهُ جمالاً يراهُ الآخر شيئاً آخر ، وعليهِ حريٌّ أن نستقي قيمنا الجماليّة من العالم الذي نحن فيه ، من الركام والروائح والأشياء الموجودة ، علينا أن نترك العالم يصنع نفسهُ .

وهذا الاختلاف وارد بالنظر للحياتين المختلفتين اللتين حاز عليهما كلّ واحدٍ منهما .

لقد كان الخَواجة علاء الدين يلَّقب بحكيم بخارى ، وأطلق عليه الناسُ ملك الحكمة ، لأنّهُ كان سليل ابن سينا وهو مثلهُ فلكيٌّ وكيماويٌّ وشاعرٌ ، وقد تنبّأ لهُ الخواجةُ عبّاس

بالعبقريّة ، كانَ ينهلُ من سلطان العارفين صاحب الفكرة الجوهريّة للتصوف ، ودروسهُ الممتعة طبقت الآفاق ، حيثُ يأتيها الناس من كلّ مكان لتستمعَ إلى مجادلاتهِ في معنى الوجود والموجود على ألسنة أهل الجدل ، جدل العلم والعرفان ، جدل الذوق في النثر والشعر . وكان على العكس من الخواجة يعقوب يرى أن العالم لا يمكن النفاذ إليه إلا عبر لغةٍ رياضيّة ، أرقام ، وحروف ، كانَ يشعر أن الالتحام بالعالم يتم عبر مغامرة الرقم واللغة الغنوصية المستغلقة على العامة . هو رجل لا ينسى ، يؤثر على جميع الخواجات المحيطين بهِ سواء في مجلس الخواجات أو مجلس الحكماء ، أو من كانَ من العاملين في شؤون الفرقة ذلكَ الوقت ، وكنتُ أتذكر ذلكَ جيداً ، أتذكر صورتهُ التي لا يمكن أن تمحي من ذاكرة أي خواجة من خواجاتنا ، عيناهُ ، ريشتهُ الصغيرة التي يحملها في جيبهِ ، ابتسامتهُ ، تذمرهُ ، وأقوال الرمزيّة والعميقة عن بغداد ، عن دجلة ، عن إخوان الصفا ، عن ابن سينا ، عن جابر بن حيان الكوفي ، ولا يتلاشى أي شيء من شخصيته ، إنهُ يؤكد ويضع شخصيتهُ في المكان الذي يراها فيه .

أما الخواجة يعقوب ، فقد ابتعد عن الطلاّب شيئاً فشيئاً ، وربّما ابتعد عنهُ كثيرون أيضاً ، وهذهِ الوحدة قد تحولت مع الوقت إلى ازدراء متعالٍ من قبلهِ ، بل ربّما خيّل إليه أنهُ قد أصبحَ فوق مستوى الكلّ ، وأنهُ لم يعد في حاجة إلى أن يتلقى عن الآخرين درساً أو تجربة ، لأنّهُ توهّم في نفسه أنهُ قد عانى

كلّ التجارب ، وأنهُ عاش طويلاً في عالم الأحزان ، وتعمّق في الحياة حتى القاع بالأفعال لا بالسنوات ، حتى لم يعد يدهشه شيء ، ولم يعد الأدب أو الفلسفة أو الفنّ أو الطموح أو الكفاح تصيب قلبهُ ، وهكذا قد استسلم إلى نصل «الصمت الحاد» ؛ ولاذ حينئذ بقلعة من الكبرياء المتمرّدة ؛ مما يشيع في نفسه الهدوء البارد الذي هو أقرب ما يكون إلى اليأس .

العودة إلى بغداد

حين انتهتْ أيّامُ الدراسةِ في مدرسةِ الحكمةِ في طبرستان ، حصلتُ على لقبِ الخواجة ، وآخر يوم في المدرسةِ كان يومُ القسمِ ، وتقليد الرتبةِ ، وارتداء العمامةِ القرمزيّة ، إشارة تحصيل العلومِ والحكمة الأوليّة ، وأقسمتُ أمام الخواجات بالترقّي بالنفسِ ، والارتفاع بالأخلاقِ ، والدفاع عن الحقّ ، وتحصيل العلوم والمعارف الفلسفيّة ، وكانَ فرحي عظيماً ، وقد قضينا يوماً رائعاً في التجوّل في طبرستان ، كآخر يوم لنا في هذه المدينة العظيمة ، وكنت اتفقت مع قافلة للمغادرة في الصباح .

**

وكنت غادرت في الصباح الباكر في قافلة مارّة في بغداد ومتجهة إلى مكّة ، وعلى مقربة من بغداد كنت انفصلت عن هذه القافلة والتحقتُ بقافلة أخرى تمرّ ببغدادَ وتتجه إلى

دمشق ، وكنت وصلتُ على ظهر واحدةٍ من جمالها مساءً ، وانفصلتُ عنها على مقربةٍ من الجسرِ ، بينما سارت القافلةُ محاذيةً للنهر شمالاً ، فودّعتُ أهلها وانعطفتُ صوب درب الدينار .

الجزء الثاني

مخطوطاتٌ سريّةٌ خواجاتٌ وفقهاء

الفصل الأول

وصول الرسالة الثالثة والخمسين

من رسائل إخوان الصفا

I

الحياة في بغداد وبدء الأزمة

بعدَ وصولي إلى بغداد ، وقبل العثورِ على الرسالةِ الثالثة والخمسين والتي حفظتْها لنا لوحاتُ الرسام يحيى الواسطي كنتُ انتظمتُ بالعملِ السرّي للطائفة ، وكرّستُ حياتي هُناكَ لتحصيلِ المعارف والعلوم عند طريقِ الأسرار ، وكنتُ سعيداً مع زوجتي سميّة وجاريتي جلّنار ، إذ كنّا نقطنُ في منزلنا بعد وفاة والدي ، وبعدَ تفرق إخوتي وأخواتي .

لقد واصلتُ حياتي في المنزلِ ذاته الذي كان يستقبلُ الخواجات ليلاً من أجل كتابة القاموس ، وفي المنزل الذي شهدَ منذ أيّام والدي أعظمَ النقاشات والسجالات من أجل تدعيم الطائفة وتحقيق أهدافها في خدمة المدينة الفاضلة ، وفي خدمة دستورها ، وهو قاموس بغداد ، وكنتُ أتناغم روحيّاً وفكريّاً مع أعضاء الطائفة ، ذلكَ أن الطائفة لا تتكوّن من الأعضاء والمبادئ الفكريّة البحتة التي يمكن أن نرى أيّ طائفةٍ تنتظمُ حولها ، إنما تتكوّن كذلكَ من هذا الفضاء الحسّيّ والنفسيّ الذي يجعلها تتصفُ بإيقاع متماثل ، وتركيبةٍ من التلوينات المتناغمةِ ، والتي تنشأُ كما هو التناغمُ في الموسيقى بين الأصواتِ المتعددة .

إنّ طائفتنا هي ضمٌّ لآلاتٍ موسيقيّةٍ في عزفٍ مشترك . أمّا الروحُ فهي العنصرُ الهامُّ فيها ، ولا شكّ ، فلا يمكنُ لهذهِ الطائفة أن تضبطَ إيقاعها الواحدَ وتناغمها الواحدَ من دون هذهِ الامتزاجات العظيمة والتّي حدثتْ عبر المجاهدة الفكريّة والروحيّةِ لجميع أعضائها ، ولا يمكن من جهةٍ أخرى أن نهملَ هذهِ الضروبَ الحسيّةَ التّي آمنتْ بها طائفتُنا ، فالطاقة الروحيّةُ لا يمكنها أن تكونَ هي الوحيدة في جذبِ وصناعةِ هذهِ القوّة الجماعيّة إنّما هنالكَ الطاقةُ الحسيّة ، وهي جزءٌ من المميّزات الخارجيّة ، كالزيّ الذي كنّا نرتديه ، والرموز اللغويّة الحروفيّة والرقميّة التي كنّا نستخدمُها فيما بيننا ، ذلك أن هذهِ المميّزات الخارجيّة الحسيّة تصنعُ رباطاً قويّاً بين أعضاء التنظيم حينَ يتذوقونها على النحوِ ذاته ، ويعيشونها بالصورةِ نفسها ، ويكادُ المرءُ يعتقد حسب الظواهر أنّ هذه المميّزات الشكليّة هي للتأثير العالي الذي يصنعهُ التدرّج في الرموز والألوان على الوحدةِ الفكريّةِ والنفسيّةِ للطائفةِ ، فتصبح مثل الدائرة حيث أعضاؤها من نسيج تشكلها ومن صلبها .

**

لقد دام وجودي في بغداد قبل الانشقاق الكبيرِ والهجومِ الذي شنّهُ القضاةُ وفقهاءُ السلاطين علينا خمسةَ أعوام ، وهيَ الفترةُ المذهلةُ في حياتي ، والأكثر تأثيراً على نشأتي وتربّيتي ، وقد جعلتني مقتصداً في عواطفي ، وغيرَ مسرفٍ في ملّذاتي ، مع أن الحياةَ ذلكَ الوقت كانَت مبهرةً ، والصداقات تفوق

الوصفَ ، وبغداد هي محجٌّ للقيان وللجواري من كلّ مكانَ ، مع ذلكَ آثرتُ أن أعتكفَ اعتكافاً عنيداً في تحصيل المعارف والفنون ، ولم أعقدْ صداقاتٍ تلفتُ النظرَ باستثناء علاقتي المتميّزة مع الأسود ابن الدهان والخونساري ، والتي امتدّت منذ أيّام دراستنا في مدرسة الحكمة في طبرستان .

وكانَ اهتمامي مفعماً بشغفٍ وولع خارق للتحصيلِ والتدرّج في معرفة الأسرار والترقّي في النظام ، وكذلك كان يفعلُ الأسودُ بن الدهّان والخونساريّ أيضاً ، وهو ما يحتاج إليهِ المريدُ من الضبطِ الروحيّ والأخلاقيّ ، والتحصيل الفلسفيّ العاليّ ، وكانَ الخواجة عبّاس هو من بين الخواجات الثلاثة قد اجتذبني ، بينما سرعان ما توافق الأسودُ بن الدهان مع الخواجة سنان ، والخونساري مع الخواجة عماد الدين .

**

وفي تلكَ الفترةِ بالذّات راجتْ أفكارُ الطائفة والمتمثّلة برسائل إخوان الصفا ، بين أبناء الأسر البغداديّة العريقة في بغداد ، وعلى نحوٍ غير مسبوق ، وقد أسهمتْ هذه الأسرُ القريبةُ من بلاط السلطة العباسيّة الحاكمة ، إسهاماً فعّالاً في تدعيم الطائفةِ وإسنادها بشكلٍ غيرِ علنيّ ، ولكنّ الملفتُ للنظرِ هي أنّها أخذتْ ترسلُ أبناءها للدراسة وتعلّم الفلسفةِ والعلومِ الطبيعيّةِ في المدرسة الأسراريّة الرئيسيّة للطائفة وهي مدرسةَ الحكمة في طبرستان ، وقد أصبحَ بعض هؤلاء الأبناء أعضاءً في الطائفة ، وقد دفع هذا الأمر هذه العائلات القريبة من

البلاط إلى حماية الطائفة من الأشرارِ الذين كانَوا يريدون تدميرها والانقضاضَ عليها ، وأسهمتْ عن طريق نفوذها بإبعاد أي قائد للحرس يبدأ بمتابعة شؤونها . أما القضاة والفقهاء فقد كانَوا خارج سيطرتها .

أما الحدثُ الأبرزُ الذي حدثَ في تلك الفترة هو العثورُ على الرسالةِ الثالثةِ والخمسين من رسائل إخوان الصفا ، ذلكّ أنّ الكتابَ الرئيس الذي ضمّ الرسائل يتكوّن من اثنين وخمسين رسالة ، مع الرسالة الجامعة ، وهي رسالةٌ إجماليّةٌ شارحةٌ ، وبقيتِ الطائفةُ لزمنٍ طويلٍ تبحثُ عن رسالة مفقودة ، مرقّمة بالرسالة الثالثة والخمسين .

الواقع ، كان أكثر الخواجات يعتقد أنّ رسائلَ الإخوان لا يمكنُ لها أن تقفَ على الرقم اثنين ، بل من المرجّح أن يكون الرقم ثلاثة أو الرقم سبعة هو الرقم السحريّ الذي انتهتْ به هذه الرسائل العجيبة ، ويناسبُ الرقمُ سبعة نظام الطائفة ، لما لها من علاقة فكريّة وأسراريّة معهُ ، وربما أخذهُ رؤساؤها من بعض أتباع فيثاغورس ، ذلك أنّ عمرَ الكونِ الطويلِ بالنسبة لإخوان الصفا ينقسمُ إلى أدوارٍ فلكيّة من سبعة آلاف سنة لكلّ دور ؛ وينقسم كلٌّ منها بدوره إلى سبعة آلاف أخرى ، ويحل في كلِّ دور رسولٌ جديد . ومع نهايةِ الدورِ السابع الصغيرِ ، يبدأُ التحضيرُ لدورةٍ كبرى جديدة ، ومعرفةٍ ورسالةَ جديدةٍ ، وهكذا دواليك ، حتّى نهاية العالم و«القيامة الكبرى» ، حيثُ تذوبُ الأرواحُ الفرديّة في الروح الكلّية .

مع ذلك، يمضي الاعتقادُ داخلَ الطائفة الخواجيّة، بأن الرسالة الثالثة والخمسين هي الأكثر أهميّة، لأنّها تحتوي في واقع الأمر على التصوّر الكامل لدستورِ الطائفة، ويتلخّص أمرُ هذا الدستور بفقرتين، الأولى هي المدينةُ الفاضلةُ، والتّي ستكونها مدينةُ بغداد بطبيعةِ الأمر، حسبَ تصوّر أئمةِ الطائفة ومسارريها، والثانيةُ هي الإنسانُ الكاملُ، وهم الخَواجاتُ الذين يتحلّون بالعلمِ والمعرفةِ والأخلاقِ والكمالِ، أمّا مشروعُ الطائفة العمليّ، فهو تحويلُ بغداد إلى مدينةِ فاضلة، وتحويلُ سكّانها إلى خواجات في العلم والعمل والفكر والأخلاق، وهذا لن يتمّ إلاّ عبرّ تشريعِ الحريّة وسبل نشرها.

**

في الواقع هذه هي مسيرةُ حياتي بشكل ملخّص خلال الأعوام الخمسةِ التي أمضيتُها بعد عودتي من طبرستان، وتخللّها في العام السادس حدثانِ مهمّان، لا على صعيد حياتي الشخصيّة وحسب، إنّما يلخّصانِ أمرَ الاضطراباتِ الكبرى التي حدثتْ في العام ٦٤٣ هجريّة في بغداد، وما تلاها من مذبحةٍ كبرى نُفذتْ ضدَّ الطائفة، وهما، الأول:

وصولُ السفينةِ مراد من واسط، وهي تحملُ لوحاتٍ كان قد رسمها الخواجة الواسطي الشهير للرسالة الثالثة والخمسين لإخوان الصفا، وتتكوّن من ثلاثٍ وخمسين لوحةً، وقد جاء الخواجات لاستقبالها وحملها إلى منزل الخواجة عماد الدين،

دون ذكرِ أنّها تخصُّ الرسالةَ الثالثة والخمسين ، وقد حدث جدالٌ بين الخواجات وبين القاضي عبد الرحمن ، وهو أكثر القضاة في الدولة العباسيّة تزمّتاً وتعصّباً ، وهو الأكثر عداءً للطائفة وللعديد من الفلاسفة أو من المتصوّفة ، أو من أصحاب الفكر الحرّ في بغداد .

وفي الاجتماع السريّ الذي عقدهُ مجلسُ الخواجات ، اتُخذَ قرارٌ بعملِ الخواجات على حرفِ طبيعةِ الجدالِ مع القاضي عبد الرحمن ، ومن يقفُ خلفهُ مثل الوزير الزنكي ، وصاحب الشرطة ، ورئيس الحرس السلطانيّ ، وبعض المقرّبين من البلاط ، حيثُ يبقى أمرُ الرسالةِ الثالثة والخمسين سريّاً ، أمّا الجدالُ فسيكون حولَ تحريمِ وتحليل التصوير والرسم ، وبالتالي لا يطال هذا الجدالُ مهما يكن الشؤون السريّة للطائفة .

**

الحدثُ الثاني هو اشتعالُ جدالٍ عنيفٍ بين رؤساء الطائفة ، وبشكلٍ أخصّ بين الخواجة عبّاس والخواجة سنان ، وقد راحَ ضحيتهُ الخواجةُ عماد الدين ، وهو المسبّب الثاني في نكبةِ الطائفة ، ويتلخّص الجدالُ في الخلافِ حول طبيعةِ الأسرارِ في الطائفة ، كانَ الخواجة عبّاس يعتقدُ أن الأسرارَ يجب أن تدوم ، وهي التي تحافظُ على وجودِ الطائفة وكيانها ، وكانَ الخواجةُ سنان يعتقدُ أنَّ الكشفَ عن أهداف الطائفة والكشفَ عن قاموس بغداد لا يضرُّ الطائفةَ إنّما يمنعُ التقوّلات عليها ، ويوقفُ سيلَ الرسائل المدسوسة ، والتصوير البشع الذي

يريدُ به بعض المقرّبين من السلاطين هياجَ العامة والخاصّة على الطائفة من أجل القضاء عليها وإبادتها . وهكذا كان الكشفُ عن جزءٍ من عملِ الطائفةِ أوقعَ الطائفة في فخّ السلطات المتربصّة ، وبالتالي اتهم الخواجة عباس الخواجة سنان بخيانة الطائفة .

II
ظهيرة يوم عبّاسي من العام ٦٤٣

كنتُ في منزلي ، في بغداد ، وأنا أرقبُ السفينةَ مراد وهي تمرُّ ببطءٍ شديدٍ ، عائمةً في نهر دجلة ، من جهةِ قصرِ الوضّاح . وكانَ المطرُ ينهمرُ بغزارةٍ شديدةٍ في تلك الظهيرة الباردةِ من يوم الخميس من شهرِ جمادى الأولى ، وشعرتُ بالمطر وهو يتساقطُ كالخيوطِ من الأشرعة المرفرفة البيض في السفينة ويستقرُّ كالفضّة الرقيقةِ على عارضات الشراع .

**

كنتُ واقفاً أمام مرآتي في الحجرةِ المطلّة على نهر دجلة في جهةِ محلّة الحربية ، وقد ارتديتُ ذلكَ اليوم عمامتي القرمزيّةَ الصغيرةَ ، وقفطانيَ الأزرقَ الطويلَ الذي يصلُ إلى القدمين ، وانتعلتُ حذاء من الجلد ، وقررتُ الخروج مسرعاً .

فهذا اليوم فريدٌ من نوعه ، يوم لا يشبهُ أي يوم آخر من هذا العام ، ولا من كلّ الأعوام التي عشتها في بغداد .

كنتُ أنظر من نافذة منزلي بشغفٍ إلى نوتيٍّ صغيرِ الحجم ، عاري الجذع ، وبعمامةٍ بيضاء ، وبوزرةٍ حمراء ، وهو يركضُ بسرعةٍ كأنّهُ يسابقُ الريحَ حتّى وصلَ منطقةَ رسوٍّ

السفنِ في منطقةِ الرصافة ، قربَ جامع أستان علي ، حيثُ تتجمعُ أمامها مجموعةٌ من القوارب الخشبيّةِ الصغيرةِ القادمة من طسوج قطربل ، وهي تصارعُ فورانَ الماءِ ، وهناكَ مجموعةً من البغال الأفغانيّة تمشي ببطءٍ على الطريق المؤدّي إلى فرضةِ جعفر على نهر دجلة ، أو مرسى السفنِ من عند طسوجٍ كلواذى ، وكنتُ أشاهدُ من بعيدٍ جلودَها المنقوعةَ تقطرُ ماءً ، وهي تسيرُ مترجرجةً مائلةً على الدروب الموحلةِ الزلقة .

**

لقد رأيتُ من وراءِ النافذةِ سماءً متبلدةً سوداءَ ، وفيها غيومٌ كثيفةٌ تتحركُ من الجنوب نحو الشمال بلا انقطاع ، وثمّة زوبعةً تعربدُ فوقَ بغداد من وقتٍ إلى وقتٍ وبشكلٍ متواصل ، وكانَ مطراً نادراً يسقط من السماء بعنف ويسوط الأحجار .

وعلى مدى البصر كانَت أمواجُ نهر دجلة تتفجّر ، وتطفح عبر السدود المقامة على الضفّة ، من جهة جامع أستان علي ، وسرادق بيت الدين ، ورباط الحارثي ، ومنازل أبناء سهل ، والبزّازين من بني تستر ، ورأيتُ على الرصيف القريبِ من منزلي ثلاثةَ خدم يركضون ، واضعين أيديهم على عمائمهم ، والريحُ تخفقُ بقفاطينهم السود ، وثمّة ضوء غامض يتضاءل مرّة ويتوهّج أخرى ، حيثُ كانَت الريحُ تنشر فوق المدينة دثار السحب .

**

خرجتُ من منزلي في هذهِ الساعة من الظهيرة ، على

الرغمِ من هذا الطقس الشتائي البارد والممطر ، وقد كنتُ متوهِّجاً بشعور مخدِّر ، كما لو أنّ تطلّعاتي الخرساء وجدت مرامها أخيراً .

سرتُ في الطريق مسرعاً وقد تبلّلتْ لحيتي بالماء بالرغمِ من الصبي الرومي الذي كانَ يركض حاملاً واقية المطر خلفي ، فقد قطعتُ السوق طولاً متوجهاً إلى فرضة رسو السفن في نهر دجلة . سرتُ مسرعاً وأنا أشعر بصوت المطر المرتطم بسطح حجر أصفهان الذي يكسو شوارع بغداد متناغماً مع فوضى السوق وضجيجهِ : زقزقة العصافير والطيور المحبوسة في الأقفاص داخل الدكاكين ، أصوات باعة الخضرة والفواكه المغسولة وهي تصدح في فضاء السوق ، ضجّة البزّازين والزجّاجين وباعة الحبوب التي يجلبونها من خوارزم ، دربكة العتّالين السود الحفاة الذين يهرعون يميناً وشمالاً وعلى رؤوسهم سلال من الأسل ، صيحات مكارية البغال وهم يحملون الفواكه ويهرعون بها إلى ضفة النهر لتحميلها في القفف المدوّرة السود الهابطة في النهر نحو الجنوب .

**

حين وصلتُ الفرضةَ رأيتُ منارات مساجد بغداد الذهبية تعلو ، وتّمحي قممها في الغلالة الخفيفة من الضباب ، وقببها الفيروزية تغرق بماء المطر . لقد كنتُ أرتعش ذلكَ اليوم من البرد والانفعال بعدَ أن داعبتني نشوة غامضة وأنا أمرُّ من فرسان مبلّلين يثبون بخيولهم البيض على حجر الطريق ناثرين

طراطيش الماء بصخب ، وثمّة زوارق تتأرجح على مرابطها قرب نخيل الضفاف ، حيثُ يسيل دجلة مثل كتلة من الماء الطينيّ ، وتهدر أمواجهُ هديراً مريعاً عند دعائم السدود .

في تلكَ اللحظةِ أخذَ عبدُ الله الخراسانيّ قبطان السفينة «مراد» الذي يقود الدفّة ، يرسو بسفينتهِ عند الفرضة ، فأخذ النوتية (وهُم عرب وفرس وأرمن) على سطح السفينة في الأعلى يتنادون ، وبدت أصواتهُم خافتةً وسط المطر والضباب ، فأنزلوا الأشرعة بسرعةٍ كبيرةٍ ، ثمّ لاح لي رتلٌ من المجاديف منبثقةً من الضباب بدتْ بلا نهاية . وصاح المستقبلون وهُم خليطٌ من التجّار والقضاة والعتّالين والملاحين صيحات ترحيب عالية ، لا سيما حين حول النوتية مجاديفهم صوب شاطئ دجلة من جهة الشرق ، أي من جهة الرصافة ، فقد كانَت السفينة تمخرُ عكس التيار المنساب إلى الجنوب ، وعكسَ أمواج نهر دجلة المتقلّبة المندفعة بقوة .

**

كانَت الرياح القادمة من الجنوب الغربي ، قويةً ، وقد دفعت السفينة بأشرعتها المزدوجة والمتعددة نحو الشمال ، ولكن حين وصلت إلى الفرضة ، تم إنزال الأشرعة ، ثمّ تناول النوتيةُ المجاديفَ وأخذوا يجدّفون بها بقوّة ، ليدفعوا السفينةَ نحو المرسى ، وقد وقفَ القبطانُ عبد الله تحت المطر بجذعه العاري على الحاجز ، وكانت منازل بغداد خزفيةً بلونها الطابوقيّ المبتلّ ، ونيرانُ مشاعلها الليمونية ترتعشُ على الواجهات .

لقدْ وصلتِ السفينةُ «مراد» بهيكلها العظيم والمصنوعِ في البصرة من خشبِ البمبر الهندي الذي يبعثُ رائحةً طيّبةً في الماء، وبصواريها المتعدّدة إلى فرضة الرصافة، وعلى متنها عشراتُ النوتيّةِ بعمائمهم المبلّلةِ وجذوعهم العاريّة المغسولة تحت المطر، وقد توقّفوا عن التجديفِ وأخذوا يرمونَ المراكبَ الصغيرةَ إلى النهرِ ليهبطَ بها بعض المسافرين، ورموا سلّماً كبيراً من الخشبِ والحبالِ إلى الضفّة ليصعدَ عليه هذا الجمع الذي تجمهر تحتَ سقيفة خشبيّةٍ مقابلة للمرسى.

بعدَ برهةٍ خرج من مقصورات السفينةِ المتعدّدةِ على جانبي الهيكلِ مجموعةٌ كبيرةٌ من تجّار سوق الثلاثاء القادمين من خوارزم بأزيائهم الملوّنة، وعمائمهم الملفوفة إلى أعلى، واتجهوا نحو مقدمة السفينة حيثُ كانَت السلالم ترمى نحو اليابسة، وهُنالك العديدُ من الحجّاج بملابسهم البيض ورؤوسهم المحلوقة، وقد التحقوا بالسفينة مراد من فرضة البصرة المؤدية إلى نهر دجلة، كما كانَ على متنها بعض رسل أقالَيم وولايات الدولة الإسلاميّة وقد قدموا من بحر عمان.

**

وعلى الرغم من البضائع العديدة التي كانَت تحملها السفينة على سطحها من رزٍّ هنديّ، ودمقسٍ ناعم، وخزفٍ صينيٍّ، والعديد من البضائع الغاليةِ والثمينةِ والمجلوبةِ من خراسانَ ومن مروَ، إلا أنَّ هُنالك شيئاً واحداً ثميناً على ظهر

هذهِ السفينة ، يرقدُ في مقصورةٍ من مقصورتها المغلقةِ والمحروسةِ ، وكانَ وصولُ السفينةِ مراد ذلكَ اليوم بهذهِ التحفة النادرة هو الذي سيغيّر تاريخ بغداد برمّته .

لقدْ وصلتُ إلى سقيفة خشبيّة مصنوعة من السدرِ تغطّي قبلةَ الفرضة ، وقد تجمّعَ هُناكَ جمعٌ كبيرٌ من رجالِ بغدادَ المهمّين من بينهم المؤرّخُ ابن غياث الذي تعلّم عند ابن الأثير ، وابن الرزّاز ، والجغرافيُّ بن عتبة الشاميّ تلميذُ الجغرافي ياقوت الحموي ، والشاعر ابن سناء ، والقاضي عبد الرحمن بن عمر بشعرهِ الأبيضِ وبعمامته المبلّلة بسببِ المطرِ وقد كانَ غاضباً ذلكَ المساء ومنفعلاً . وكانَت عيون الجميع شاخصةً على ذلكَ الشيء الأكثر أهميّة من بين كلّ ما تحملهُ السفينة «مراد» من حمولاتها النادرة .

- ماذا لو صعدنا السفينة وقالَ القبطان إنهُ لا يسلمنا الحمولة . . قالَ الخواجةُ محمّد إلى الخواجة عماد الدين بن أبي ريحانة النقّاش وهو يمشّط لحيتهُ بأصابعه .

- لا أظن أنهُ سيفعل . . قالَ ذلكَ وقد افترت شفتاهُ عن ابتسامة ذابلة .

- لمَ لا . .

- لأنّ الخواجة يحيى الواسطيّ قد أوصى لنا بها . .قالَ الخواجة عماد الدين .

- ولكن ألا ترى القاضي عبد الرحمن ومزاجهُ العكر . .

- بلى .

- ألا تظنّ أنهُ سيقول شيئاً . .ألا تظن أنهُ مخوّل من قبل الوزير؟

- لا أظن . .قالَها بعصبية . .وهو يريد التوقف عن الكلام مع الخواجة محمّد . . .

**

كانَ هذا الشيءُ المهمُّ الذي تحملهُ السفينةُ مراد هي الرسالة الثالثة والخمسونَ من رسائل أخوان الصفا ، وقد رسمها في أيّامه الأخيرة الرسام يحيى الواسطي ، وقد غطّت الطائفةُ على الرسالة تحت الاهتمام بما رسمهُ ، وهكذا قلنا :

- نحنُ ننتظر اللوحات التي رسمها هذا الفنّان العظيم!

ولكن في الواقع لا أحد سوانا يعرفُ ماذا رسم!

وأهمية هذه الرسالة عظيمةٌ ، واللوحاتُ التي رسمها الواسطيّ عظيمةٌ هي الأخرى ، وقد اهتمتِ الطائفة بالأمرِ من أجلِ ضمّها إلى قاموس بغداد ، وتمّ الاتفاق بين أعضاءِ التنظيم في حْصرِ خلافاتنا على اللوحاتِ الصغيرةِ التي رسمها الخواجة الواسطي بالمداد الأسود الذي خلطهُ ببقايا حرقِ أليافِ الكافورِ ومزجهِ بزيت الخردل ، وبعض الألوان الأخرى التي كانَ يقومُ بتحضيرها بنفسه .

وهذه اللوحاتُ بطبيعةِ الأمرِ هي غير المنمنماتِ المائة التي صوّرَ فيها مقاماتِ الحريري ، والتي كانَت شهيرةً جداً ذلكَ الوقت ، إنّما هي مجموعةٌ من اللوحاتِ النادرةِ وعددُها ثلاثُ وخمسون لوحةً ملفوفةً بطبقات من الورق الصينيّ السميك

بحيثُ لا يمكن للماءِ أو للغبارِ أن ينفذَ إليها ، وكانَ قد رسمها عندما أبلّ من المرض ، غير أنه وبعدَ فترةٍ قصيرةٍ فارق الحياة ، في مدينة واسط جنوب بغداد ، المدينة التي اشتهرت بفنون الريازة والنقش ذلكَ الوقت ، وقد أوصى الخواجة الواسطي بهذهِ التحفة النادرة من لوحاته لمجموعة من تلامذته ، من مدرسة بغداد .

وقد هرع رسامو بغداد الذين كانَوا ينتظرون وصول السفينة لوقتٍ طويلٍ إلى الفرصة . ومن بين هؤلاء :

أبو سعيد غياث الحارثي ، وإبراهيم بن محمّد الرحمانيّ ، وأبو بكرٍ النيسابوري ، وعليّ السجستانيّ ، والأخيران هما من أسّسا فيما بعدَ مدرسة بغداد ، وهما أوّل من وصل إلى رصيف الميناء ، وهنالك الخواجة حمدان بن عيسى النقّاش والذي كانَ يطلق عليه أهل بغداد ذلكَ الوقت بالخوجة حمدان . . .

III
نوتيّةٌ وخواجاتٌ

نفضَتُ قطراتِ الماءِ التّي علقتْ بعمامتي بيدي ، مسحتُ وجهي ، وصعدتُ إلى سطح السفينةِ مسرعاً مع الخواجة عماد الدين ، وقبلَ أن نبلغَ سطحَ المركبِ ، هرعَ موكبُ الخواجات وراءّنا .

صعدَ الشاعرُ ابنِ سناء وهو يُسْمعُ القاضي عبد الرحمن بن عمر مجموعةً من الإطراءات التي تفتقرُ إلى الحسّ الصادق ، وكانَ ابن نماء صاحب كتاب الأحزان ، وأبو سلمة النقّاش يصعدان السلّم الصغير إلى قمرة السفينة ، وقد وثبَ قبلهما من البابِ رجلٌ بدينٌ ، وهو التاجرُ رشيدُ الدين الفردوسيّ بعمامتهِ وقفطانهِ الحريريّ ، وكانَ وجههُ يتصّببُ ماءً ، وكانَ هنالكَ الخواجةُ عبّاس ، وأبو بكرِ النيسابوريّ ، وهو رسّامٌ مشهورٌ بأعماله المصنوعة بحذاقة ، وأبو سعيدٍ غيّاثُ الحارثيّ .

وحين دخل الموكبُ إلى السفينة هبطِ القبطان عبدُ الله الخوارزميّ من القمّرة إلينا ليصافحنا واحداً بعدَ آخر ، كانَ القبطان حافياً ، عارياً إلاّ من سروالٍ قصيرٍ يصلُ إلى حدٍّ

خاصرتهِ ، وقد برزَ صدرهُ النحيفُ إلى أمام ، وآثارُ وشم على زندهِ ، وقد لفَّ عمامتهُ على الطريقة البغداديّة .

قالَ لنا :

– من تخوّلون لاستلام لوحات الواسطيّ؟

– الخواجة نصري . . قالَ الخواجةُ عماد الدين . .

فارتعشتُ ، لم أتوقع أن الخواجة عماد الدين سوف يختارني .

غيرَ أنّ القبطان الخوارزميّ أدارَ عيونهُ على الجمع ، ولم ينبر أحدُ بكلمة ، وكنتُ قد حبسَتُ أنفاسي لئلاّ يعترضَ القاضي عبد الرحمن . . . ويقولُ شيئاً غير ذلكَ . . إلاّ أنّهُ لم ينطقْ بكلمة ، وهكذا هزَّ القبطانُ رأسهُ موافقاً ، واصطحبَنا إلى إحدى مقصورات السفينة .

كانَت عينا الخواجة عماد الدين متوهجتين ، وكان قلبي يرتعشُ بقوّة ، حيثُ كنتُ أنا أوّلُ من يتسلّم لوحات الواسطيّ الملفوفةِ بالورقِ الصينيِّ النادرِ من القبطانِ البغداديّ .

لحظة صمتٍ وأنا أتناولُ بيديَّ هذهِ اللوحات النادرة والملفوفةِ جيداً ، مسستها بهدوء ، وحملتُها كما لو كنَتُ أحملُ شيئاً مقدّساً ، وقد تجمّع الآخرون حولي ، وكان الخواجة عماد الدين إلى جانبي .

جلسَتُ على أرضِ القمْرةِ لأتأكّد مِن اللوحاتِ وعددها ، ما إن رفعتُ الورقَ الذي يلفّها حتى أخذ قلبي يخفقُ بقوّة ، أخذتُ أقلّبُ اللوحاتِ وأنا أحسبُها ، فسمعتُ خطواتٍ تندفعُ

ذهاباً وإياباً ، ثمّة اضطراب ، فكانَ جميع الواقفين هناكَ يتزاحمون ليلقوا نظرةً عليها ، وقد أدركتُ أنه من الممكن في أيّة لحظةٍ أن تُنتزعَ هذهِ اللوحاتُ منّي . أخذتُ أتطلعُ إلى ألوان اللوحاتِ وطريقة رسمها :

كنتُ أنظرُ الوجوهَ المرسومةَ وتمرُّ في خاطري صورةُ الواسطي الذي التقيتُ بهِ في منزلنا قبل عشرة أعوّام ، وكيف كان يتحدّث مع والدي عن تجاربهِ في تحضير الألوان ، لقد شعرتُ لحظتها بجريانٍ منسابٍ من الأحداث والتأمّلات وأنا أفكرُ في الواسطي ، الفنّان الدائم الاضطراب ، الموّار في عاصفتهِ الداخليّة التي هدرت مع رسمهِ لمقامات الحريري ، ولم تكدْ تهدأ ، وقد رأيتُ في هذهِ اللوحات شيئاً كثيراً من روحي وحياتي ، رأيتُ أحلام الطائفة في بناء مدينة عظيمة وتحقيق حلمها في بناء نظام أخلاقي ومعرفي كنوع من اندفاع عارم نحو الكمال .

لقد كنتُ جالساً على أرض القمرة ، أنظرُ اللوحات ببطءٍ ، كنتُ أعدّها وأنسى ، ذلكَ أنّي كنتُ أنسى الأرقام ما إن أنظر الوجوه على وميض البروق ، كنتُ أنسى الرقم حين ينعكسُ الضوء على المناظر وعلى الوجوه ، فتضيئها في هذهِ الظلمة القويّة الواضحة ، كانَت الأرقام تتلاشى من ذهني كلّ مرّةٍ فأعودُ مرّة أخرى .

وهذه هي المرّة الأولى في حياتي أرى اندماج الضوء والأرجوان والفضّة على هذهِ اللوحات الصغيرة ، لقد رأيتُ

اختراق أقواس النور وشآبيب الغيوث المتألقة ، وكلّ ذلكَ منظور بجبروت ، كما هو في لوحات ذلكَ الفنّان العظيم .

**

لقد أعدتُ حزمها بالورق وأنا أرتجفُ ، حملتها بيديّ وعيناي متألقتان ، ثمَّ هبطت بها بهدوء من السفينة ، وتبعني الآخرون تحت المطر . كنتُ حملتُ هذهِ الحمولة النادرةَ وهبطتُ بها إلى الرصيف ، وكانَ القاضي عبد الرحمن أوّلَ من علَق :

-يجب أن نأخذها إلى الفقهاء ليفتوا بها . . ومن ثمَّ نأخذها للوزير . .فلا يمكنكم أن تقوموا بهذا الأمر دون الرجوع إلى سلطة ما . .

رفض الخواجاتُ الواقفون هناكَ هذا الأمرَ ، وتقدّموا عند إحدى العربات الواقفةِ عند الرصيف ، حيثُ حدثَ جدالٌ عالي الصوت بين الخواجة عبّاس والقاضي عبد الرحمن . . .

قالَ الخواجة عبّاس : لا يمكن ذلكَ . . هذهِ اللوحات أوصي لنا بها ، وعلينا أن نأخذها . . وليس لأحدٍ أن يراها ويفتي بأمرها ، أما الوزير فإنّنا سنمرّ عليهِ ونخبرهُ بأمرها . .ولكن لا سلطة للفقهاء على هذا الأمر . .

صرخَ القاضي عبدُ الرحمن وقد خرجَ الأمرُ عن سيطرتهِ :

«سوف لن يفتي الفقهاءُ لكم . . .الصورةُ في الإسلام حرام . .»

من قالَ إنها حرام قالَ له الخواجة أبو بكرٍ النيسابوريّ بعصبية ظاهرة :

«حرام لأنّكم تصورّون ما هو زائلٌ . . هذا حرامٌ بل كفرٌ صريحٌ . .»

«نحن لا نصوّر ما هو زائل أيها القاضي . . هذهِ الصورة هي صورةٌ عن عَرَض من أعراض العالم . . .»

وقبل أن يكمل :

«ولكنّها تجسيدٌ» صاح به القاضي عبد الرحمن وقد رفع يديه إلى أعلى .

«ليست مجرّد تجسيد ، إنها لحظةٌ من لحظات الوجود وسيرورتهِ . .» قالَ له السجستاني بصوتٍ عصبيّ ومرتجفٍ . .

في الواقع كانَ النقاش حاداً بين القاضي عبد الرحمن والخواجات ، بينما كانَ العامة والتجّار والحرّاس يدورون وجههم مرّة لهذا ومرّة للآخر دون أن يعرفوا شيئاً عن أصل الخلاف .

القاضي عبد الرحمن والتصوير

ينفي القاضي عبدُ الرحمن الصورَ ، ويرى في رسمها تقديساً لما هو زائل ، وهو يقول للخواجات إن هذا العالمَ الدنيويّ ، هو عالمٌ مدنّسٌ ، وهو مدنّسٌ لأنّهُ دنيويٌّ ، وهو عالمٌ تافهٌ لأنّهُ مؤقّتٌ ، ومؤقتٌ لأنّهُ محكومٌ بزوال سريع كالبرق .

«هل هو هذا ما نراه» . . يقول للخواجات وهو يضحك .

«لا إنّه يمكنُ أن يكونَ خلافَ ما يبدو عليهِ» .

هذا ما يقولُ به الخواجاتُ ، وهم ينفذون إلى الباطن ، ولكنّهم لا يتركون الظاهر . وهم يعرضون شكلهُ في الصور .

غيرَ أنّ القاضي عبد الرحمن يرفضُ ذلكَ لأنَ العالم نسبةً للقضاة والفقهاء مرتبطٌ بصنائع الشيطان ، ولأنّهُ مرتبطٌ بصنائع الشيطان فهو مغوي ، ومكتظٌّ باللذائذ ، وهو يبعد المرء عن الاتصال بخالقه ، وعن التزام سبل الآخرة .

يقول القاضي عبد الرحمن إن هذا العالم المرتبط بصنائع الشيطان ، هو عالمٌ غيرُ جديرٍ بالاحترام والتقدير ، ولذلكَ ، من الطبيعي أن يكون غير جدير بالتصوير ، فالتصوير هو شكلٌ من أشكال منح القيمة الاعتبارية للموضوع المصوَّر .

بينما الخواجة عماد الدين يعارض هذا تماماً ، وهو الذي شيد رؤية الطائفة في هذا الأمر .

العالم نسبة له كلّه لا حقيقيّاً ، ونحن لا نرى إلا النسخة المقلّدة منه ، لا الأصل ، أننا نرى العالم بالصورة التي نراه عليها ، لأنّ الله يريد أن نراه وفق هذهِ الصورة . إنّ صورة هذا العالم ، أو صورة قطعة منهُ هي ليست أكثر من محاولةِ تسجيلٍ لحالةٍ من حالاته ، أو عرضٍ من أعراضهِ المحكومةِ بالزوالِ مهماً امتدَّ بها الثباتُ في الزمانِ والمكانِ . فالإنسان متبدلٌ من عامٍ إلى عام . .

وقدْ صرخ أبو بكر النيسابوري محاججاً القاضي عبد الرحمن :

«الطبيعة تتبدل ، والثمار تؤكل ، أو تهترئ ، والأواني تتحطّم ، والصخور العملاقة ، والجبال الراسيات كلّها عرضة للتبدل من خلال الظروف . .ونحن نصور عرضا من أعراض قوة

الله وقدرة خلقه . .»

**

لقد غادرنا الفرضةَ جميعاً ، وبقيَ القاضي عبد الرحمن وأصحابهُ في المكان .

كلٌّ هرع إلى جواده ، أما أنا الذي كنتُ أحملُ الحمولةَ النادرةَ فقد صعدتُ مع الخواجة عماد الدين والخواجة عبّاس والخواجة سنان في عربةٍ كانت معدّةً لهذا الغرض لتنقلنا إلى منزل الخواجة عماد الدين . سارت العربة التي حملت اللوحات ، ثمّ تبعنا الخواجات الآخرون على خيولهم .

شقاقُ لوحاتٍ وقضاةٌ

جلسَ الخواجةُ عبّاس إلى جانب اللّوحات في العربة ، كانَت ظهيرةَ ذلكَ اليوم الممطرِ رماديةً ، غير أنّها مثقلةٌ بالظلمةِ والأضواءِ والدمدمةِ المتلاشيةِ لعجلات العربات وحدوات الخيول على حجر شوارع بغداد .

لقد شعرتُ برائحةِ المطرِ وهي تدخلُ العربةَ . فالمدينةُ هذا اليوم ترقدُ تحت قدَم لغزٍ كبير ، هو لغزُ لوحاتِ الواسطي ، وقد كنتُ أمعن النظر طويلاً محاولاً أن أميّز الأطلالَ العظيمةَ لهذهِ المدينةِ ، إلاّ أنَ رعدةً اعترتني في الظلام ، وأنا أصلُ إلى منزل الخواجة عماد الدين ، أحسستُ بالخوفِ .

خشيت من حربٍ ستقوم على الطائفة ، كان حدساً بالنسبة لي .

تذكرتُ الخواجة الواسطي وهو يحدّثُ والدي فيقول لهُ :

«ما كانَ يجعلني متمزّقاً على الدوام ، هو شعوري بأن الفنّ عملٌ فرديٌّ ، لا تصنعه إلاّ روحٌ مستقلّةٌ ، وأنّ الانخراط في جماعات وشيع وطوائف يهدمُ هذا الفنّ ويحرمه حريته ، ومن هنا كانَ ترددي ، كنتُ أريد الانخراط في الطائفة الخواجيّة لأنّها كانَت تتألف على مجموعة من قواعد الفنّ ، ولكنني كنتُ أخشى على فرديتي واستقلالي أيضاً»

أطرق قليلاً وقال لوالدي :

«كيف أكون منهم ، وكيف أكون وحدي؟ هذا هو السؤال الذي كانَ يؤرقني» .

ومع ذلكَ إني وبقراري بالانصياع لقرار مجلس الخواجات ، شعرتُ بأني انخرطتُ في عملٍ كبيرٍ ، وتمدّدت مع الجميع على بساط الفرق والطوائف والجماعات ، ولم أكن متردّداً ، كانَ لدي على الرغم من كلّ ما كانَ يحدث نوع من الآمال الكبيرة ، كنتُ أحاول أن أحصل في اللحظة الفاصلة الأخيرة على شيء يحفظ استقلالي ، ويقدم لي الحريّة التّي كنتُ أنشدها في الفنّ ، فأمرت عواطفي وروحي كلّها أن تهدأ ، قلت لها انسَي نار الطغيان الجماعي!

اهربْي ، التجئْي إلى أغوار الفنّ ، إلى الأدب!

اهربْي إلى حيثُ لا تكونَ إلاّ كينونتك!

لا جماعة ، ولا طائفة ، ولا قوى موجودة وكائنة تحرمني

من تفكيري ومن فرديتي!

كنتُ أقول لنفسي عليّ أن لا أكون ألعوبة في هذه اللعبة الجهنميّة ، ولكني كنتُ مؤمناً بالطائفة الخواجيّة ، مؤمناً بمبادئها وشعاراتها ، فهل يستطيع عقلي وفنّي أن ينفلت من لعبتها الجهنميّة ، هل يمكن لعقلي ومشاعري وعواطفي أن تواصل العمل على الفنّ ، وهي أسيرة لجماعة تخضع إلى نظام ، نظام متعالٍ ، يجعل نفسه فوق كلّ فرديّة وفوق كلّ عقل؟

الوصول إلى المنزل

حين هدأتْ دمدمةُ العجلاتِ على الجادة الحجرية ، شعرتُ بأنّنا وصلنا إلى المنزل .

كانَ الخواجة عماد الدين هو الذي هرع ليحمل اللوحات بيديهِ ، ثمَّ هبط الخواجة عبّاس من العربة وراءه .

سار الجميع نحو المنزل ، ولم تمرّ سوى لحظات قليلة حتى ظهر القاضي عبد الرحمن مع جماعة من أصحابهِ .

وصل على مقربة منّا ، وترجل عن حصانه ، كانَ قد وضع عباءته على رأسه من المطر ، سار قليلاً أمام الجميع ، وقد ساد على وجوهنا وجومٌ مطبق ، تقدم من الخواجة عماد الدين ، قالَ والماء يهبط من لحيته البيضاء :

«أنا مخول من الوزير للدخول معكم المنزل ، ورؤية لوحات الواسطي» .

لم ينطقْ أحدٌ منّا بكلمة ، أدرنا ظهورنا لهُ ودخلنا المنزل ، ولم نخلفْ وراءنا سوى خرير الماء الطري في الشارع ، وصوت المطر الذي يترقرقُ ويشدو مالئاً ظهيرةَ بغداد الرماديّة بوسوسةٍ حزينةٍ .

IV
الرسالة واللوحات، قضاة وخواجات

يقع منزلُ الخواجة عماد الدين في شارع عين في محلّة الظفرية ، وعلى مبعدَةِ ساعة تقريباً من دار الحجابة ، حيثُ منزلُ الصيرفيّ آهارون بن عمران ، ومن هذا المكانِ نُقلَ قاموسُ بغداد إلى الرها ، إذ إنّ الخروجَ تمّ بالتدبيرِ معَ آمريّةِ الجندِ من عندِ بابِ خراسان .

وعلى مقربةٍ من هذهِ الدار تقعُ دار المازدرائي الذي نقلَ منزلهُ من السراة ، بجانبِ دارِ الجهبذان اليهوديّ علي بن هارون ، ليصبحَ مجاوراً لدارِ إبراهيم بن أيّوب ، ودار الخواجة عماد الدين ، ويقعُ قبالةَ هذا الحيّ مركزُ أهل المال ، حيثُ الصيرفي اليهودي عين بن حزقيال ، لذلكَ يسمى الشارع هذا اليوم ، بشارع عين .

**

دخلتُ المنزلَ شبهَ المعتم وراء الخواجات ، وكانَ قلبي يخفقُ بشدّةٍ ، وقد قادنا خادمُ الخواجة عماد الدين بحذرٍ إلى غرفة معتمةٍ معقودةِ السقف في الداخل ، ثمّ هرع ليشعل السراجَ وبعض الشموع فيها . ثمّ حمل الخواجةُ عماد الدين

علی يديهِ اللوحاتِ التي تزيّن رسالةَ إخوان الصفا المفقودةَ ، ووضعها على منضدةٍ كبيرةٍ وسطَ الحجرة .

ثمّةَ شمعةٌ ترتعشُ على مقربة منّا ، وضوؤها يكشف عن وجوه الخواجات بعمائمهم الرطبة وحياصاتهم الملوّنة ، وهم يحيطون هذهِ الطاولة التي تحمل لوحات الواسطي ، والتي تزيّن الرسالة الثالثة والخمسين .

**

لمْ يكنْ منزل الخواجة عماد الدين خالياً ، فقد اختفتِ الجواري وراء الستائر التي تفصلُ هذهِ الحجرة الكبيرةَ عن باقي المنزلِ الكبيرِ ، وكانَ الخدمُ يهرعون إلى الداخل ويعودون بسرعةٍ وهم يحملونَ الصحافَ والأوانيَ الفضيّةَ بأيديهم ، وقد انبعثَ من الديوان الهواءُ الدافئُ الطافحُ بالعطورِ والبخورِ ، وفجأةً ، جاء الخادمُ إلى الخواجة عماد الدين وقالَ له إن القاضي عبد الرحمن في الخارجِ وينتظرُ منك الإذن بالدخول .

صمتنا لحظةً وأخذ كلٌّ منّا ينظرُ في وجه الآخر ، فنهض الخواجةُ عماد الدين وغطى اللوحات بعباءةٍ من حريرٍ أزرقَ ، كانَت مرميّة على التخت ، وقالَ للخادم :

- دعهُ يدخل .

ثمَّ التفتَ لنا وقالَ :

- كما هو الحال ، نحن نتحدّث عن اللوحات ولا نأتي على ذكر الرسالة أبداً .

في تلك الأثناء دخلَ القاضي عبد الرحمن ، فاضطربَ

الجالسون في الحجرة لمرآه ، وأخذت الجواري تتطلّع من خلف الستائر الحريرِ التي تهطل إلى الأرض ، لتتنصّت أو لتعرفَ ما سيحدث بعدَ دخول هذا القاضي على جمع الخواجات ، فقد أدرك كلٌّ من في المنزل أنّ أمراً غير محمود ما سيحدثُ ، وأنَّ هذا القاضي المشهور بعدَائهِ للخواجات لن يتركَ هذا الأمر بسلام .

**

كانَ القاضي عبد الرحمن واقفاً في باب الحجرة الكبيرة ، وقد بدا مبلّلاً تحت المطر ، كان يرتدي عمامةً خضراء كبيرةً ، وجلباباً بلون داكن ، تعلوهُ حياصةٌ خضراء ، ويرتدي قفطاناً أزرق يصل القدمين ، وحين رأى اللوحات مغطاةً أخذ يفرك بأصابعه حبات مسبحة سوداء طويلة .

كانَ هذا القاضي أوّل من ألّف رسالةً في الردّ على أفكار إخوان الصفا ، يتهمُ فيها الطائفةَ بالزندقةِ والمروقِ ، ولم يردّ على الأفكارِ الفلسفيّة فقطْ ، إنّما قال بأن أفكارهم تقودُ إلى الإلحاد والخروج عن الدين ، وأن هذه الطوائفَ أو المذاهبَ الأسراريّة غايتها السياسيّة الاضطرابُ ، والتناحرُ ، والفوضى الاجتماعيّة ، والانحطاط الخلقيّ ، والإفلاس الروحيّ .

ثم شرع بوسيلة أخرى وهي تهييج العامّةَ على الخواجات ، وبعدها كتب للخليفة رسالة طويلة يشرح فيها مخاطر الطائفة ، وكانت نقاطه الأساسية التي أخذها على الخواجات ثلاث نقاط :

قاموس بغداد، وحرية الفكر، ونظرية الفن .

أمّا حجّته بالضدِّ من قاموس بغداد، فقد ادّعى بأنّنا نعدّهُ كتابا مقدّساً، وقال إنّنا نقولُ بحريّة الفكر لهدم قدرة المؤمن على فهمِ العالم، أمّا في نظرية الفنّ فقد ادعى بأنّنا نقولُ إنّها موضوعةٌ قبل الإيمان، وهذا غيرُ صحيح، ذلكَ لأنّنا نقول إنّ حقيقةَ الدينِ تنبعُ من تناسقهِ مع الطبيعةِ، وبالتّالي فهوَ في تناغم مع قوانين الكون، ومع فطرةِ الوجودِ، وموضوعهُ هو الوحدةُ والتناسقُ وبالتّالي فهو لا يعارض الفنّ .

القاضي بين الخواجات

وقف القاضي عبد الرحمن بيننا ممثلاً عن الوزير، وقف على مقربة من البابِ عند خوان كبير عليه صحنٌ كبيرٌ من الفواكه، وقد تناول بيده تفاحةً وأخذَ يقشّرها بسكّين صغيرةٍ أخرجها من جيبهِ، وأخذت رائحتُها الفوّاحةُ تضوعُ في الحجرة، كانَ ينظرُ للجميع بابتسامةٍ هازئةٍ، ثم قال :

-لا أحد يعطيكم الحقّ بالاستيلاء على ممتلكات الواسطي .

غمغمَ الخواجةُ عمادُ الدين بشيءٍ غيرِ واضح، ثمَّ فتحَ صندوقاً كبيراً من خشب البمبو الهنديّ مرصّعاً ببعض الأحجارِ الكريمةِ، بينما كانَ القاضي عبد الرحمن يمضغُ قطعةً أخرى من التّفاحةِ، وأخرجَ رسالةً من بين الخرائط الجغرافيّةِ وبعض المنمناتِ وقرأ رسالةً من المؤرّخ ابن الضرير، يقولُ فيها

إنّهُ في أواخر صفر أُصيبَ محمد بن يحيى الواسطي بداءٍ خطيرٍ ، ثمَّ أخذ يبلُّ بجهدٍ من الطبيب نجم بن بشرٍ الطائي ، وأخذَ يرسمُ ، ثمَّ انتكسَ مرّةً أخرى وعادتْ إليهِ الحمّى . ولم ينهضْ هذا الفنّان بعدَ هذهِ ، وتوفيَ هُنا ، وأرسلَ لوحاتهُ الأخيرةَ والتّي رسمها أثناء فترةِ نقاهتهِ إلى خواجاتٍ ببغدادَ وديعةً عندهم ، وهم الخواجة أبو سعيد غيّاث الحارثيّ ، والخواجة إبراهيم بن محمّد الرحمانيّ ، والخواجة أبو بكرٍ النيسابوريّ ، والخواجة عليّ السجستانيّ ، والخواجة عماد الدين بن أبي ريحانة النقّاش ، والخواجة عبّاس الطغرلي ، والخواجة سنان بن ميمون البغدادي .

ابتسم القاضي عبد الرحمن ، وغيّرَ لمعانُ أسنانهِ صورةَ وجهه المتهجم . ثمَّ زفر زفرة وقالَ :

- حسن . . .حسن . .

لقد تضايق القاضي عبد الرحمن ، ولم يطق البقاء طويلاً في المكانَ ، وهو ينظر إلى الحشد غير الودّي هناكَ ، وكانَ ينتظر من الخواجة عماد الدين أن يكشفَ عن الوديعةِ غيرَ أنّه لم يفعلْ ، وأدرك القاضي أنّهُ لن يستطيعَ إجبار الخواجة عماد الدين على فعل هذا الأمر بعد أن قرأ رسالة ابن الضرير .

حينها استأذنَ بهدوءٍ ، قالَ كلاماً لطيفاً ، غير أن الغيظَ كانَ يطفح من عينيه ، ثمَّ همهمَ مودعاً وخرج . سار في الممرّ نحوَ البابِ يتقدّمه الخادمُ ، وقد أخفى سكّينه في جيب قفطانه ، بينما بقيت رائحة التفاح في الحجرة ، يشعر بها

ويحس بثقلها الجميع .

لم يشك أي واحد منا تلك اللحظة ولا لحظة واحدة برؤية بوادر الشر والحقد والطوية السيئة في عيني القاضي عبد الرحمن ، وكانَت حركاته وتتبعه لنا حتى وصوله إلى منزل الخواجة عماد هو إشارة واضحة من هذهِ الشخصية التي اتسمت طوال تاريخها في محكمة بغداد بالعداء للخواجات والمفكرين والفلاسفة ، وربما كانَ يريد أن يرسل رسالة إلى الخواجات ذلكَ اليوم مفادها أن المعركة مع الخواجات لم تنته بعدَ أو بالأحرى لم تبتدئ بعد .

السؤال المهم

السؤال المهم بعد خروج القاضي عبد الرحمن طرحه الخواجة عباس :

-يا تُرى هلْ عرفَ القاضي عبد الرحمن أنّ الاهتمامَ الكبيرَ من لدنِ الخواجات ليس للوحات الواسطي على أهميتها بالنسبة للطائفة ، إنما للرسالة الثالثة والخمسين لإخوان الصفا؟

هذه الرسالة قال الخواجة عماد الدين من شأنها أن تتمّ كتابة قاموس بغداد؟ وهي مهمّةٌ فعلاً ، وأمر سريّتها يجب أن يكون مقدّساً ، وأنا لا أعتقد أنّ أيّاً من القضاة لم يعرف بها ، ولا بأس أن يبقى الجدال بيننا وبينهم حول شرعيّة الرسم من عدم شرعيّته .

ما قاله الخواجة عبّاس والخواجة عماد الدين صحيح جدّاً ،

ولكنّي سألتهم سؤلاً آخر ، أظنّهُ مشروعاً في هذا السياق ، قلت لهم :

«وهل أدركَ بحسّهِ الخبيث أنّنا ننتظمُ ونشكّلُ الطائفةَ الممنوعةَ والتّي يتوعّدها القضاةُ والفقهاءُ والسلاطين بالتشبيح والتنصيص والقتل أم لا؟»

- لا . . أظن! قال الخواجة عماد الدين .

- لا بدّ أنّه خمّن ذلك ، قال الخواجة سنان .

- لا أظن . . قال الخواجة عبّاس ، إنْ لم تكن هنالك خيانة في التنظيم . . .

اكتشاف على ضوء السراج

توقف الخواجةُ عمادُ الدين وسطَ الحجرة الكبيرة كانت الجدرانُ تلوحُ بلونٍ أبيض باهت .

- أخيراً هذهِ هي الرسالة الثالثة والخمسون أصبحَت بين أيدينا ، شيءٌ لطالما حلمتُ به ، وكنتُ قد تخيلتُ كلماتها كلمةً كلمةً ، حتّى قبلَ أن أعثرَ عليها ، يا لها من ملهبةٍ للخيال ، ويا لها من عونٍ لنا في إتمام قاموس بغداد .

ثمّ نادى الخادم بصوت عال .

اقترب الخادم وتناول الخواجة عماد الدين من يديهِ مشعلاً لم نر من مثل جماله من قبل ، والتمعتْ على الطاولة الرسالةُ المزينة بلوحات الواسطي . . . وقد تصاعدَ لهبٌ أحمرُ نحوَ السقف ، والتمعتْ فجأة تحت الجدران تماثيلُ أضاءها النور الخافق .

وقالَ الخواجة عبّاس بصوت واطئ :

- انظروا الآن!

وقف الخواجاتُ بلا حراكٍ . وتمعّن الخواجةُ سنان في حركةِ اللهبِ الغامضةِ على الجدرانِ البيضِ الدافئة ، وجاهدتُ أنا بدوري من أن أثبتَ في ذاكرتي حركات الظلال . فقد كانَت تُضفي روحاً غير اعتياديّةٍ على وجوهِ الخواجات ، هؤلاءُ الأبطال الذين يؤسسون لأعظمِ مدينةٍ على الأرض ، وأكملِ نظامٍ أخلاقيٍّ فيها .

لقد استولتْ عليّ تلك اللحظة الرعشةُ الروحيّةُ المنسيّةُ منذ زمان طويلٍ ، والتي لم يعد ممكناً لي مقاومتها . تخيلتُ الخواجة يحيى بن محمّد الواسطيّ قبل موتهِ وهو يرسم الرسالة الثالثةَ والخمسين ، تخيلته وهو يرسمُ على صفحة بيضاء ، كانَ صغيرَ الجسم . يداه رفيعتان في جلبابه الأبيضِ الواسع ، وقميصهُ مفتوحٌ . عيناهُ فيهما نظرةٌ متأمّلةٌ ، يقف أمام الورقة البيضاء وهي تشعُّ أمام عينيهِ بوهج ، رغوة الطلاء على ريشته ، أحسّ ، حتى بعد موتهِ ، بعبقِ النّداوةِ على جبينهِ ، والهواء المبلول القادم من جهة البحر على وجهه .

**

لقد مات الفنّان يحيى بن محمّد الواسطي منذ أعوام عديدة ، وها هم الخواجاتُ وعلى ضوءِ شمعة شاحبةٍ ، وسراجٍ داخل هذهِ القاعة شبه المعتمةِ ، المُرنّة ، حيثُ يعيشون على رسالة أخيرة من رسائل إخوان الصفا كانَت ضائعةً ، ولسوف

تحيا بعدَ هذا اليوم لقرون وقرون بفضل لوحات الواسطي ، ومثل النقوش ، والمخطوطات التي يقلّبُها الآنَ الخواجةُ عمادُ الدين بيديهِ المرتجفتينِ ويقرأُ بعض الفقرات منها ، ستعيش آلاف الأعوام في هذه المدينة الفاضلة التي تتحدث الرسالةُ عنها .

كانَوا يقولون إن كلّ ما هو خارِج هذا العالم الذي علينا أن نعيشَ فيهِ هو عالمٌ منقطعٌ ، دنيءٌ ، رديءٌ وممنوعٌ ، ولكنّهُ كانَ بالنسبة لنا أيضاً عالمٌ مملوءٌ بالأسرار ، عالمٌ مملوءٌ بالفتنةِ والغوايةِ ، إنّهُ عالمٌ بارعٌ ، نحسّ برغبة مكتومةٍ على الدوام ، في معرفتهِ والتوصّلِ إليهِ ، إنّهُ يشبهُ بالنسبةِ لنا قطعةً من طريقٍ يمرُّ به الحاج ويفتتنُ بهِ . إقامةٌ دائمةٌ للصوفيِّ الذي يجدُ وجدهُ بهِ ، عالمٌ نكتنههُ بتحمّسٍ شديدٍ لكي نتعرّفَ عليهِ قبلَ أن نغادرهُ .

V
النقاش

لقدْ حدثَ النقاشُ فجأةً ، حيثُ كانَ الخواجةُ سنان يشعرُ منذُ وقتٍ طويلٍ ، بأنَ الخواجةَ عبّاس يضمرُ شيئاً ما في نفسهِ لهُ ، ومع ذلكَ يبدو أنّهُ أرسل رسالةً إلى الخواجةِ عماد الدين يخبرهُ ببعض ما كانَ يراودهُ من شأن الخواجة عبّاس .

وعلى العموم كانَ الشيءُ الوحيدُ الذي يستحوذُ على الاهتمام لدى جميع أعضاءِ الطائفةِ هو الموقفُ النهائيُّ من القاموس ، فهذهِ المادّة التاريخيّة التي تمّ جمعها بقصد إثبات وتمثيل رسائل إخوان الصفا شكّلتْ لبٌّ وجوهرَ الخلاف الذي عصفَ بالطائفة بشكلٍ عام ، ونحنُ لا نخطئ خطأً كبيراً إن اعتقدنا أن هذا النقد اللّاذعَ الذي كانَ يوجهه الخواجة سنان سواءً أكانَ للنظام الهرمي للطائفة أم موقفهُ من علاقة الطائفة بقاموس بغداد ، أم بالعالم أو بالتاريخ على السواء هو من دواعي تهديم الطائفة ، أو على الأقلّ هكذا كانَ الاعتقاد السائد ذلكَ الوقت .

ومع ذلكَ لم يقل أحدٌ إن الخواجة عماد الدين جعلَ مخطوط القاموس تحت تصرّف أحد ، أما ما كانَ يقال ذلكَ

الوقت إن القاموس قد أصبحَ في حوزة الخواجة عبّاس هو أمر محتمل جداً ، ولو وضع تحت تصرف الخواجة سنان فإنه سيتحتم عليه أن يصرف النظر عن تغيير موقعه ، والجميع كانَ يصرّ ذلكَ الوقت أن هذا الزمن ليس مناسباً لنشر القاموس .

**

كان الهمُّ الوحيد ولدى جميع أعضاء الطائفةِ ، وهذا ما كنتُ أراهُ وألمسهُ من خلال علاقاتي بهم ، ومن خلال وجودي الدائم في مجلس الحكماء ، هو كيفيّة استخدام المخطوط ، لا كيف يتمّ حفظه .

مع ذلكَ كنّا استمعنا في مجلس الحكماء ، إلى تلاوة بعض فصوله ، وكانَت ساعات سعيدةً بحقٍّ ، ولذلكَ طرح الخواجة سنان فكرتهُ في نشر المخطوط علناً ، لما لهُ من تأثيرٍ على العامة ، وعلى الناس ، وربّما من شأنهِ أن يقلّل الأخطارَ التي كانَت تتعرّض لها الطائفة .

وفي يوم وبعد أن استمعنا إلى قراءة فصلٍ من القاموس تحت قبّة السّماء ، وكنّا متجهينَ في جلستنا إلى نجم القطب ، في ليليةٍ صيفيّة صافيّة ، وكان هذا الفصل قد أصبح بديلاً عن دعاء هرمز الذي كانت تتخذهُ الطائفةُ فيما مضى والمأخوذ عن إخوان الصفا ، وكنت سرتُ في الطريق ذاته الذي سار فيه الخواجة سنان ، وكنا نسير بطيئا على حصانينا ، فقالَ لي إنَّ من واجباتهِ أن ينبّهَ مجلس الخواجات بوصفهِ ضلعاً من مثلث الحكمة للخطرِ الذي يتهدّد القاموس ، ويتهدّدنا كطائفة أيضاً ،

وقد قالَ علناً إنّ الخطر لا يتهدده وحده ، ولا يتحدّث هو عن نفسه مطلقاً ، وقال إن هنالك خطرين :

الخطرُ الأوّلُ هو خطرُ إبادةِ الطائفةِ من قبلِ السلطةِ ، والخطرُ الثاني هو الخطرُ المعنويُّ المتمثّلُ في إغراق سوق الورّاقين برسائلَ مدسوسة على الطائفة ، وفيها فصولٌ مؤلّفةٌ عن قاموس بغداد من شأنها أن تقلبَ وجهةَ نظرِ العامّة إزاء الطائفة ، وهذا الخطرُ لا يتهدّد القاموسَ حسب ، إنّما يتهدّد الطائفة ككلّ ، ولا يمكن لنا أن نقومَ بكلّ هذهِ العمليات التجريديّة بينما الطائفة في الخارج في خطر شديد .

الخطرُ كائنٌ إذنْ!

«إن هذا الخطر كائنٌ!» هكذا قال لي الخواجة عبّاس وهو يرتدي عمامتهُ السوداءُ وقفطانهُ الأسود .

كان يكتب وفي يده ريشة طويلة يضعها في الدواة على مقربة منه ويكتب .

قال : «أمر معروف لكلّ واحدِ منا كانَ قد آمن بعمل الطائفة ، ووافق على الانخراط في التنظيم ، وهذا الخطر سوف يتهدّدنا آجلاً أم عاجلاً طالما نحن نعمل بالقاموس على أساس الفكر والسرّ والفطرة ، وإنّنا نستخرج لمدينتنا قواعد ، وأسساً رياضيّةً ، وبديهيّات فكريّةً ، من أجل أن نعيش في عالم تسوده القوانين ، عالم أخلاقيّ ، وإنسانيّ ويتمتع بالحرية الكاملة» .

هكذا كان الخواجة عبّاس يفكر ، يفكر بالقاموس على أنّهُ

عـملٌ من أعـمـال الـفـيلسـوف الذي يؤمنُ بإرادة الإنسـان ، ومستعدٌ للموتِ من أجلها ، وأنَّ اللهَ خصَّ بغداد التي عاشت قروناً بلا طائفة بها ، هذا لا يعني أن الناس بها غيرُ صالحين ، أو أنّهم كبشر قليلو القيمة ، أو غير لائقين للحياة ، لا أبداً ، ولكن نشر المعارف على العامة خطرٌ أكبر ، ذلكَ أن الأسرارَ يجب أن تدوم ، لأنّ المعرفة سريّةٌ بطبيعتها ، وانتشارها يحطُّ من قدرها ، ولاسيّما بين أناس لديهم مميزاتٌ ودوافعُ دونيّةٌ لا سبيلَ لاقتلاعها ، وهذهِ الدوافع تجعلهم غير صالحينَ في استخدام المعرفة ، وسيجد الفقهاء الظروف الملائمة للانقضاض على هذهِ المعارف وتدميرها بالفتاوى لا بالفكر ولا بالتحليل .

وحينَ سألتهُ عن مستقبلِ الطائفة ، قالَ علينا أنْ نعرف أنّ طائفتنا متمسكةٌ بقدرها وبأخلاقها الفكريّةِ وبحريّتها ، وأنّها تقومُ بمهمّتها على أكملِ وجهٍ ، وتمثّل في بغداد طبقةً ساميّةً ، طبقةً نبيلةً من أصحاب الفكرِ والفلسفةِ ، وأنّها تنشئُ أجيالاً عديدةً ، ولن يأتي اليوم الذي تخلو فيه بغداد من المؤمنين بها .

وحين سألته عن تحذيرِ الخواجةِ سنان من الأخطارِ التّي تتهدّدنا ، فقال إنّ هذا يثير السخريةَ نسبةً له ، وبدا غير ودّي أبداً مع الخواجة سنان ، وقالَ إنّهُ يريدُ أن يلعبَ دورَ النبيِّ والواعظ في الطائفةِ ، ذلكَ أنّ القاموس على قدسيتهِ لا يمكن أن يكونَ بين أيدي الناسِ ذوي الدناءة والشغب ، أو بيدِ الذين لا يتجرّدونَ من العيبِ ، والذين هم بلا زهو وبلا قدرٍ كبيرٍ من السموِّ والكرامة .

وقـد زرتُ ذلك الوقت الخـواجـةَ عـمـاد الدين في منزله ، وكان مضطرباً إلى حدٍّ ما ، وقالَ لي إنَّ لديهِ شعوراً بأنَّ الطائفةَ تتعـرّضُ إلى خطرين يتهـددانها ، خطرٍ خـارجيٍّ يتمّثلُ بسلطةِ الفقهاءِ والقضـاةِ والسلاطين والذين ينظرونَ إلى العلمِ والمعرفةِ والفلسفةِ بازدراءٍ واحتقارٍ كبيرين ، وهنالك خطرٌ داخليٌّ يتمّثل بالخلاف بين خواجتين من خواجـاتهـا . وهذا مـا سيـمنعُ أن تكونَ هنالك صفـوةٌ قـادرةٌ على اتخـاذ قـراراتٍ حـقـيـقـيّـةٍ عند الضرورة .

ومن جانبي أنا فقدْ شعرتُ بهذا الأمرِ ، ولاسيّما بعدّ أن أصبحت حركـتي دائبةً ؛ إذْ كلّفني الخواجة عـماد الدين ذلك الوقت بالتنقّلِ بين الولاياتِ والأمصارِ لتفقّد أوضاعَ الخواجاتِ والوقوف على آرائهم ، وقد ذهبتُ تلك الفترة إلى خوارزم وإلى سمرقند وإلى البصرة والشام في حركةٍ سريعةٍ ومتواصلة .

كـما أنّني قـد حـضـرتُ أكـثـر من مرّةٍ مجلسَ الخـواجـات بصفة خاصّة ، لأنّي مازلتُ ذلكَ العهدِ في مجلس الحكماء .

وأقولُ إنّي شعرتُ ، ومنذُ وقت مبكّرٍ ، بعلاماتِ التفكّك في الطائفة ، فالتفكّكُ نسبةً لي كانَ واضحاً ، وقد ذكرتُ هذا الأمرَ إلى الخواجة عماد الدين شخصيّاً ، وقد أطرق أمامي قليلاً ومسّدَ لحيتهُ ، دونَ أن ينطق بكلمة .

ففي البـداية كـانَت هنالك قـوّةٌ داخليّـةٌ تمنعُ أيَّ شكلٍ من أشكالِ التفكّك ، أو التفرّد بالقرارات ، أو الخروج على القوانين ،

لكن أصبحَ الأمرُ الآنَ إلى حدٍّ ما منفلتاً ، ويكاد يصعبُ على الخواجة عماد الدين إعادةَ خيوط التنظيم بيديهِ كما كان بقوّة .

**

كان الخواجةُ عمادُ الدين في تلكَ الفترةِ ينشطُ في اتجاهٍ آخرَ ، وربّما أرادَ احتواء الأزمة ، وقد جعلني كاتباً له ، حيث كتبتُ له أكثرَ من مئة رسالةٍ موجهّةٍ إلى خواجات الطائفة في بغداد ، وبعض الخواجات في خوارزم ، والرها ، وسمرقند ، وبخارى ، وشيراز .

وفي يوم ، كان يسيرُ في دارهِ جيئةً وذهاباً ، ثم التفتَ لي ، وأنا متربّعٌ وأكتبُ لهُ إحدى الرسائل ، فجلسَ على مقربةٍ منّي ، وحدّثني عن تصوراتهِ الأولى في تأسيس الطائفة .

قال إنّه أرادَ تأسيس طبقةٍ من المفكرين ذاتِ امتيازات قويّة تمثّلُ مواجهةً حقيقيّةً أمام امتيازات الطبقات الفاسدة ، والتي ترعاها السلطةُ ، وتتكفّلُ هذهِ الطبقةُ بنشرِ الثقافة عالميّاً ، وتمنحُ الناسَ حقّ الاستفادةِ من العلوم بلا مقابلٍ ، وأن تتعهّدَ بترقيةِ المجتمع عبرَ نوعٍ من الثقافة السامية التي أثبتتْ جدارتها كأساس أخلاقيٍّ عظيم الفعاليّة ، ولا تميلُ إلى تقديس الفكرِ فقطْ ، إنّما إلى تقديس المتعة ، وإشاعةِ الفرح ، وتطوير الذوق لدى الناس بشكل عام . وأن تكونَ بيدهم ثقافةٌ كبيرةٌ ومصاغةٌ وفقَ شروطٍ إنسانيّة في البحث عن سبل الحقّ ، وإجلال الكرامة وتقديسِ الحبٍّ ، والبحث عن الحقيقة .

وقد شعرتُ من كلامهِ أنّهُ يعيش قلقاً كبيراً على

طموحاتهِ ، وعلى مستقبل الطائفة .

**

في الواقع كانت هنالك شكوك وأخطار على الطائفة ، وكنتُ تأكدتُ من هذه الأخطار مصادفةً ، أثناءَ بعثتي إلى البصرة للقاء بعض خواجاتها ، وقد ذهبتُ في رحلة نهريّة في السفينة مراد ، وقد التقيتُ على ظهرها مصادفةً أحدَ الخواجات القادمين من الموصل ، ذاهباً إلى الهند ، وكنّا نقفُ عندَ سياج المركب حيثُ النوتيّةُ يجيئونَ ويذهبونَ بوزراتهم وعمائمهم ، وهم يرفعونَ الأشرعةَ للريح الغربيّةِ ، وقد قال لي هذا الخواجة إنّ السجالات في الموصل تَشتدُّ هذه الأيّام بين الخواجات في المدينة .

وقال أيضا إن السجالات لا تختصُّ فقطْ بالرؤساء إنّما تنتشرُ عدواها بين جميع أعضاء الطائفة أيضاً .

في الواقع كانت السجالات في الطائفة طبيعيّةً ، وكانَت تخصُّ عملَ القاموس ، وطريقةَ تبويبهِ ، وفصولهِ ، ولوحاتهِ ، وخطّهِ ، ونقشهِ ، وتزيينهِ ، وهو أمرٌ لم يكنْ مستغرباً ، ولا مستبعداً في تدشينِ عملٍ فكريٍّ راق وسام وعظيم كهذا العملِ ، بيد أنَّ هذه السجالات أخذتْ هذهِ الأيام منحىً جديداً .

وعند وصولي إلى البصرة ، عرفتُ من الخواجات هناكَ أن الأمرَ ليس أحسن فيها .

وقد قالوا لي إنَّ السجال في المرحلة الأولى من عمل

الطائفة وأثناء تدشين القاموس وصناعته ، كان طبيعياً ، ذلكَ أن الهدف السامي لهذا السجال هو الاعترافُ بالخير العام ، وتقديس الحقيقة ، والمحافظة على النقاوة الفكريّة ، وكانَ الاختلاف جزءاً مّما كانَ يقومُ به الخواجات من جهدٍ مخلص في وضع القاموس في أفضل شكل ، وهو فضيلةٌ من الفضائل التي يقومون بها لتعزيز الحريّة الفكريّة . غير أن الانغماس بهذا السجال وحتى طبيعة هذا النقاش هو إيذان في الواقع بانشقاق خطير في الطائفة .

وحينَ عدتُ إلى بغداد ، كنتُ كتبتُ تقريري إلى الخواجة عماد ، لقد كتبتُ له بشكلٍ مفصّل ما رأيتهُ ، وعما سمعتهُ أثناء رحلتي إلى البصرة ، وبعدَ أن قرأ التقرير أوعزَ لي بالمجيء عندهُ في منزلهِ ، ووجدتهُ مكفهرَ الوجهِ وحزيناً جداً ، وكانَ يقفُ عند النافذة بينما كان الأسودُ بن الدهان جالساً على التخت وبيده الريشةُ والدواةُ وهو يكتب للخواجة عماد الدين رسائله ، فسلّمتُ عليهِ ، وسلّمتُ على الخواجة عماد الدين ، وقبلَ أن أجلس سألتُ ابن الدهان عن الخونساريّ ، قال لي إنّ الخواجة عماد الدين قد بعثهُ مبعوثاً لبعض الخواجات في الرها .

وبعدَ أن جلستُ ، التفتَ إلي الخواجةُ عماد الدين وقالَ لي إنّهُ قرأ تقريري ، وبعد ذلك جلس وهو يقبضُ على لحيتهِ ، وقال إن هذه السجالات هي واحدةٌ من العيوب والأخطار الداخليّة التي أصبحَت تثير القلق ، وأصبحَت مضّرةً حقّاً بالطائفة ،

وأصبحَت أمراً مهدّداً للأخلاق وللعقل أيضاً . بل أفسدت البعض وحولت السجال من ترفٍ في الأفكار إلى واسطة للمتطفلين والمؤذين والكذّابين والأعداء .

مفترق طرق خطير

هلْ كانَ أحدٌ منّا يفكّرُ أنّ الطائفة على مفترق طرقٍ خطير؟

كانَ الأسود بن الدهان والخونساري أوّل اثنين أقابلُهما في بغداد بعدَ هذهِ الحادثة ، واتفقنا على اللقاء في منزل الأسود بن الدهان في قطفتنا ، وحين دخلنا كان وجهه الأسود متهضماً جافاً ومليئاً بالتجاعيد الخشنة ، وقد جلس الخونساري على التخت وكانت يده قد خرجَتْ برصّةٍ ملفوفةٍ بأربعة كتبٍ ذات جلدة ورقيّة خشنةٍ صفراء ، وجلسَ ، وهنالكً جارية حبشيّةٌ تلبس خُفّها العربيَّ المدبّب الطرف ، وترتدي أساورَ غليظةً ، وبعد أن سقتنا الزنجبيل أشارتْ بيدها إلى شيخٍ لهُ لحيةٌ طويلةٌ ، مربّعةٌ ، مفروشةٌ على صدرِه ، كان متربّعاً ، يُسندُ ظهرهُ إلى وسادة ، ويُسند رأسهُ إلى يدِه . قالت هذا الصوفيُّ أبو عليّ السندي يستريحُ في منزلنا ليومين أو اثنين ويرحلُ إلى خراسان .

**

حين جلسَ ابن الدهان قال إنّهُ يرى الأخطارَ تحت عينيه .

لم يعارض الخونساري ذلك ، ولكنّهُ طالبه أن يدعّم رأيهُ بالأدلّةِ .

كانت الأمثلةُ واضحةً وكنّا نصطدم بمقاومة سلبية ولنوع من الجهالة والبلادة والجهل ، وأكاد أصفها بالصبيانيّة في النقاش . فقد انقسم الخواجات بينهم ، ولأن الخونساري من أتباع الخواجة عباس فقال إن أوّل الأخطار تبتدئ وتنتهي بالأسرار ، بينما كان ابن الدهان يريد إصدار نسخة من قاموس بغداد للعامة ، ليمنع الخطر والتقولات . غير أنه قال إنّ تاريخَ القاموسِ الفكريّ والثقافيّ في هذهِ الحالة يفقدُ معناهُ ، ولنْ تعود مضامينهُ تحظى بالرعاية الكبيرة .

وفي النهاية اتفقنا أن الموضوعات ذات الدونية هي التي تهيمن اليوم على الطائفة ، بل إن الطائفة في طبقتها العليا تعيشُ هذهِ الأيّام صراعاتٍ غاشمةً على السلطة ، وعلى السيطرةِ على القاموسِ والاحتيازِ عليه ، وهنالك حربٌ قذرةٌ وحقيرةٌ بين الرؤساء على السيادة .

VI
شقاقُ الطائفة

لا أعرف نقطةً محددّة نقول إنّها أنتجتْ شقاقاً في الطائفة ، ولكن يمكننا أن نقول إنَّ الخلاف قد تمدّد على مساحة عريضةٍ من السجالات .

إبانً ذاك ، كنتُ زرتً الخواجة سنان في منزلهِ ، وكانَ معي الخواجة حبيشُ بن دينار ، ومعنا مخطوطةٌ عظيمةٌ كانَ ابنُ مقلةَ هو الذي خطّها قبلَ أن يقطعَ الخليفةُ المقتدر يدهُ ، وقد جلسنا معاً في ديوانه أكثر من ساعتين في المساء ، وبعد أن سألناهُ عن نوع الخطّ الذي كانَ يستخدمهُ ابنُ مقلة ، حدّثنا عن هذا الشقاق أو الخلافاتِ الجاريةِ في الطائفة .

وعرفتُ منهُ ذلك اليومَ أنّهُ لا يرى في السرّية أمنًا للطائفة ، وقالّ إنَّ على الخواجة أن يعزمَ بالفعل على الذهابِ إلى نهايةِ الجزءِ البشريّ ، وهو مثلُ كلّ متعطّشٍ للعدلِ أنْ يستوحي من كلٍّ تَمَرّد في مجرى التاريخ ، صورةً لعالمٍ خالٍ من الظلمٍ ، وخالٍ من التناقضات .

وكان يعتقد أنَّ الله يُحبُّ الإنسانَ المرتبطَ بقوة بفكرتهِ ، والمفتون بعظمة مدينتهِ ، والثائر على الظلمِ فيها ، قال :

«العدلُ لا يكونُ إلا فتحاً متجدّداً دوماً ، ومتجذراً في روح الإنسان ، ومشبَعاً بالتمرد ، وعلى الخواجات أن يذهبوا بالحماسة ذاتِها إلى الله ، فالله لا يمكن أن يكون إلا عادلاً ، وإنّ الحقّ سينتصرُ حتماً بإرادته»

قلنا لهُ : نعم أنت محقّ في هذا .

قال «إذن على الأسرار أن لا تدوم ، وعلينا أن نكشف عن أنفسنا ونواجه مصيرنا»

في نزل الخواجة عباس

وبعدَ يومين ، كنتُ مع الخونساري في منزل الخواجة عبّاس ، وقد بهرني هو أيضاً بقوة حجّته ، قالَ :

- إنّ كلام الخواجة سنان لا قيمةَ لهُ ، فهوَ ينزعُ إلى استمالة الناس بهذهِ الكلمات المنمّقة ، وإننا نعرفُ أنّ المأساةَ تأتي حينما نطرحُ فكرةَ العدالةِ على الذين يحكموننا . . .

قالَ ذلكَ وهو يقفُ وسطَ حجرتهِ ، قربَ آلة الرصد الفلكيّة الضخمة ، وكانَت تبيّن كلّ النجوم في السماء وتعكسُها على مرآةٍ كبيرةٍ . ثمّ قالَ لي :

- اسمع إنّ الله عادلٌ ، وسوف يضرب الملوك المجرمين والشعوب الخرقاء ؛ وينقذ الإنسان ذا الإرادة الطيبة . هذا ما أؤمن به ، ولكن الكشف عن الأسرار سيعرضُنا جميعاً إلى وضع مهلك ومخيفٍ ، كما أنّ الكشفَ عن المعارف سيجعلها بيدِ العامة ، هؤلاء سيسحقونها ويدمّرون كلّ فكرة ساميّة فيها ،

وسيخوضون بالدمّ من أجلها ، وأنا أظنُّ أنَّ الأفكار السامية عليها أن لا تتلوّث بالدم أبداً ، مهما كانَ دم الشهادة طاهراً ، ونقيّاً . . . . أطرقَ قليلاً وقالَ :

-يجبْ أن لا تزهق الأرواحُ تحتَ أيّة ذريعة ، الخواجةُ سنان يريد أن يعرّضَ الطائفة إلى الإبادة في مفهوم الثّورة . . . ويؤلّب الأعداء عليها .

**

لم أكنْ أعرفْ ما هي الدوافعُ التي كانَ الخواجةُ عبّاس يشكك بها فيما يخصُّ ما كانَ يطرحه الخواجة سنان أبداً ، بقي الأمر نسبةً لي عصيّاً على الفهم ، وأنا في واقع الأمر لمْ أكنْ قادراً على حسم أمري جيداً ، فالخواجةُ سنانُ لا يريدُ الثورة ، كانَ يقولُ بالكشفِ عن جزءٍ من الأسرار ، وإظهارِ بعض صفحاتِ القاموس للعامّة لكي يقطع كلّ حجّةٍ ، كانَ بعضُ الورّاقين ينشرونها كرسائل مدسوسةٍ على الطائفة ، ويخلطونها مع ما كنّا نؤمنُ به من رسائل حقيقيّةٌ قد التزمناها فعلاً ، وهي موجودةٌ في كلّ مكانَ .

ويبقى السؤال الكبير الذي كنتُ أواجه به نفسي كلّ مرّة ، هل كانَ الخواجةُ سنان سيّئاً فعلاً ، أو هل هو بهذا السوء الذي كانَ يصوّرهُ الخواجة عبّاس للطائفة؟

**

في الواقع لم أكنْ في الأيّام الأولى قادراً على تكوين صورةٍ واضحةٍ عن الخواجة سنان ، ولكن ما لفتَ انتباهي هو براعتهُ

في الحديث ، وامتيازهُ في المناظرات ، وقوّةُ حجتهِ ، وحركتهُ الدائبةُ والمستمرّةُ ، فلم يكنْ يهدأ أو يركنْ بل كانَ يتحرك الوقت كلّه .

وكانَ شجاعاً ، وجريئاً في الدفاع العلنيّ عن الطائفة ، وقد سبّبتْ هذهِ الجرأةُ للخواجات الآخرين الكثيرَ من الكدرِ ، ذلكَ لأنّه لم يكنْ يخفي أفكارهُ ولاسّيما تلكَ التّي تتعلّقُ ببعض معارف الطائفة الأسراريّة ، بل كانَ على العكس من ذلكَ يعلن بجرأةٍ وتحفّزٍ كلّ أفكار الطائفة ، مما يسبّبُ بعض الحرج للآخرين ، ولاسيّما من أولئك المهتمين بتدعيم سلك الطائفة والتدرّج فيها وفقا للأسرار .

وإذا ما وضعناه مع الخواجة عبّاس سنجدُ أنّ الأخير كانَ يغلب عليه التكتّم الشديد ، والتقشّف في الكلام ، ولا ينطق إلا بطريقة رمزيّة بحيثُ يصعب الوصول إلى فكرةٍ واضحةٍ من أفكاره .

**

بعدَ وصولي إلى بغداد لم أكنْ قد تعرّفتُ على الخواجة سنان بشكل جيّد بعدُ ، وكنتُ احترسُ منهُ كلّ الاحتراس ، كنتُ أرى مكانَته أقلّ من مكانَة العبقريين الآخرين :

الخواجة عبّاس والخواجة عماد الدين .

وقد شكّلا معهُ رأس الهرم في السلطة ، أو مثلّث الحكمة .

ولم يكن بالنسبة لي سوى مختالٍ تعوزهُ ثقة الآخرين به ، ويمثّل دورَ المخالف الثائر ، وهو دورٌ مصنوعٌ يفتقرُ إلى الصدق بشكل

كبير ، ولم أذهبْ لهُ يوماً أبداً ، لا بصداقة ولا ملتمساً منهُ النصحَ ، مع أنّي رأيتهُ مرّات عديدةً في منزل الخواجة عبّاس ، وفي كلّ مرّة كانَ يراني فيها ، كانَ يبدي اهتماماً جاداً بي ، ولكن بالنظر إلى الصمت الذي كانَ يتمتع به الخواجة عبّاس ، كانَ أكثر جاذبيةً لي .

لم أكنْ أحب بطبيعتي الخاصة الخواجات المتكلّمين كثيراً ، وعليّ أن أعترف أيضاً ، كانَ الخواجة عبّاس دائمَ التشكيك به ، وحينما وصلتُ بغداد عائداً من مدرسة الحكمة ، شهدتُ بأنَّ شخصيتهُ داخل الطائفة كانَت مشكوكاً فيها ، ربّما بسبب طبيعته التي كانَت توصف ذلكَ الوقت بزيادة الحدّ في التكلّم ، وحبّ الجدال ، وفضح الأسرار ، بينما كانَ الصمتُ ، ليس لي وحدي ، إنّما للجميع ، هو الأكثر غوايةً للآخرين ، وقد اجتذب الخواجة عبّاس الكثيرين ، فالصامتُ يحملُ قوّتهُ في هذا الخرس الشديد غير المنطوق ، بيّنما المتكلّمُ يحملُ كلّ جذور سقوطهِ في كلامه .

أمّا من أينَ كانَ يستمد الخواجة سنان قوّتهُ ودعمهُ ، فقد كانَ يستمدّها من الخواجة عماد الدين ، الذي كانَ مؤمناً إيماناً شديداً ذلكَ الوقت بذكائه وفنّه وعبقريتهِ ، ومن بعض أعضاء مجلس الخواجات ، وممن كانَوا معادين صراحةً أو خفيةً للخواجة عبّاس وأفكاره .

مع ذلكَ ، لم يكن الخواجةُ سنان سطحاً لا تتخلّلهُ بعض النتوءات في رؤيتي له أوّل الأمر ، بل بالعكس قد وجدتهُ وسيماً متأجّجاً ومتكلّماً ناريّاً على الدوام ، ولاسيّما في سجالات الطائفة حول قاموس بغداد ، وكانَ وضعهُ الاستثنائي في الطائفة هو الذي صنعَ لهُ بعض المريدين ، فقد كانَ يطالب على الدوام بتوسيع الآفاق ، بمعلوماتٍ أكثرَ ، بتنويرٍ ، بتوضيح ، وكانَ لا يتورّع عن أن يعرض خلجاتِ الشكّ والنقد والتي تثيرُها كلماتهُ على مجلس الحكماء ، وربّما حتّى دون هذهِ الرتبة أيضاً ، ولم يعبأ باحترام الحياة المراتبيّة السرّية إلا قليلاً .

وهذا ما كانَ يثير عاصفةَ الغضبِ عند الخواجة عبّاس ، فقد كانَ يعتبرُ الخواجة سنان شخصاً موهوماً مغروراً في ذاتهِ ، متعاظماً في قيمتهِ ، وعلى الخواجة عماد الدين أن لا يلتفت إليهِ ، وبعدَ أن ذهب في أبحاثهِ الفلكيّة ليتعمق ويندمج بها ، كلّم الخواجة عماد الدين بأن مجلس الخواجات هي الجهة الوحيدة التي ينبغي على الخواجة سنان أن يعرضَ عليها شكّهُ وقلقهُ .

ومن المعروف أنَّ في هذهِ الفترة بالذات وصلتْ علاقتهما إلى قمّة أزمتها ، بل إنّ عدمَ الود الصريح والكراهيّة المبيتة أصبحَتا في صورتها المكشوفةِ بين الاثنين ، وربّما بسبب هذا الأمر عدَّ الخواجة سنان هذا الرأي الذي تلفّظَ بهِ الخواجة عبّاس أمام الخواجة عماد الدين هو بمثابة وشاية به .

**

ولكن مع مرورِ الوقتِ بدأتُ اقتربُ من الخواجة سنان، بعدَ ذلكَ بدأتُ أزورَهُ في المنزل، وأطّلع على أعمالهِ الفنّية، أي إنّني في تلك الفترة كنتُ قد اقتربتُ منهُ أكثر، وتعرّفتُ عليهِ بشكلٍ أفضل، بل أصبحَنا صديقين، ومن السهل أن يحدث ذلكَ، فقد رأيت فيه شخصاً موهوباً وملهماً، ومع أني كنتُ معهُ على طرف نقيض في بعض أفكارهِ إلاّ أنَّ ما جذبني به هو فطنتهُ العاليّةُ، وقدرتهُ على التعامل مع الفلسفاتِ الكثيرة ذلكَ الوقت، وقدرتهُ على استخلاص نتائج صافيّة وهو يتتبع قواعد الجدل المنطقي ليهيىء إمكانَية نقضها وهدمها.

VII

الفرق بين الخواجة سنان والخواجة عبّاس

وبالحديثِ عن الخصومة بينهُ وبين الخواجة عبّاس يمكننا أن نردّ هذهِ الخصومة إلى عاملٍ آخر، وهو الاختلاف بين منشأين، أي الاختلافُ في منشأ الخواجة عبّاس المنحدر من طبقات الفقراء في ريف فارس، عن الخواجةِ سنان المنحدر عن طبقات الأشراف في مدينة بغداد، بل هو من عائلةِ عدّت السابعة من بين عائلات أشراف بغداد، وهو المسرد الذي كانَ يقدمه البلاط العبّاسي للجمهور كلّ عشرة أعوام، وكانَوا يهيمنون على سياسة الأوزان في بغداد وفي الكثير من أقالَيم الدولة العبّاسية، وقد قالَ لي الخونساري مرّة إنهم هم الذين عدّلوا حسابات الموازين وتعيين أقيامها وصيرفتها مع التجّار القادمين من الصين أو من الهند، وكانَ لهم علمٌ ومعرفةٌ واسعةٌ بالصيرفة مع اليهود وبالتجارة مع الفرس، وكانَ الانخراطُ في سلك الطائفة عملاً معروفاً ومألوفاً ومتوقّعاً من كلّ أبناء الأسر الشريفة في بغداد ذلكَ الوقت، وليس غريباً أن ينخرط أحد شبابهم وممن يتمّتعون بالعلم والمعرفة في سلك الطائفة أو الانخراط في تنظيماتها، مع أنَّ عائلات التجّار المنغمسين في

اللهو والمتعة نادراً ما كانَوا يشتركون في قضايا الشأن العام ، إنّما كانَ الشباب المنخرطون في النظام هم في الأغلب من طبقة البنائيين كما هو عليهِ طبقة الخواجة عماد الدين ، وحتّى الطبقة التي أنحدرُ منها أنا .

**

إذنْ لا غرابةَ في انخراط الخواجة سنان في التنظيم وليس كما يزعم أحياناً ممّن يكرهونهُ في الطائفة في تساؤلاتهم عن غرضٍ آخرَ في هذا الانتساب ، والغرضُ منهُ التشكيك في شخصيتهِ ، وقتله معنويّاً ، ومن ثمَّ إن الخواجة سنان كانَ بغدادي المنشأ ، ولعائلتهِ حضورٌ بارزٌ في النشاطين التجاريّ والسياسيّ منذُ عهد الخليفة المأمون ، بيْنما الخواجة عبّاس كانَ فتى فارسيّاً فريداً في وحدتهِ ، وعزلتهِ ، عاش طفولتهُ متصوّفاً دون نسبٍ أو عائلةٍ ، وكانَت له رغبةٌ عارمةٌ في الانخراط في حياة بغدادً ، وعيشها كمدينة مثاليّة على طريقتهِ ، أي مدينةُ معرفةٍ وعلم وفلسفةٍ ، مدينة المدارس الأسراريّة والحركات والطوائف الجديدة والنزعات التي لا يمكن أن يعثر عليها في الريف الذي قدم منهُ .

الخواجة عبّاس

مع ذلكَ وكنتُ سألتُ نفسي مراراً ، هذا هو الخواجة سنان ، هل يمكنني أن أكون من تابعيه أو مريديه؟ لا أبداً ، لا يمكنني ذلكَ .

من البساطة لشخص مثلي أن يذهب وهو مغمض العينين إلى تابعية الخواجة عبّاس .

أوّلاً لم يكن الخواجة سنان بالرغمِ من كلّ مهاراته اللغوية واللسانيّة أن يكون بالمستوى العلميَ لهذا الفلكي والعالم الروحانيّ الجبار : الخواجة عبّاس .

إنّهُ من معدن مختلف ، إنه من معدن لا يشبه أحداً في الطائفة مطلقاً ، من معدن نادر حقاً . وما ميّزهُ هو انتظامهُ المبكّرُ وانتسابهُ وهو شاب في التنظيم ، وهنالك أساطير كثيرة تروى وكرامات لا حدّ لها عن اهتدائه للتنظيم ، شيء شبيه بالقصّة التي عُرفتْ عن مولانا الصحابي سليمان الفارسي ، وحسبَ رواية الخواجة سنان أنّها من اختراعه هو ومن تأليفهِ ويقوم ببثّها بين أعضاء التنظيم لكي يضفي هالةً مقدّسةً على نفسه .

ولكن هنالك شيئاً لا يمكن أن ينكره أحدٌ ، ولا حتّى الخواجة سنان ، هو التربية الروحيّة المتميزةُ التي وصمت شخصيتهُ ، تربيّةٌ روحيّةٌ توشك أن تكونَ كاملةً ، وهذا هو الذي جعل الهدفَ الأساسيَّ من انتظامهِ وانخراطهِ هو عالمُ الأسرار ، والخدمة والسهر على النظام .

يقيناً لم يكن الخواجة عبّاس من أبناء صنّاع بغداد ولا من أبناء البنائين ولا من الأسر الموسّرة التّي قدّمتْ للنظام أبطالها ، إنّما هو صبيٌّ من ريف خراسان ، كانَ والدهُ يعملُ في زراعة الكروم ، كما كانَ أسلافهُ يفعلون ، غير أنّهُ هرب من منزل والدِهِ ، وجاء على ظهر قافلةٍ يقودها تاجرٌ سمينٌ وقصيرٌ من

التجّار التركمان الأذريين الذين يحملونَ الكرومَ من خراسان إلى مازندان ، حيثُ يحوّلها الصنّاع هناكَ إلى نبيذ أبيض ، ثمَّ يأخذون الدنان الكبيرة على ظهر جمالهم إلى بغداد .

**

وفي مازندران تعلّم قواعدَ اللّغةِ والشعرِ وشروح الكتاب ، وتعرّب حتّى قلبه ، ذلكَ أنّهُ قام على خدمة شيخ متحمّس ، وصوفيٍّ جسور من بغداد ، اسمّهُ قيس بن سلامة بن عيّاش ، ومنه استبطنَ ممارسةَ الشعائر عبر الفقرِ الروحيِّ والمجاهدة بالنفس ، لكي يتذوّق سحر البلاغة الصوفيّة ، وكانَ من الزهّاد الذين يرومون تفسيراً رمزياً للقرآن متأثراً برسائل إخوان الصفا ، وقد لبس ذلكَ الوقت الخرقة متشبهاً بوعاظ بغداد الشديدي الحمية بالضدِّ من ترف مواطنيهم الموسّرين ، واستلهمَ الإسلام الكامل لا من الأنبياء فقطْ إنّما من المتصوّفة أيضاً ، ومن التعليم السرّي لإدريس (هرمز) ، والخضر (إيلي) ، وبلغ حياة رهبانيّة لم يبلغها الرهبان النصارى في ابتغاء مرضاة الله أبداً .

غيرّ أن شيخهُ ، عندما دنتْ منيتهُ ، وقبيلَ وفاتهِ بيومين ، أمرهُ بالرحيل إلى بغداد كي يجدَ لنفسهِ طريقه الخاص به هناكَ ، أما لماذا بغداد؟

ذلكَ أن الشيخ البغدادي كانَ يرى أن بغداد ستكون تحت وطأة أزمة فريدة ، أزمة ذات لون قياميّ . وكانَ الخواجة عبّاس ذلكَ الوقت مسلّحاً لا بالحميّة التي يزكّيها إخلاصهُ التامُ في تلبية نداء الزهد فقطْ ، إنّما بالفيضِ الروحيّ أيضاً . الفيض

الذي يستوحيه من الوسيط الكلاميّ واللغويّ (الجفر) الذي تعلّمه على يد شيخه البغدادي الجليل، ومنهُ سمع للمرّة الأولى ببغداد.

**

فخرج يريد هذه المدينةَ البعيدة، خرجَ إلى الطريق وهو يمسك بيده عصاً من الخيزران، ويضعُ على ظهره زوادة لا تحتوي إلاّ على قطعة صغيرة من الخبز الشعير وبعض فردات التمر، وكانَ لا يرتدي من الملابس إلاّ الأطمار، ويضع على رأسهِ عمامةً بيضاء صغيرة لونها كالح.

توقف في الطريق المؤدي إلى بغداد

يقولون إنَّ الصبي الصغير، الذي أصبحَ فيما بعد رئيس الطائفة الخواجيّة، قد صعد على آخر جمل من جمال القافلة الأذريّة العائدة للتاجر التركمانيّ القصير، وسار الجمل به على طريق لاحب باتجاه الغرب، ماراً ببيادر الصيف التي تذكّره برائحة القمح في خراسان، فجذبهُ لون السنابل قرب الأهراء وهو يسمعُ أغاني الحصّادين وهم يصعدونَ على الحمير الصغيرة، رأى شجرة منعزلة في السهل، وبستان نخيل كثاً على جوانب السواقي، وكانَ الماءُ يروي جذورها في الثرى عميقاً، وكانَت النساء حافيات الأقدام يلامسنَ الثرى المبتلّ، ويسرنَ على لزوجةِ الوحل، بينما تحملُ الحميرُ الحصائد المتضوّعة.

**

وحين هبطت القـافلةُ بهِ إلى مكان ظليلٍ دعـاهُ التـاجـر الأذريُّ إلى الغداء ، وكانَ هو أدسمَ غذاء تناولهُ في حياتهِ ، لقد شعر بهذا الطعام مفرطاً مثل مجون ، حيثُ لم يجربْ في حياتهِ سوى نشوةِ الصوم ، نشوة الجوع ونشوة الظمأ ، وكأنّه يتذوق الطعام وللمرّة الأولى بإحساس غنائي رحيب . لقد شعر بنوعٍ من السعادة المحسوسة ، فمن بين مباهج الحواس جميعها غبطً تلك اللحظة حاسة الشمّ واللّمس ، وشعر بنشوةٍ جديدة تشبهُ الدوخة والدوار ، فتساءل في نفسه إن كانَت هذهِ النشوةُ هي التي تحرّف الأفكار؟

وبعدَ وصوله إلى بغداد ، سأل عن الخواجة عماد الدين ، ودلّوه على منزله .

وحين واجههُ وجهاً لوجه ، قالَ له إنّهُ يريد أن يكون أحد مريديهِ ، وواحداً من التنظيم ، ففزع الخواجةُ عماد الدين ذلكَ أنه لم يشاورْ في هذا الأمر سوى اثنين من مساعديه .

قالَ له الخواجة عماد الدين وقد اصفرّ وجههُ : من أين عرفتَ بأمر التنظيم؟

قالَ له جاءتني هذهِ من رؤيا مقدّسة وأنا في خراسان ، حيثُ مرّ بخاطري شيخي الجليل وقالَ لي أن أذهب ، وأتبعك وأكون معكَ في هذا النظام .

الفصل الثاني

الحملةُ على التنظيم

I

عرفت بانكشاف أمر التنظيم وقاموس بغداد

لمْ أكنْ أعرفْ مطلقاً أنَّ هذه المناظرات بإمكانَها أن تقود إلى حملة شرسة على التنظيم، أوّلاً لأنّ هذهِ المناظرات كانَت داخليّةً، وكانَت محصورةً بين عدد من الخواجات، وثانياً أن التكتّم الشديد والسرّيّة التي يتمتع بها التنظيم لا يمكن لها أن تخترق مطلقاً.

الشيء الآخر هو مفاجأتي بأن الهجوم كانَ مبيتاً، فقد حدثت هجمة قاسية وشرسة وخلال فترة قصيرة جدّاً ومحدودة، وشكّلت معرفتي بالأمر مفاجأةً، أشبه ما تكون بالصدمة، فقد كنتُ في يوم ولا أشدّ من عاديته، وكنتُ قصدتُ سوق الثلاثاء للتبضّع بصحبة زوجتي سميّة، وخادمتي جلّنار، وكنتُ سعيداً جدّاً.

أسير في السوق في ظهيرة شتويّة جميلة، وقد بدأت خيوط الشمس تسخن، ورذاذ موج دجلة يهمي على الوجوه. وكانَت رياحٌ شرقيّةٌ عاتيةٌ تدفع الأمواج بعنف، فيتناثر منها الرذاذ ويصل حتَّى السوق، وفي دكانَ الأسماك كانَت رائحة الصيد والشباك تملأ المكانَ، وهُنالكَ ثلاثة من الصيادين تنبعث

من أجسـادهم رائحة الموج ، يرتدون أسـمـالاً باليـةً من جلد الغنم ، ويحتسون الزنجبيل ويحدقون في دجلة .

فجأة رأيتُ الخواجة علي بن محمد القالَي ، وما أثار انتباهي بالخواجة القالَي هي نظرتهُ المتلهّفةُ ، وعيناه المتقدتان . على أيّ حال ، هكذا بدتا لي ، ما إن تلاقت عينانا - بدا أنّهُ يتأكّد من أنني الشخص الذي يبحث عنهُ ، فقد كانَ في الطريق على حصانه عائداً من سوق الورّاقين ، وعلى وجهه قطرات العرق تسيل بسبب الشمس اللاسعة ، فتهبطُ على لحيتهِ البيضاء المحنّاة ، وكانَت عمامتهُ القرمزيّةُ مائلةً إلى الوراء ، تظهر قليلاً من مقدمة شعر جبهته ، فقالَ لي وهو يحمل كتاباً كبيراً للفيلسوف الفارابيّ ، كانَ قد اشتراهُ من أحد الورّاقين في السوق :

- توقّف . . توقّف أريد أن أكلّمك . . وهبط من جواده وكأنّهُ يصافحني ويريني المخطوطة ، وبصوت واطئ جدّاً قالَ لي :

- هلْ سمعتَ؟

- لا . . ما خبرك؟

- اليوم في الصباح تمّ اقتياد الخواجة عماد الدين إلى رئيس الشرطة .

- ماذا تقول؟

- هذا ما أقولهُ لك ، أمرُ الطائفةِ قد انكشف ، وعُرفَ رؤساؤها ، والشرطةُ تبحثُ اليومَ عن قاموس بغداد .

- كيف حدثّ هذا الأمر ومتى؟

- اليوم صباحاً ، احذرْ ولا تتصل بأحد ، ولاسيّما الخواجة سنان .

- الخواجة سنان لماذا؟

- يقالَ إن الخواجة سنان هو الذي أفشى أمرَ الطائفة وأمرَ القاموس ، وهو الذي دلَّ على أن رئيس الطائفة هو الخواجة عماد الدين .

- شيءٌ مستحيلٌ . الخواجة سنان ، قلت لهُ هذا ، وقد مادت الأرضُ بي .

- هذا ما أقولهُ لك ، أيّاك أن تظهر في أيّ مكانَ .

- الأوامر هي : عليك أن تلزم دارك .

- هل سقط الكثيرون في قبضة الحرس السلطانيّ؟ أنا سألته .

- نعم كثيرون ، وأصحابك معهم .

- من تقصد؟

- ابن الدهان والخونساري .

- يا إلهي ، وماذا فعلوا بهم؟

- إنّهُم يتعرضون إلى تعذيب مريع ، وأنا جئتُ هنا إلى السوق ، كي أبلّغَ من الخواجات من أراهُ ، لأنّ الكثير منهمْ لا يعرفون ، وأدّعي أنّي أبحثُ عن كتبٍ نادرةٍ ، وهكذا أرى الآن أحدهم ، اذهبْ أنتَ الآن والزمْ داركَ ، وسوف تأتيك الأوامر من قبل الخواجة عبّاس ، فهوَ الذي استلم أمر التنظيم ، لقد أصبحَ هو الرئيس الآن .

«الخواجة سنان» قلت في نفسي ، وأنا أقود زوجتي من يدها ، ونهرع قافلين إلى المنزل .

غضبٌ وقلقٌ كبيران

حينَ دخلتُ المنزل ، شعرتُ بغضب شديد جعل يديَّ ترتجفان . خلعتُ عمامتي وقفطانيَ وأخذتُ أسيرُ في حجرتي رواحاً ومجيئاً ، ثمَّ وقفتُ أمام النافذة وأنا أتطّلع إلى بغداد وموج دجلة الذي يصعد إلى الضفّة ، وقد اختمر قلبي بالحقد ، كنتُ أفكّر بأمر هذهِ الوشاية الحقيرة ، وأفكر بالخواجة سنان مستغرباً وأكاد أجنُّ من الغضب وعدم التصديق ، ما كنتُ أدرك يومها أنَّ هذا الفنّان الماهر والحكيم سيغدر بهذا النظام العظيم الذي أمرنا الله سبحانه بإعلاء شأنه . وسينسى كلمات قاموس بغداد ، وسينسى الأقطاب ، ويسلّم الأسرار ، وتضيع بغداد ، هذهِ المدينةُ الإلهيّةُ التي بإشراقها تقلعُ السفائنُ رائحةً غاديّةً ، وتثبُ الأسماءُ في أنهارها ، ويتلألأ بشعاعها العالمُ الذي نعيشُ فيهِ .

**

نمتُ قلقاً من التفكير ونهضتُ في العصر .

بغداد هادئةٌ ، شمسٌ ذهبيّةٌ ما زالتْ تميلُ نحو الغروب ، رائحةُ البخور تأتي من أسفل المنزل ، نهر دجلة يبدو مثل سيف مدرّع بالفضّة يمتدُّ من الشمال إلى الجنوب ، سماءٌ زرقاءُ لاظيةٌ ، نورٌ يتدفّقُ فيها تدفّقاً عظيماً ، من بعيد أرى أكوام

الحجارة والخرائب الملتحفةِ بالحشائش والأشجار التي تقودُ الدرب إلى قطفتنا .

من مكاني كنتُ أرى محلّةَ الحربيّةِ مغلقةً بحشدٍ من الفرسان ، ومن الجهة الأخرى كانَت منفتحةً على السوق ، ومن الجهة الشماليّة ترتفعُ وهدةٌ حمراء ، شُيّدَ عليها منزلُ رئيس الحرس ، وبعض منازل ضباط الجيش ، وأسفل الوهدةِ شُيّدتْ منازلُ التجّار تحيط بها الحدائق التي تبعثُ روائحَ متعدّدةً ، وتتعرش الأشجار بخضرتها القويّة ، وأزهار الجوري الطويلة نابتةٌ من الأ،ض العسجديّةِ اللون .

محاكمة الخواجة عماد الدين

بعدَ يومين جاءني نبأٌ ، أنَّ محاكمةَ الخواجةِ عماد الدين ستكون يومَ الخميس بعد الظهر . فقررتُ الذهاب .

دخلت متلثما إلى المحكمة ، كانَت الريحُ خفيفةً ، والشمسُ تلفحُ الجانبَ الأيمن من وجوه الجالسين .

بابٌ كبيرةٌ مفتوحةٌ على النهر ، وسجنٌ ضخمٌ ، وجدرانُ القاعة عاليةٌ جدّاً وفيها نافذةٌ في الأعلى حيثُ يدخل نورٌ وهّاجٌ يهبطُ من السماء إلى الأسفل ، ومن الباب الحديديّة الكبيرة المفتوحة يبدو مشهدُ النهر عريضاً واسعاً ، وتبدو المراكبُ والقواربُ التّي يحملُها السيلُ جارفاً وجارياً بقوّة .

إنّهُ عالمٌ مستمرٌ غير آبهٍ بهذا الذي يجلس وراءَ القضبان ، لقد كانَ الخواجةُ عمادُ الدينِ بابتسامتهِ الوضيئة جالساً على

تخت . كانَ حاسر الرأس ، عاري البدن بعدَ أن نزعوا عن جسدِه القميص ، ووقفَ خلفه حارسان أسودان بالعمائم البيض والرماح ، وقد أنزلوا إلى الأرض قيودهُ ، وقبلَ أن أجلس ألقيتُ نظرةً متألمةً أخيرةً على هذا الخواجة العظيم ، الجالس بلحيته المدببة الصغيرة ، بعينيه الواسعتين والذكيتين ، وبيديه اللتين صنعتا المعجزات في بيمارستانه الذي ورثه عن سيّدي الخواجة أبي بكر الرازي .

وكانَ القاضي عبد الرحمن واقفاً أمامهُ ، كانَ قاضياً وشاهداً ، وعلى التختِ الآخر كانَ القاضي أبو حسن الحلواني يجلسُ ويكتبُ بريشتهِ في ورقة ، وعلى اليمين مجموعةٌ من القضاة وشهود الزور ، وكانَ القاضي عبد الرحمن هو الأعلى صوتاً ، ماشياً ، رائحاً وغادياً ، متبختراً أمام الجميع ، ومتهماً الخواجة عماد الدين أنّهُ يريد أن يجعل للعالم الدنيوي قيمةً ، ومتهماً إيّاه بالإلحاد والهرطقة .

لم يكن الخواجة عماد الدين موثوقاً وهو يدافع عن نفسه ، إنما كانَت السلاسل على الأرض عند قدميه ، وكانَ يتحدّث بثباتٍ بصوتهِ المتهدّج وهو يقول لهم :

«لماذا تريدون قتلي لقد فعلتُ ما فعلتُ من أجل بغداد» .

فاستهزأ به القاضي عبد الرحمن وصرخَ بوجههِ :

«ما معنى بغداد ، إنها جزءٌ من دار الفناء ، أنتَ تريدُ أن تزيّنَ لأهل بغداد هذا العالم الدنيويّ ، وهو عالمٌ بلا قيمة ، إنّهُ عالمُ زيفٌ ، عالمُ غوايةٍ . إن بغدادك هي جزءٌ من هذا العالم ،

وهي ليست استثناء . وأنتم والله ما أردتم سوى كتابٍ يلهي المؤمنَ ويزيّن لهُ الدنيا وملذّاتِها . . .»

- هذا غيرُ صحيحٍ ، هذا غير صحيح ، نحن لم نبتعدْ عن كتاب الله ، وما أردناهُ هو أن نقرّب بين الفلسفة والشريعة ، بعدَ أن امتلأ الدين بالشعوذةِ والخرافاتِ ، وقاموسُ بغداد هو من محبّة ما خلق الله . .

ضحك القاضي ، وضحك شهود الزور ، قالَ أحدهم لهُ : «إنَّ هذا العالم مدنسٌ لأنّهُ دنيويٌّ ، لأنّهُ تافهٌ ، لأنّهُ مؤقّتٌ محكَومٌ بالزوال ، وهو مرتبطٌ بصنائع الشيطان ، وهو مغوٍ ، ومكتظ باللذائذ التي تبعدُ المرءَ عن الاتصال بخالقهِ ، وعن التزام سُبلِ الآخرة» .

قالَ آخر : «هذا العالم عالمٌ غير جدير بالاحترام والتقدير ، وغيرُ جديرٍ بالتصوير ، وأنتم تريدون أن تخلعوا على هذا العالم منحَ قيمة اعتباريّة لموضوع مصوَّر» .

وبينما كنتُ أستمع إلى هذهِ المناظرة الظالمة ، جاءني ابن القدّاح وهمس في أذني ، قالَ لي إن الخواجة عبّاس يريدك أن تلزم منزلك حالاً .

قلتُ لهُ سمعاً وطاعةً ، وهرعتُ نحو منزلي . وكانَ صوتُ الخواجة عمادُ الدين يرنُّ في أذني ، وصورتهُ الأخيرةُ لا تفارق مخيلتي .

دون شكٍّ ، كانَت عمليّةُ إخفاء القاموس هي الشغلُ الشاغلُ لمن بقيَ من الخواجات ، وذلكَ أوّلاً أنَّ حملةَ المداهمات لمنازل الخواجات لم تبدأ بعد ، فالخواجة عماد الدين لم تدنهُ المحكمةُ إلى الآن ، كما أنَّ الفقهاء قد انقسموا بشأنه ، والمحاكمة لم تنتهِ حتَّى الآنَ ، وليسَ من المستبعد إدانتهُ ، وبعدَها تبدأ مرحلة تنكيلٍ بأعضاء النظام ، والبحث عن القاموس .

**

بعدَ أن وصلتُ المنزل بساعةٍ دخلَ المنزل اثنان من أبناء الخواجات هما محمّدٌ ابن أبي ربيعة ، وجميلٌ بن مبارك الحارثي ، ومعهما كتابٌ مختومٌ من الخواجة عبّاس يطلب منّي أن أسلمّهما القاموس لإخفائهِ في مكانٍ أمينٍ .

قلت لهم إنَّ القاموس في منزلي ، وأنا سأدفع عنهُ حتى أقتل ، ولكنْ من الأفضل أن يكون في مكان خارج بغداد ، وخارج سلطة القضاة ورئيس الشرطة ، فقالا لي إنّهما سيحملانه إلى نيسابور ، فهُنالكَ بعض الولائيّين والخواجات الذين سيحرسونهُ بأرواحهم ، كما أنّ هُنالكَ بضعةً من الخواجات الكبار من بني الحارث ، ولهم تأثيرٌ كبيرٌ على حكّام نيسابور ، وهنالك بعضٌ من مواليهم الذين انتسبوا إلى الطائفة ، أو درسوا في مدرسة الحكمة في طبرستان ، وسوف يحمونهُ لو تعرّض إلى مكروهٍ .

أخرجتُ قاموس بغداد بصندوقهِ الخشبيّ بعدَ أن غطّيناهُ بالخرقِ ، وحملناه على بغلٍ كانَ معهما ، وقالا لي إنّ بعض ضباط الحرس من أبناء الخواجات على بوّابة خراسان بانتظارهما لتمريره .

**

بعدَ أيّام كنتُ عرفتُ أنّهُما حملاه في رحلة شاقة إلى نيسابور ، وقدّ حفر لهم بعض الخواجات حفرةً عميقةً أشبهَ بالقبر ، ودفنوهُ فيها ، غير أنهم شكّوا بأحّد المتآمرين ، ولذلك قّرروا إخراجه من المقبرةِ بعدَ يومين من دفنهِ ، وتمَّ تحميلهُ في قافلة كبيرة من التجّار الذاهبين إلى أصبهان ، وفي جامع أحد الأولياء تمّ دفنهُ أيضاً ، وخلالَ يومين وصلَ من بغداد أحد الضبّاط وبعض العسس هناكَ ، فشكّ الخواجات في وصولهم بأنّهم تنبّهوا لوجودهِ هُنا ، فقرّروا نقلهُ إلى بلخ ، وهناك انقسمَ الناسُ فيما بينهم على هذا المدفون ، وظنوا أنّه أحدُ الأولياء ، أو الشهداء ، وخافوا من افتضاح الأمر ، فتمّ نقلهُ إلى سمرقند ، ولكن اجتمعَ مجلسُ الخواجات وقرّر نقلهُ إلى واسط .

ويقالَ إن الخواجة عبّاس الطغرلي هو الذي نقلهُ إلى تلك المدينة الواقعة جنوب بغداد في ذلكَ الوقت العصيب .

رحلة عبّاس الطغْرلي وقاموس بغداد إلى واسط

كانَ ثمّة قارب رسا في طريقهِ إلى واسط ، وهي بلدةٌ كبيرةٌ على مسيرة يومين إلى جهة الجنوب من بغداد ، كانَ يقطنها

ذلكَ الوقت أشهر التجّار في الأمصار الإسلاميّة ، بعدَ تجّار بغداد ، وكانَت منازلها وقصورها تمتدّ بشكل صفّين على جهتيّ نهر دجلة .

**

على ظهر القارب كانَ الخواجة عبّاس الطغْرلي متخفياً بزيّ تاجرٍ فارسيٍّ مع زوجته وقينة من قيانهِ ، وقد كانَ الخواجة عبّاسٌ فى عجلةٍ من أمره ، وهو يحمل قاموسَ بغداد معهُ ، فقد رحل مع أصحابِ القارب الذين أبحروا سريعاً ، حيثُ كانَ أمرُ الريح مواتياً ، وشراع المركب عالياً ، فوصل القارب واسط ظهيرة اليوم التالي .

بعد مدة من الزمن وصلتنا رسالة سريّةٌ تشرحُ هذا الأمر للتنظيم ، وتقولُ :

إنَّ الله سبحانهُ هو الذي دعاهُ لهذهِ لرحلة المباركة ذلكَ اليوم ، وليس لنا إلاّ أن نقول وبقلبٍ عامرٍ بالإيمان كانَ الخواجة واقعاً ذلكَ اليوم تحت واحدة من الإشاراتِ الإلهيّة ، لإخفاء الصفحات المقدّسة من القاموس من أعين عسس السلطان ، وقد وضعها أول الأمر في مزارٍ شريفٍ لأحد الأولياء ، ثمَّ نقلها إلى مقبرة للمسيحيّين طمرتْ منذُ زمنٍ بعيدٍ بسبب بطش الرومان ، ثمَّ وضعه في مكانٍ آمنٍ لاً يعرفه إلا بعض الخواجات .

ولكنْ هل بقي هذا القاموس في هذا المكانَ آمناً .

II
ذهابي إلى منزل الخواجة عبّاس

حتى الآن كانَت محاكمةُ الخواجة عماد الدين مستمرّةً، غير أنّ القضاة فشلوا في توقيع إدانةٍ صريحةٍ بحقّهِ، وساعد في ذلكَ الاضطرابُ السياسيُّ العامُّ في بغداد بسبب التهديد القادم من التّتار، ورسالة جينكزخان إلى الخليفة، وثورةِ الخبز التي قام بها فقراءُ بغداد.

وفي تلك الفترة أثيرت إشاعةٌ بين الخواجات، أنّ القضاةَ توصّلوا إلى إدانةٍ صريحة، وأنَّ هُنالكَ أمراً باغتيال الخواجة عبّاس. وحينَ وصلني هذا الخبرُ شعرتُ بأسى حقيقيٌّ، لم أستطع النوم، ولم أصبْ من الطعام شيئاً، وكنتُ أتساءل على الدوامَ، لماذا أنا جالس في منزلي، ماذا أصنع هنا؟ الخواجةُ عماد الدين في المحكمةِ يواجهُ مصيرَ الموت لا محالة، والخواجة عبّاس مهددٌ بالاغتيال، والعسسُ يبحثون عن قاموس بغداد، فماذا أصنعُ في منزلي؟ ألا أصنعُ شيئاً للطائفة، هل سأموتُ مثل الكلابِ في منزلي وبين نسائي، هل أعيشُ الحياةَ بعدَ ضياع القاموس وضياع بغداد. عندها ارتديتُ ملابسي، وتحزمّتُ بسيفي وخنجري، وتلثّمتُ، وشرعتُ بالذهاب إلى

منزل الخواجة عبّاس لحمايتهِ .

**

بعدَ عدّة عطفات ولجتُ دربَ الوند حتَّى الدار التي أنشأها دانيالُ الصيرفيّ ، وكانَت دار الخواجة عبّاس بجوارها وتطلُّ على النهر . وقفتُ أوّل الأمر على مبعدَة من الدار أنتظر أن يخلو الشارع لألج الدار ، فقبل الوصول رأيتُ جمعاً غفيراً من الشرطة على خيولهم يشتمون ويضربون بالسياط بعض فقراء بغداد الهائجين ، وكان البعضُ منهم يهربُ فيدخلُ في دربِ الوند ، ويتجهُ نحو النهر . .

وبعد أن خلا الشارع اقتربتُ من الدار ملثّماً وخنجري في حزامي ، غير أن مجموعةً من الفرسان وهم ثلةٌ من خيرةِ حرس السلطان يرتدون الدروع والقلانس دخلوا الشارع ، فعرفتُ أنَّ المعركةَ ستبدأ ، وأنَّ حملة الإبادة الموجهة ضدَّ الطائفة ستعلنُ اليوم ، وربّما منتصف الليل سيجبر القضاة الوزير على توقيع صكٍّ بالموت على الخواجات .

وقد لبثتُ ساعةً خلف الشجرة العظيمة في الشارع ، حتَّى رأيتُ جارية الخواجة عبّاس في رداء سابغ وبرقع أبيض يغطي وجهها قد هرعت راكضةً من المنزل ، ركضتُ وراءها وأمسكتُ بها ، ووضعتُ يدي على فمها بقوّة كي لا تصرخ ، وهبطتُ معها إلى الأرض ، ونمتُ فوقها ، وكشفتُ لها عن وجهي بسرعة وأنا أقول لها «لا تخافي لا تخافي أنا الخواجة نصري . . .»

وبعدَ أن تأكدتْ من وجهي ، ورأيت عينيها اللتين ذبل

الخوف فيهما هدأتا . . .رفعت يدي عن فمها .

- أين الخواجة عبّاس . . .؟

- في الدار يا سيّدي . . .لماذا؟

- اذهبي له في الحال وقولي له إن الحرس السلطانيّ يملأ شوارع بغداد ، وعليه أن يختفي قبل القبض عليه . .

- حسنٌ يا سيّدي . . .

- وأنا هنا سأبقى في حراسة الدار . .

- حسن يا سيّدي . .

ثمَّ قمتُ عنها وتركتها تعود إلى المنزل ، ولكنْ بعدَ برهة عادتْ إليَّ راكضةً ، وهي تتلفّتُ يمينَ ويسارَ الدرب ، لئلاّ يراها أحدٌ .

- سيّدي خواجة نصري . .الخواجةُ عبّاس يقولُ عليكَ بالحضورِ حالاً ، هو موجودٌ في الديوان مع بعض الخواجات .

عدّلتُ من هيئتي وتبعتُها إلى الداخل . كانَ خادم الدار في انتظاري ، وهُنالكَ عبدٌ آخر يقفُ مسلّحاً عند باب الحجرة ، سلّمتُ ، ثمَّ هبطتُ على خاتم الولاية في خنصره وقبلتهُ ، فرفعني بيدهِ ، وأصبحَتْ عيناي في عينيه مباشرةً ، كانَت نظراتهُ حادةً ، ووجههُ متعباً ومتوتّراً . ويحيط به ثلاثة من مجلس الخواجات بأسلحتهم الكاملة ، بعمائم بيض ، وجلابيب بيض خفيفة ، وعباءاتهم الزرق على الأكتاف ، وقد تقلّدوا سيوفهم وأيديهم على القبضات .

كانَ هُنالكَ الشاعر سحيم ابن ماء الورد ، وهو شاعر من

أهل خوارزم يقطنُ في بغداد ، في منزلٍ يقعُ في سوق الصاغة ، على مقربةٍ من محلّ أبي عبد الله الحلاق ، ومخزن دانيال المجبراتي ، وقد كانَ سحيم الأصهب قد عمل عامين كاملين في قاموس بغداد ، وهو من المقربين من رئيس الطائفة سيّدي الخواجة عماد الدين بن أبي ريحانة النقاش ، وكانَ من المقربين من الخواجة عبّاس الطغرلي ، وكنتُ التقيته في خمارة العقدين في شارع التجّار ، وكنتُ وقتها جديدَ عهدٍ بالطائفة .

قالَ لي سحيم وقد نهضَ من مكانَه :

- قد اخترناكَ لتجلبَ قاموس بغداد من واسط وتعيدهُ إلى منزلك .

**

خلفَ الخواجة عبّاس كنتُ أرى الجغرافيَّ أبا سعيد الخزّازَ الواسطيّ واقفاً ومتهيّئاً ، وبعد إشارة من الخواجة عبّاس برأسهِ تقدّم نحوي ، وفردَ على طاولةٍ واطئةٍ وكبيرةٍ خرائط كاملةً عن المكان الذي يقعُ فيهِ القاموس ، وطلبَ منّي الجلوس ، فجلستُ إلى جانبهِ .

لقد شرحَ لي تفصيليّاً من أين عليّ أن أمضي ، ومن أين يمكنني أن أعود . وقد استمرَّ هذا الشرحُ نصفَ ساعةٍ تقريباً ، وهكذا خرجتُ من الدار مسرعاً للذهاب إلى واسط قبل طلوع الصباح .

كان هنالك بعض الخواجات موجودين في الدار ، كان أحدُهم في الأربعين من عمره ، أراه للمرة الأولى ، وقد قال لي

بوجههِ الجميلِ ، وعينيهِ الذكيّتين ، ولحيتهِ التّي وخطها شيبٌ أبيضٌ :

- لا أحد يمكنهُ أن يفعل هذا إلا أنت!

- سمعاً وطاعةً . . . سأذهب اليوم!

وكانَ هُنالكَ شخصٌ أكرههُ وهذهِ هي المرّة الأولى أعرف أنّهُ أحدُ مجلس الخواجات ، واسمهُ يعمر البلالي ، كانَ رجلاً ممالقاً على نحوٍ مكشوفٍ ، وكان انتهازيّاً حاذقاً ، وقد يلفتُ عامةَ الناس لما يثيره من الإعجاب في المظاهر ، وكانَ يتباهى على الدوام بأنهُ يحبُّ الورود الفواحة ، يحبُّ التطيّب بالنرجس مرّة في اليوم على الأقلّ . وقلتُ في نفسي ماذا يفعلُ هذا هُنا ، ألا يخشى مجلسُ الخواجاتِ أن يبيعهم هذا البلالي ويبيع قاموس بغداد .

- لا لا تذهب الليلة اذهب يوم الجمعة . . بعدَ صلاة الظهر ، ما إن تصلّي في المسجد وكلّ الناس تراك هناكَ . . اذهبْ إلى السوق ، وسرْ في السوق حتى تصل النهر ، سرْ بمحاذاة النهر حتّى تخرج خارج السور ، ومن هناكَ خذ جواداً سيكون بانتظارك مع أحد أنصار التنظيم وهو من الولائيين . . . وارحل بهِ طائراً إلى واسط . .

- هل أحلُّ واسط باسمي . .

- لا أبداً . . . اذهب إلى قريّة قريبة هُنالكَ اسمها قرية أبي مفرّج النبطي ، سيكون أحدُ خواجات واسط بانتظارك ، ليعطيك ملابس لتتخفّى بها ، ثمّ اجلب الصندوق الخشبي

المزخرف بالذهب والفضة الذي يحتوي القاموس كما مبيّن لك في الخريطة .

رحلتي إلى واسط

لقد رحلتُ إلى واسط وبتُّ هناكَ ثلاثة أيّام ، وكانَ عليَّ أن أجلب القاموس قبل الليلة الرابعة .

ومن دون أن يشعر أحدٌ ، عدتُ حاملاً القاموس بصندوقه الخشبي المذهّب معي ، من واسط إلى بغداد . لقد وضعت الصندوق على حمار مغطّى بخرق وسخة ، وارتديت ثوب العربان المفتوح من عند الصدر ، وعمامةً لا تغري قطاع الطرق واللّصوص بالسلب ، حتى وصلتُ بالقرب من بلدةٍ اسمها دير الفلاة فوجدت جماعةً من الفلاحين يقصدون بغداد على حميرهم ، فصحبتهم ، وكانَ الزرّاع من العرب والنبط على ضفاف دجلة ، يتفقّدون حقولهم الخضر التي تمتدّ إلى ما خلف البصر ، وتتحلّق نساؤهم وأولادهم حولهم ، حيثُ تدور البقرات هناكَ ، وتلعبُ الخرافُ على أرض منبسطة ، ويجري الماء أصهب بين البساتين والزروع المتصلة ببعضها ، ومن وقتٍ إلى وقتٍ يمرّ بي بعض الفلاحين وهم يركبون على حميرهم فيناولونني خبزاً أو فاكهةً ، وهم يقولون له بصوتٍ طيّبٍ :

«ادعو لنا من الله بالبركة»

وهكذا حملتُ هذا القاموسَ بصندوقه المذهّب حتّى وصلتُ إلى مكانٍ قريبٍ من السور ، حيثُ أرسلَ الخواجة

عبّاس أحد الحرّاس له ، ثمّ استبدل ملابسه ووضعه مع مجموعة من أدوات النقش على عربة بحصانين ، وأدخله من بوابة السور الجنوبيّة ، وحمله حتى وصل بهِ إلى منزلنا في محلّة الحربيّة .

القاموسُ في منزلي مرّةً أخرى

اختار الخواجة عبّاس في منزلي مكانَ إخفاء القاموس ، لم يكن الأمرُ سهلاً ، ولكنّهُ اهتدى أخيراً إلى السرداب الصغير الذي كنا نصع فيه الخوابي وقلل الزيت ، وقد غطّيناه بالخرق .

كنّا أربعة فقطْ ، هو وخادمهُ ، والخواجة سحيم ابن ماء الورد ، وأنا ، بيد أنّ الخواجة عبّاس رفض أن يرافقني أيّ واحد من خدمي .

وبعدَ أن اكتملت المهمّة ، مسح على وجههِ وعلى لحيته وقالَ لي بصوت موحش ، وبجملة تكاد تكونَ نبوئيّةً أو قياميّةً بالأحرى :

«إن هذا العالم والكون والإنسان كلّه يتجلى في بغداد ، وبغداد موجودة هنا» ، وأشار إلى الصندوق الذي يحوي القاموس . .

لا أدري لماذا قالَ هذهِ الجملة ، ولكنّي رأيتُ في عينيه ألماً من نوع ما ، وبارقة أسى واضحة .

لقد طلب حمل القاموس من واسط إلى بغداد ، جاء به ليحميهِ في منزلي ، وهو ينظر له تحت الخرق دون أن يتحرّك أو

يزيح عنهُ عينيه ، لقد جاء في هذهِ اللحظة ، بعد أن أمر نقلهُ من مكانٍ شكٌّ بأنّهُ سيتعرّض مثل أماكن أخرى لغارات الجند أو لعيونِ العسس أو لتفتيش الجيش السلطانيّ .

قال لي إنّهُ حمل هذا الصندوقَ بيديه ودفنهُ في واسط .

ثم شرح لي رحلتهُ الغريبةَ ، قال إنّهُ أخذه في المركب إلى واسط مع زوجتهِ وقينتهِ ، ولكنّهُ عاد وحدهُ على بغلٍ متخفيّاً وسار مسافاتٍ طويلةً في الصحراء ، وهُنالكَ على مفترقات الطرق الصحراويّة البعيدة ، تعرض للبدو الأعراب الجائعين الذين رماهم البؤس ، وأرادوا أن يفتكوا به ، أو يحوّلوه إلى أضحيّة من أضاحي نبي الله إبراهيم التائهة ، وقد سلك كلّ طرقات القوافل ودروب الحجيج التي ساقتهُ رحلتهُ لها ليتمَّ مهمتهُ العظيمةَ في إخفاء قاموس بغداد ، فكادَ يموت على أيدي هؤلاء الساغبين دون أن يصل إلى مبتغاه ويصل إلى بغداد ، غيرَ أنَّ الله نجّاهُ ، ليتوجّهَ لهُ بالشكر والعرفان ، لا لحياتهِ هو فقط إنّما لحياة هذا القاموس الذي يمسكهُ بيديه الآن .

**

لقد صمت الخواجةُ عبّاس أمام القاموس المغطّى بالخرق طويلاً ، ثمَّ رفع عينيه نحوي شيئاً فشيئاً وقالَ :

«ولكنْ عليك أن تعرف أن قمة كلّ علم أو ذروة كلّ عرفان أو سمو هي ليست سوى عتبة لقمّة أعلى ، حيثُ يتوالى كشف الخواجات من بعدِ لقمم جديدة ، وسنتعرّفُ كلّ يوم على شيءٍ جديدٍ وعلى سرٍّ جديدٍ ، وسيتعالى كشفُ العارفين لقممٍ

متجدّدة ، أمّا هذا الكلّ ، أيّ القاموس - قالَ هذا وابتسم - فما هو إلا شاهدٌ على الوجود ، هنا حيثُ الغنى المطلق للوجود ، والفقر المطلق للموجود» . أيّ بمعنى الغنى المطلق لله والفقر لبني البشر .

وبمعنى آخر أراد الخواجة عبّاس أنْ يقولَ لي بأن القاموس لن يتوقف وسيتوالى من طور إلى طور أعلى وأكثر تقدماً .

ثمَّ صمت قليلاً وقالَ لي بيتا من من شعر سيّدي الخواجة عمر الخيام .

فشعرتُ بهذا الخواجة الذي يخصُّ بغداد بحبٍّ عنيفٍ غامضٍ ، هذا الحبّ الذي قدّرهُ الله في هذا الكتاب لهذهِ المدينة ، وجعلهُ أشبه باختراق ، بل جعله مرافقاً لها بطقوس حماسيّة وتقنيّة في آن ، جعلَه أشبه بنداء الصوامع حيثُ يكتبُ هذا القاموس ، الذي سيصبح للناس المقيمين ، وللمارة العابرين في الأسواق أحد المبشرين بالمدينة الفاضلة .

**

أطرق الخواجة عبّاس وهو يمسدُ لحيتهُ الكثّةَ بأصابعهِ ، وكنتُ واثقا بأنّهُ لا بدّ أن يتعرض إلى الخطر الذي أصابَ الطائفة ، وهو الخطر المحدق برئيسها الخواجة عماد الدين ، فنظر إلي وقالَ :

-لقد خان التنظيم . . .

كانَ يقصد الخواجة سنان بطبيعة الأمر ، ثمَّ شرحَ لي كيفَ أن الخواجة سنان حملَ تصريحَ أمانٍ صوريٍّ كي يجرَّ الخواجة

عماد الدين إلى فخٍّ أقيم لهُ ، وبدلاً من أن ينصحهُ بالهرب ، أو يهرّبهُ ابتكر خطّةً يسلّمهُ بموجبها رسالةً مختومةً نقش عليه اسم الوزير بالعفو عنهُ ، كما أنّهُ كتب رسالة للوزير مختومة من الخواجة عماد الدين تُفسر على أن الطائفة تثير الفتن .

ثمّ قالَ لي إن الخواجات جميعهم قد رأوا هذا الصدع الأخلاقي تحت ظاهره الفاتن .

**

لا أعرف لماذا ارتعدتُ تلك اللحظة من شكلهِ ، ومن عينيهِ ، وتحوّل أساريرِ وجههِ ، لقد شعرتُ بلحظة واحدة أن ثمّة تغييراً في هذا الوجه ، وفي تلك الملامح ، لم أكن ألحظها من قبل .

ذلكَ أني فيما مضى كنتُ واقعاً تحت تأثيره الحقيقيّ ، وحتّى في ذلكَ اليوم الذي رأيتُه فيه ، وهو أوّل يوم من وجودي في الفرقة الخواجيّة ، فقد شدَّ على يدي ، ذلكَ أنّهُ كانَ قويّاً ، إلى الدرجة التي يعتقد فيها أن كلّ خواجة نهايته الفجر ، بينما القاموس ينطلق من الفجر .

هكذا كنتُ أطمئن لأفكاره ، وكنتُ شديد الإعجاب بهذهِ القوّة الروحيّة التي تنطلقُ من عينيهِ ، ومن حركتهِ ، ومن قلقهِ ، فهوَ قلقٌ لا يستقرُّ على حال ، ولا يستطيع الاطمئنان إلى شيءٍ ، لأنَّ الاطمئنان نسبةً لهُ هو جحيمُ النفوسِ المتوثّبة ، وهكذا كنتُ أرى في نفسهِ ناراً وحركةً ، ناراً تأبى أن تنحصر في دائرة وجودها الضيقة ، بل تصبو إلى ما وراء حدود الرغبة

والإمكانيّات ، كنتُ أرى فيه إرادةً تشتعل بنار عسيرة الانطفاء ، ناراً تتحرق عطشاً ولواحاً إلى المخاطر العاليّة ، ولا تتعب من شيء إلاّ من الراحة .

كنتُ أرى فيه نزوعاً مستمّراً نحو آفاق جديدة وأفكار ممتازة ، يخلقها لنفسه إذا لم يتيسرْ لهُ أن يحصل عليها حقّاً ؛ أو بالأحرى هو لا ينشدها إلاّ في مملكةِ خيالهِ ، لأنّهُ في الواقع يجري دائماً وراء شبح يحاول اقتناصه وهو يفرُّ منه أبداً ، مما يكوّن في نفسه ذلكَ القَلق العنيف الوثّاب الذي يميّزهُ من دون الخواجات .

**

لقد كانَت روحه عاصفة من الأحاسيس المضطربة والمشاعر التي لا يمكن كبحها ، وكانَت تدور على الدوام حول نفسها ، ومنطويةً على مجموعة من الأفكار اللامعة ، فما إن يتكلّم حتى تشعر أنَّ أفكارهُ ترتطم بك بقوة ، أعترف بأنّهُ لم يكن متسامحاً ، بل كانَ ينظر على الدوام بشكل قانط ، وتشعر بأن له روحا تنظر بازدراء متكلّف ، كانَت نظرته باردة ، لا تلبث أن تتحول إلى نوع من التعالي والكراهيّة ، غيرَ أنّ هذهِ الكراهيّة ليست سلبيّة أو معتديّة ، إنها لائذة لوحدتها للتخلص من تفاهة الناس ، إنها كراهيّة مفكرة ، متسامية ، منفعلة بنفسها ، وحائزة على إعجاب الآخرين .

III

المحكمة والخواجة عماد الدين

ولكنْ ماذا عن محكمة الطائفة؟

لقد كانَت مستمِرّةً ، غير أن التطوّر الإيجابي فيها هو أنَّ القاضي ابن مؤنس وهو أكبر القضاة رفضَ دعوى القاضي عبد الرحمن ، وربّما ستكتفي المحكمةُ بما حدث لهُ من تشهير وستطلقُ سراحهُ .

وحينما سمعتُ بهذا الخبر سررتُ جدّاً وتوقّعتُ انفراجاً حقيقيّاً سيؤدّي بالطائفة إلى تغيير بعض خططها في المستقبل ، سواءً في طبيعة عمل الطائفة أو في صيانة القاموس ، غير أنَّ هنالك تطورات غريبةً ومتسارعةً ، أخذتْ تحدثُ في الشارع في بغداد ، كانت تسيرُ ربّما بصورة عكسيّة ممّا كنا نريد ونرجو في الطائفة ، فقد زارني الخواجة سحيم ابن ماء الورد ، في الفجرِ ، بعدَ الصلاة مباشرةً ، وقالَ لي إنَّ هُناك من يحرّضُ العامّة على الثورة .

- ثورة؟ سألتُ باستنكار .

- نعم هُنالكَ من يحرّض العامة على الثورة ضدَّ جباة الضرائب في حكومة الوزير .

- ولكنْ هل تعتقد أن الجوّ ملائمٌ للثورة، أعتقدُ أنَّ الأمرَ سيتفاقمُ على الخواجة عماد الدين، طالما أنَّ القاضي ابن مؤنس وهو أكبرُ القضاة رفضَ دعوى القاضي عبد الرحمن، وربّما ستكتفي المحكمةُ بما حدث لهُ من تشهير وستطلقُ سراحهُ. قالَ لي مبتسماً إنّهُ كانَ اليوم في المحكمة، وقد رفض القاضي ابن مؤنس ورقة الادعاء والفتوى التي رفعها القاضي عبد الرحمن.

- إذنْ الثورة في وقتٍ غير ملائم جدّاً أليس كذلك؟

سألتهُ هكذا، وانتظرتُ جوابهُ، غير أنّهُ لم يعلّقْ على كلامي، فشعرتُ أن أحد أفراد مجلس الخواجات وراء الثورة، لم أكن متأكّداً، ولكنَّ هذا الصمت، جعلني أشكُّ، وهذا الأمر لا يحتاج إلى تعليق، ذلك أنّ الثورة وبهذه الظروف هي أمرٌ غير محمود حتماً.

حين ذهب الخواجة ابن ماء الورد متخفيّاً عن منزلي أمضيتُ الوقت كلّهُ ساهراً متيقّظاً. لم يقوَ جسدي على الاستسلام للرقاد.

**

وفي الصباح ذهبتُ إلى المحكمةِ، لم أستطع البقاءَ في المنزل، ذلك أنّ أمرَ القاضي ابن مؤنس كان واضحاً، وقد شعرتُ حينها أن القاضي عبد الرحمن لن يسكتَ عن هذا الأمر مطلقاً، ولن يثنيهِ هذا القرارُ عن مواصلةِ جهودهِ في ملاحقة الطائفةِ وإبادتها، وكان الأحرى بالطائفة أن تتابعَ

عملها باحتراس شديدٍ وحرصٍ أكبر ، وأن تتقدّم في فعلِ شيءٍ حاسمٍ يوقفُ هذا القاضي عن الاستمرار في وحشيّتهِ .

**

لقد كانَت المؤامرةُ جليّةً لكلٍّ من يقرأُ الأحداثَ بصورةٍ دقيقةٍ ، فعملُ القاضي عبد الرحمن كانَ متقناً بما فيه الكفاية ، وقد تصرّف بمكرٍ مخادعٍ وذكيٍّ جداً ، صحيح كان عمله وضيعاً ولكنّهُ كان متقناً ، فقدْ أراد أن يثير قضيّة الطائفة أمام الرأي العام ، في بغداد ، بشدّة وعنف قبل أن تعرض على المحكمة ، لأنّه أراد أن يقدّمها أوّلاً من وجهة نظر دينيّة ، وأن يفسّر تأويل الخواجات من وجهة نظر فلسفيّة وظاهريّة ، وهكذا تعرض هذا الخبيث للطائفة أوّلاً برسالة وإفتاء ، وبعد ذلك قدّم دعاواه ، وتمكّن من حبس الخواجة عماد الدين ومحاكمته .

وحينَ وصلتُ المحكمةَ وجدتُها مغلقةً وكانَ ابن ماء الورد هُناك ، فسألتهُ عن تطوّر الأحداث ، قالَ لي إنَّ القاضي عبد الرحمن وقاض آخر هو أبو عبيد النيرماني يضغطان بقوّةٍ على القاضي ابن مؤنس قاضي بغداد ليصدرَ حكمَ الموتِ على الخواجة عماد الدين ، ولكنَّ القاضي رفض .

**

في الواقع كنتُ عرفتُ القاضي ابن مؤنس عن كثبٍ ، فقد كان صديقاً لوالدي وقد زارنا في المنزل أكثرَ من مرّة ، صحيح هو لم يكنْ قريباً من الطائفة الخواجية ، ولكنّهُ كانَ قاضياً كبيراً ، وعادلاً ، وهو رجلٌ معروفٌ بنبالتهِ ، وكمال ملبسهِ ، على

العكس من القاضي عبد الرحمن المعروف بإسرافه على حاشية مختلطة الألوان وبملابسهِ التي تخلو من الذوق الرفيع، كما أنّهُ معروفٌ بصداقتهِ مع القاضي أبي عبيد النيرمانيّ، وهذا الأخير هو من أكثر قضاة بغداد غموضاً، فقد كان ذا شخصيةٍ غريبة وفظّةٍ وغامضة، لم يكن قاضياً يحكم بالعدل قدر ما كانَ موظفاً عند الدولة لحماية الصيارفة وجباة الضرائب، وهكذا كانَ في مواجهة الخواجة عماد الدين، الطبيب الورع بروحانيّته وتقشفه.

وفي المساء كنت التقيتُ الخواجة سحيم مجدّداً، وسألتهُ عمّا يحدثُ وراءَ أبواب المحكمة المغلقة، ولاسيما أنّ القاضي ابن مؤنس رفضَ قرار القاضي عبد الرحمن والقاضي النيرماني، فقال لي إنّهما يواصلان الآن ضغوطهما على مساعد القاضي ابن مؤنس، وهو محمّد ابن مكرم.

فقلتُ لهُ أنا أعرفُ هذا الفقيه الشاب.

قال لي «ما رأيك به».

قلتُ له: «إنّهُ فقيهٌ شابٌ وأديبٌ لبقٌ وهو نزيهٌ جداً»

قال لي إنّ القاضي عبد الرحمن يواصل الآن إغراءهُ ومطاردتهُ، ولكنّهُ لم ينجح.

«كيف ذلك؟» سألته.

قال «لقد أراد أن يقنعهُ بالحجّة بعدَ الحجّة، بأنّ أفكار الطائفة مغلوطةٌ، ذلكَ أنّ هذهِ التجربة لا سند لها، وإن الاحتجاج بالتأويل الرمزي تدحضه الفطرة السليمة للدين، غيرَ

أنَّ هذا القاضي الشاب الذي وافقه على ما يقول ، اشترط أن لا يصل الحكم على الخواجة عماد الدين أو على الطائفة بالفساد»

قلت لهُ «هل يقصد الفتوى التي طرحها القاضي عبد الرحمن من الحكم على الخواجة عماد الدين بالفساد في الأرض»

قال «نعم . .» .

الواقع كنتُ أخشى أن يحصل هذا الحكمَ الذي استلّهُ القاضي عبد الرحمن من سورة المائدة في القرآن ، حيثُ سيواجهُ فيها الخواجة عماد الدين الموتَ بتقطيع أوصالهِ من خلافٍ ، ومن ثمَّ قطع عنقهِ وحرقهِ ، وقد أيّدتَ هذا الحكمُ بعضُ جماعاتِ الأوباشِ والعامة ، وبعض شهود الزور من لوطيين وممالقين ووضيعين ، وبعض القضاة المتزمّتين مثل النيرمانيّ ، وقاموا بتأليب السلطة السياسيّة في بغداد على العلماء والخواجات .

وهكذا وقفت الطائفة اليوم كلّها أمام هذهِ المحكمة ، حيثُ يقف القاضي عبد الرحمن والنيرمانيّ من جهة ، والقاضي ابن مؤنس ومحمد ابن مكرم من جهةٍ أخرى .

الخواجة عماد الدين

في المساء كنتُ في الدار مضطجعاً وأقلب بكتبي ، ساعات وأنا أفكّر بمصير الخواجة عماد الدين ، أفكّرُ بمصير شيخ الأطباء ، الحكيم الذي خلف ثلاثة أمهر أطباء بعد الرازي على

بيمارستان بغداد ، وهو البيمارستان الذي أسسته شغب أم الخليفة المتوكل ، المرأة اليونانيّة الفاضلة قبل مائتي عام .

كنت أحاولُ أن أقارنَ بين صورتين علقتا في ذاكرتي لهذا الخواجة ، صورته وهو في بيمارستان بغداد يدرّس كتاب أخلاق الطبيب على الخواجات الصغار من تلامذتهِ ، أو وهو في مختبرهِ كان يعلّمنا تحضير زيت الزاج ، أو الزاج الأخضر ، وبين صورته وهو جالس في المحكمة حاسر الرأس ، وسلاسلهُ عند قدميه ، وهو يعرف أنّهُ سيواجه عقوبة الإعدام .

**

هؤلاء لا يريدون قتل الخواجة عماد الدين فقط ، إنّما يريدون قتلَ سلسلةِ الأبدال التي طرحتها المدارس الأسراريّة في بغداد ، والتي تتواصل من جابر بن حيّان الكوفيّ إلى الرازيّ إلى ابن سينا إلى الخواجة عماد الدين ومن ثمّ إلى الخواجة عبّاس ، وهي السلسلةُ التّي كنتُ أطمحُ أن يكونَ لي مكانٌ فيها . لقد كرهوا فيهِ هذهِ الوداعةَ وهذا الزهدَ وهو ابن عائلةٍ من الأشراف ، مثلها مثل بني الطاهر ، وبني خاقان وبني سهلٍ ، وبني الفرات ، وبني عيسى والتي كانَت لِها علاقات وطيدة مع البلاط العبّاسي .

لقد كره التجّار وجباة الضرائب والصيارفة في هذا الطبيب فضيلته التي حتمّت عليه أن يكون شديد الحمية ضدّ ترف مواطنيه ، وهو الخواجة الطبيب الذي ولد في طسوج كلواذى ، في بغداد ، وربما لهذا المكانَ دلالته القوية عند هؤلاء الذين

يريدون تصليبه هذا اليوم ، فهو منتجع الخلفاء وقصور راحتهم ووجود هذه الطائفة الحكيمة هناك خطر على فساد الخليفة والبلاط ، وهي مركز سكّ النقود ووجود قدم للطائفة فيها يعني مواجهة مع الصيارفة وجباة الضرائب ، وهي راحة للقطعات العسكريّة في صعودها إلى شيراز وخراسان ، ومن هُنا فهي مواجهة مع قائد الجيش ، إن المكان والزمان والنص الذي ابتدعته الطائفة يقف في مواجهة من يملكون صولجان الحكم .

**

ومع أنَّ سيرَ التهمةِ كان متعثّراً ولكن كانتْ هنالك إرادةٌ موحّدة لمجموعة من المتربّصين في هلاكهِ . وقد قال لي الخواجة سحيم إنه في الأيّام الأولى لم يجدوا في سير إدانتهِ غير فقرةٍ غامضةٍ وغير مقنعةٍ تقولُ بأنّه ادعى بقدرتهِ أمام الناس بإحياء الموتى .

وقد ذكر لي أحد الخواجات فيما بعد وهو ابن الزيار ملخص هذا الوضوع ، قال لي إن الخواجة عماد الدين رحلَ ذات يوم إلى بخارى ليقوم على خدمة عالم متحمّس ، وطبيب جسور ، اسمه الخواجة سهل ، وكانَ هُنالك عجوز صالح اشتدّ عليه المرض وفات في غيبوبةٍ طويلةٍ حتّى برد جسمهُ ، وأراد أهلهُ دفنهُ ، إلا أن الخواجة عمّاد الدّين رفض هذا ، محذّراً الناس من أنّ هذا الرجل ما زال حيّاً ، وقد أخذهُ عندهُ ، وبقي في معالجتهِ يومين ، وفي اليوم الثالث عادتْ فيهِ الروحُ .

وقد قال لي ابن الزيار إن لهذه الخطوة العظيمة التي ألزمته

نجاة أحد مرضاه يريدون قتلهُ ، وذلك بتلفيق تهمة الشعوذة والكرامات ، وأنّهُ يحي الموتى على هذهِ الأرض .

فشعرتُ بأسى حقيقي ذلك أنه لسبب عظيم وجدَ نفسهُ جالساً بأسى أمام عصابة من الفاجرين واللوطيين والمدّعين عليهِ بمكر كاذبٍ ، وقد جاءوهُ لا بمزورين مخنثين وحسب إنما بقاض باغ أيضاً ، وهو النيرمانيّ ، ولم أكن أعرفه من قبل ، ولكن سحيم ابن ماء الورد قال لي عنهُ إنّهُ أصبحَ بالتدليس والرشا قاضياً ، وقد كان قبلها موظفاً وقحاً وفاجراً ، وكاتباً متواضعاً عند حاجب أمرد يحبُّ المتملّقين ، فوجد فيه صاحباً .

**

كنتُ أتابع المحكمة ، وكنت أرى تملّق النيرمانيّ الذي يزداد تربّصهُ بالخواجة عماد الدين ، ويزيد على القاضي عبد الرحمن بالكيفيّة التي كانَ يريد بها إزهاق روحه ، وأخذ يظهر عداوتهُ علناً للخواجات ، تملّقاً لجابي الضرائب الذي كانَ يجلس في مقدمة الجالسين في المحكمة ، وهو بشر بن بازيار ، وقد كانَ هذا الأخير متحمّساً لإنزال أقصى العقوبات بالخواجة عماد الدين ومن وراءه الطائفة الخواجيّة .

ولم يكن بشرُ بن بازيار في بغداد أقلَّ فساداً أو جشعاً من النيرماني ، على الرغم من أنّه اتخذَ الزهد والورع تظاهراً ليخفي جشعهُ وحبّهُ للمال ، وقد انخرط شاباً في مهنةِ جبايةِ الضرائب في بغداد لكي ينفق على ملذاتهِ كما روى لي مرّة الخواجة عبّاس ، ثمَّ أصبحَ عامل الخراج في همذان ، وفي طبرستان

وكنتُ التقيتهُ حينما كنتُ طالباً في مدرسة الحكمة . وكان لجهله معجباً بكتاب أبي هاشم الجبائي الذي ردّ على الحكيم ارسوطاليس بكتاب طويل سماه «التصفح» ، دون أن يعرف أنّ انتقاد أبي هاشم لآراء الحكيم اليوناني إنما جاء بمقدار ما تخيّل لهُ فهمهُ لأنّهُ لم يكن عالماً بالقواعد المنطقية .

**

ويعدُّ ابن بازيار هو وشخصٌ آخر اسمه أبي عبيد الله محمد البخاري ، كلاهما من أنصار الفحش الضريبي ، وقد أصبحَ الأخير فيما بعد واليا على الشام ، وكانَ تبعه ابن بازيار هُناكَ فيما بعد وقطن على مقربة من جبل لبنان ، وقدم هذهِ الأيّام إلى بغداد ليشهد بنفسه مذبحة الخواجات ومصادرة أموالهم . ولا بد أن هذا الخائن كانَ قد زار الخواجة عماد الدين في منزلهِ قبلَ يومين من اصطيادهِ ورميهِ في السجن .

IV

يوم الثورة

في الحجرةِ الأخرى رقدتْ جواري المنزل جميعهن تقريباً ، وقد كانتْ ظهيرةُ الشتاءِ في بغداد معتدلةً جداً ، فجلستُ في حجرتي وحدي ، وأخذتُ أدوّنُ بعض الأحداث الرهيبة التي مرّت على الطائفة بشكلٍ رمزيٍّ في دفتري ، لكي لا ألفت نظر أحد ، وأخذت أترجمُ بعضَ المقاطع الفلسفيّة من اللغة اليونانيّة في دفتري ، ثم تركتها ، وبدأتُ أصحّحُ بعض الفقرات التي وردت مخطوءةً في ترجمة ابن ناعمة وأبي بشر متي في كتاب أرسطوطاليس «سوفسطيقا المغالطة أو الحكمة المموّهة» وهو الكتاب الذي فسّرهُ الكندي وقويوي ، وكنتُ حصلتُ من مدّةٍ من الزمن على كتاب ريطوريقا ، الذي نقلهُ إلى العربيةِ اسحق ، وفسرهُ الفارابي في مئة صفحة ، ووجدتُ منهُ نسخةً جديدةً بخطٍّ أحمد بن الطيب السرخسي ، وألقيتُ نظرة عليهِ ، فجأةً دق بابي خادمي جميل وهو من أحسن الغلمان عندي ، كانَ يرتدي قميصاً قطنيّاً أبيض اللون ، واسعاً مزركشاً من الأسفل بخيوطِ زينة قصيرة ، أما رأسهُ فقد كانَ محلوقا تماماً ، ومزيّناً بعمامة حمراء صغيرة .

-ما خطبُك؟ صحتُ به .

-سيّدي . . يقال إن ثورةً اندلعت في السوق . . .

رميتُ الكتب من يدي ، وهرعتُ من مكاني دون أن أكلمهُ بشيءٍ أو أن ألتفت إليهِ ، فلبستُ سريعاً قفطاني الأسودَ وعمامتي البيضاء وتقلدتُ سيفي اليماني ، بينما هرع خادمي دون أن آمره بذلكَ ، وتقلّدَ سيفهُ هو الآخرَ ، وصاحَ على غلامٍ آخر في المنزل اسمه نبهان ، وقد ارتدى عمامتهُ بسرعةٍ وتقلّدَ سيفهُ هو الآخر وتبعنا ، ومن دون أن نعطي إشارةً إلى أيٍّ من جواري المنزل ، خرجنا إلى باحة الدار مسرعين ، بينما ذهب غلامي ليحلَّ جوادي من رباطهِ وقد ناولني بخفةٍ رسنهُ ، فركبته ، وأخذتُ طريقي إلى السوق ، كنت أنخزُ الحصان وهو يسير طائراً في الطريق ، وكنتُ أسمع صوت غلاميَّ وهما يهرعان بجواديهما خلفي .

**

كان الوقتُ ظهراً ، وكانت شوارعُ بغداد مذهّبةً بالشمس ، وقطرات النور والألوان ترتعدُ على حافّة الأهداب ، وتهجمُ رائحة النباتات العطريّة العابقة على الأنوف . غير أنّي لم أكن عابئاً بالطقس ، فقد كنتُ أشعرُ تلك اللحظاتِ بغضبٍ شديدٍ يكاد أن يخلع لي قلبي من مكانهِ .

من بعيد رأيتُ حرائق متفرقةً تشتعل في السوق ودخانها يتصاعد إلى الأعلى ، وتناهت إلى سمعي أصوات الجماهير الغاضبة وهي تركض في كلّ اتجاه ، بينما كانَت بعض

الحاميات العسكريّة من الحرس السلطانيّ تتحرك من باب الطاق عند سور بغداد متجهة ً نحو المركز ، وهو المكانُ الذي كانَت تنتظر به جيوش هولاكو التي هددت بحصار المدينة ، فعرفت أن الجماهير ستخضع إلى قمع وحشيٍّ ، لا محالة .

قبل الوصول إلى المركز رأيتُ مجموعةً من الشرطة تتقدّم باتجاهنا فأمرتُ غلاماي بالهبوط ، وما إن هبطنا ولجنا بسرعة إلى خمارة ابن الضحاك ، في الركن الأقصى من السوق ، حيثُ كانَ هُناكَ عددٌ من الشعراء والندماء جالسين على أحد التخوت ، وكانَ هُنالك الحسن القداح ، مع مريد الضحاك ، وهما من الشعراء الظرفاء في بغداد ، كانَ الأول نحيفاً ، يرتدي جلباباً من الصوف ، ويضعُ على رأسه عمامة على الطريقة الفارسيّة ، وكانَ الآخر سميناً وربعةً تصدرُ عنهُ كلّ لحظة سعلة مبتسرة . نهضا وصافحاني ، وكانَا يشربان وإلى جانبهما كتب كثيرة .

فسألتهما عن الحال في بغداد ، فقالا إنّها سيئةٌ جدّاً ، وقد خرجا مبكرين لاستطلاع الأحوال ، وقالا إنّ هُنالك مشاعر عداء ضدّ أعضاء الطائفة ، وتحريضاً مقصوداً من القضاة ، كما أن هُنالك ثورةً للجياع ضدّ موظفي الحكومة ، غيرَ أن الوزير وجابي الضرائب والقاضي عبد الرحمن أقنعوا الخليفة أن سبب هذه الاضطرابات هي الفرقة الخواجيّة ، ويريدون استصدار أمر منهُ بقتل الخواجة عماد الدين .

حينّ خرجتُ من الخمّارة كانت الفوضى على حالها ، وهي تتقدّم شيئاً فشيئاً لتصل إلينا ، كما أنّها تزحفُ نحو المحكمة ، وإلى السجن الذي يرقدُ فيه الخواجة عماد الدين .

توقفّتُ بباب الخمّارة بحثاً عن شخص من المتمّردين الذين يمرّون بالطريق وقد نهبوا شيئاً من السوق ، فلم أجدْ أحداً ، ذهبتُ إلى الشارع الثاني ، وفيهِ مخازنُ كبيرةٌ يتمّ تأجيرها لتخزين البضائع ، وفوقها خانات للسكن ، وغرف مخصصة لإقامة التجّار العابرين الآتين من الشام أو مصر أو من الصين ، فلم أجدْ أحداً ، غير أنّي كنتُ أرى من بعيدٍ مجموعةً من الفرسان قادمين باتجاه الشارع فلبثتُ إلى جانب شجرة كبيرة ، بعد قليلٍ اقتربت ، وإذا بهم مجموعةٌ من التجّار والسماسرة والدلاّلين والصيارفة والقبانيين الهاربين ومعهم حرّاسهم ، ونبالتهم ، وبعضهم كانَ يخرّ دماً ، والذعر يفتك بهم ، فجأة ومن داخل هذه المخازن تلقتهم مجموعةٌ من الفقراء المتمّردين ، وكانَوا جمهرةً كبيرةً ممّن يحملونَ العصيَ والحبالَ والحجرَ بأيديهم ، وكانَوا يعتقدونَ أنّهُم بحرّاسهم ونبالهم سيهزمونهم ، غير أن الفقراء أشباه العراة قد اندفعوا بقوّة وهم يصرخون صرخات غضبٍ ، ملوّحين بالفتك بهم ، فتوقّفت المجموعة في منتصف الطريق ، ثمّ عادت إلى حيثُ كانَت ، حيثُ تلقتهم مجموعةٌ أخرى من الفقراء أرادتْ أن تفتكَ بهم ،

فانحدر الفرسان في الطريق المؤدي إلى النهر لطلب النجدة من حامية الشرطة أو من الحرس السلطانيّ المرابط هُناكَ .

**

بعد دقائق لمحتُ من بعيدٍ أحدَ المتمّردين وهو يركض ، فتخفّيتُ بالشجرة ، وحين مرّ من عندي انطلقتُ نحوهُ وأمسكتُ به ، ووضعتُ سيفي على عنقه . دون أن أضغطهُ ، فعرف أنّي لا أريد قتلهُ ، فقال لي :

- ماذا تريد منّي يا سيّدي .

فسألتهُ عن الأخبار . قالَ لي إن القاضي ابن مؤنس مرّ هذا الصباح بالسوق مع طائفة من فرسانه ، ذاهباً إلى المحكمة حيثُ تحاكم الطائفة الخواجيّة ، فوجد زحاماً أمامهُ ، فأراد تفريقهم ، إلاّ أنّ الناس أخذتْ تقذفهُ بالطوب والحجارة ، فهرب ، فتبعوهُ وضربوهُ حتّى قتلوهُ ، كما أنّهم قتلوا الكثير من فرسانه ، وعلى تلك الحال ، خرجت العامة عن الحدّ ، فهجموا على السوق ، ونهبوا محلات التجّار وما جاورها ، ونهبوا مخازن الغلال ، وعند الظفريّة نهبوا بضائع الجيش وودائع الغائبين . وقد دبّت الحماسة في جماعات الشطّار والعيّارين وأخذوا ينهبون بيوت الأثرياء ، ويسلبون حلي النساء الغالية الثمن .

قلت لهُ : «ما أظنّ الأمر إلاّ مدبّراً من القاضي عبد الرحمن والوزير ، لقتل القاضي ابن مؤنس كي يحلّ محلهُ القاضي النيرمانيّ» .

وبعدَ ساعات ، ولم نكن غادرنا السوق بعدُ ، فجأةً عثرتُ على أحد الخواجات ممن كانَوا يستطلعون الأمور هُناكَ ، وهو مجود بن أحمد الطائي ، وكنتُ رأيتُه قبالة دكانَ أبي علي الوراق في سوق الكتب ، على الرغم من أن الدكان كان مغلقاً ، إلا أنّ الوراق جاء مع أولاده وخدمه مسلّحين حينَ سمعَ بالنهب والسلب والحرق في السوق ، ووقفوا قبالة الدكانَ لمنع الشذّاذ والغوغاء من اقتحامه .

فصحت من بعيد على الخواجة مجود ، ورفعت لهُ يدي ، وحين رآني نخز حصانه بكعب حذائه ، وجاءني مسرعاً ، سلّم عليّ وهو يرتعش غضباً ووقف عندي ، قالَ لي إن الخواجة عبّاس في حرز أمين ، كانَ يتكلّم وهو يتلفّتُ ، ومن الواضح أنّهُ كانَ خائفاً لئلا نلفتُ انتباه أحد من العسس إلينا ، أو عيون الوشاة وهم كثر ، أو الجواسيس الذين دسوهم لمعرفة أخبار الخواجات في كلّ مكانَ .

وقفَ هذا الشابُّ أمامي بقامتهِ الرشيقةِ ، وكتفيهِ العريضتين ، ونظرته الحادة مثل نصلٍ ، وهو يحمل سيفه بيده ، وقد انفلتت من جبينه خصلة شعر سوداء بلون عينيه .

قالَ لي بصوتٍ وخفيض :

- إن القاضي يبحثُ يشكلٍ مجنون عن النسخة الخاصة من قاموس بغداد ، فلم تصل لها يد أحد حتى الآن ، كما أن الوزير قد حثّ جميع الفقهاء لإصدار فتاوى بتكفير طائفتنا ،

وحثّ العامة على ملاحقة الطائفة والبطش بها .

- وماذا نفعلُ ، هل نبقى هكذا؟

- نعم عليك أن تعودَ الآنَ للمنزل كي لا تلفتَ انتباهَ أحد .

- ولكن علينا أن نفعل شيئاً .

- إن أوامر الخواجة عبّاس واضحةٌ ، هو التزام الهدوء ، والتزام المنازل وعدم الخروج وعدم التصادم مع الشرطة أو مع الحرس السلطانيّ للحفاظ على الطائفة .

- وما معنى أن نلزم المنازل . قلت لهُ .

- كي يعرف موقعك إذا أراد منك شيئاً على عجل .

صمتَ قليلاً أمامي دون أن يقول شيئاً ، ثم انبرى بصوتٍ خفيض وبلهجة آمرةٍ .

- أنا آمرُكَ أنْ تذهبَ الآنَ إلى منزلك يا خواجة نصر الدين .

أدرتُ حصاني بالرسنِ الذي بين يديَّ ، وضربتُ على بطنهِ بأقدامي ، في طريق العودة إلى المنزل .

في المساء

لقد عدتُ إلى المنزل مباشرةً ، مع غُلاميَّ عن طريق الدروب الترابيّة التي تقودُ من عند النهر إلى الجسر ، ثمَّ إلى محلّة الحربيّة ، وحين دخلتُ المنزلَ ، سألتني جاريتي فيما إذا كنتُ أريد شيئاً من الطعام أم لا . قلت لها : لا .

لم أكن أشعر بأنّي على ما يرام أبداً ، كنتُ فاقداً لشهيتّي

تماماً ، وأشعر بحمى عالية تجتاح بدني كلّهُ ، وأشعر بفمي مرّاً مريضاً ، وكنتُ حزيناً أشدَّ الحزن وغاضباً ، ذلكَ أنني شعرتُ بخذلانٍ مريع من هذه المواجهة بشكل عام ، فلا يمكننا كطائفة أن نقعدَ دونَ أن ننصرَ رئيس الطائفة السجين ، أو نحافظ على حرمة الطائفة من الاعتداء ، لا يمكننا أن نبقى ملتزمين منازلنا مثل النعاجِ دونَ أن ننقذَ رئيسَ الطائفةِ وهو في مواجهة الموت .

وفي المساء ، جاءني خادم الخواجة مجوّد ، وطلبَ منّي الحضور إلى منزل سيدهِ ، فسررت بذلك جدّاً ، ومن دون سؤال عن السبب كنتُ ارتديت على عجلٍ جلبابي دون قفطان ، وحزمتُ سيفي إلى جانبي ، ورميت عباءتي على ظهري ، وارتديتُ عمامتي البيضاء ورددتُ طرفها على فمي متلثماً ، وقفزتُ إلى الخارج والنار تشبُ في قلبي تلهفاً لفعلِ شيءٍ للطائفة أيِّ شيء ، وصعدتُ فرسي وانطلقتُ في الظلام .

**

كنتُ أوخز بقدمي حصاني ببطنه وهو يثبُ سريعاً ، كان يطير بي طيراناً إلى منزل الخواجة مجوّد الطائي في قطفتا ، أي في الجهة الأخرى من نهرِ دجلة . وتضمّ هذهِ المحلّة بعض أشراف بغداد من الصنّاع والبنّائين ، ويقطنها أبرع الصاغة وأثرى الصيارفة في بغداد ، وهي مشهورةٌ بحدائقها وقنواتها المائيّة ولاسيّما في هذا الفصل حيثُ تنعكس فيها خمائل الورد والأشجار الكثّة ، وتظهر فيها التماثيل المرمريّة وهي

تنعكس في الماء المخضوضر للبرك الباردة التي يسبح فيها السمك .

وفي الطريق كنتُ مررتُ بقصر الخواجة عماد الدين الخالي والمظلم تماماً بعد هذه المحنة الأليمة ، توقّفتُ أمامَ بابهِ وشعرتُ بقلبي وهو ينخلعُ من مكانهِ ، ذلكَ أنَّ هذا القصر الذي كان يزدحمُ في مثل هذه الساعة بالزوّار والخواجات ، أصبح موحشاً تماماً ، وغادرتهُ كوكبةُ الخيلِ التي كانَت تتزاحمُ أمامَ بابهِ ، وتحوّلت الحديقةُ الخضراءُ إلى حرشٍ منفوشٍ كأنَّها متروكةٌ منذ سنين ، ولم تعدْ بركُ القصر تعكسُ صورةَ إنسانٍ ، ولا يسمعُ في صالات المنزل وقعُ أقدام .

**

وصلتُ منزل الخواجة مجوّد الطائي تحت جنح الظلام . كانَ منزلهُ عند منزل أبي جعفر ، عبد الله الطاهري ، وهو محاسبٌ ماليٌّ بارعٌ ، عملَ طويلاً بمهنة كاتب أملاك الخلافة ، وكانَت إحدى جدّاتهُ قهرمانةً في عهد المقتدر . وهُنالك منزل ابن حسن بن عبدون وأبناء خدابذة الجغرافي ، في الشارع الذي يسكنهُ النساطرةُ ، ومنهم يوحنا بن نرسيس ، وأختهُ أمُّ حمد .

وما إن وصلتُ الدار حتّى كانَ الخادمُ باستقبالي ، وقد هرع بسرعة البرق نحوي ، ليأخذ رسن الجواد من يدي ، وأثناء دخولي وجدتُ الشاعر سحيم بن ماء الورد وقد وصل قبلي بلحظاتٍ متخفياً ، ومعهُ جاريته ، ليبعدَ الشكٌ عن نفسه .

دخل كلانا إلى الديوان في منزل فخم ، وقد كانَ هُنالك ثلاثة عبيد ينشرون البخور في الديوان ، وجاريتان ، وقد استقبلونا بالترحاب ، وطلبوا منّا الجلوس على التخت الكبير المفروش بالسجاد القاشانيّ وبعد دقائق ، دخل علينا الخواجةُ مجوّدُ وعانقنا ، وطلبَ من جواريهِ أن يأخذنَ جارية الشاعر سحيم معهنَّ .

**

لقد جلسنا متقاربين ، وكانَ الخواجةُ متوسطَ القامة أبيضَ البشرةِ ، ولهُ لحيةٌ كثّةٌ ، وحين يتكلّم تظهر لثغةٌ خفيفةٌ بلسانه مع حرف السين ، وكانَ قد عمل فيما مضى في بيمارستان الخواجة عماد الدين طويلاً ، وفي شبابه كتب كتاباً مهمّاً ، ويعدُّ شرحاً أساسيّاً لكتاب الشفاء لابن سينا ، وبعدَ أن شربنا قدحين من الزنجبيل حدّثنا سحيم بن ماء الورد عن أمر تعرّض الخواجة عبّاس لمحاولة اغتيالٍ بصورة مختصرة ، وكانَ ذلكَ بعدَ إلقاء القبض على الخواجة عماد الدين يومين ، وثلاثة أيّام من هرب الخواجة سنان . وطمأننا على صحة الخواجة عبّاس وتأمين حمايته .

وقد شعرتُ لحظتها بفرح من نوع ما وبأسى أيضاً .

شعرتُ بفرح لأنّي تيقنت من أن الخواجة عبّاس قد نجا من هذهِ المجزرة الأكيدة ، وأن بعض ضباط الحرس السلطانيّ من أبناء الخواجات تسابقوا لتأمين حماية لهُ ، وأنّهُ لن يكون لهُ المصير الذي لحق بالخواجة عماد الدين . ولكنّي شعرتُ

بالأسى لأنّ الخواجة عماد الدين لا يقلّ أهميّة عن الخواجة عبّاس ، فلماذا لم تفعل الطائفة شيئاً إلى الآن في سبيله .

لم يكن لدي أيّ شكٌّ بالخواجة عبّاس ، ولا في عظمته ، وما من شكٌّ في رؤيتهِ وقيادتهِ وتجربتهِ ، كما أنّ تولي أمر الطائفة هذهِ الأيّام ، على الرغمِ من مخاطر الموت والبطش في بغداد ، أمرٌ فريدٌ في قبولهِ ، فَقد صنع امتزاجاً مذهلاً بين البطولة والتضحية بالنفس ، بين بذل النفس والعبقريّة ، ولكنْ لماذا لم يقدّم أيّ شيءٍ إلى الآن للخواجة عماد الدين؟ هكذا سألت الخواجة سحيم بعدَ أن شعرتُ بأني مللتُ من الحديث عن العمل السرّي ، وصيانة الطائفة ، والتخفّي ، وعدم إفشاء الأسرار ، فسألتُ :

-ما رأي الطائفة بما يحدث للخواجة عماد الدين ، ولماذا لا نقوم لفعل شيء لهُ؟

فلا يمكن أن نكون بمنجى عن أيّ عقاب لو طال الموت الخواجة عماد الدين ، ذلكَ أن الإدانة ستكون شاملة ، وغير محصورة بشخصه .

قالَ سحيم بعد أن تنحنح ، إنَّ الأمر ليس مشؤوماً إلى هذا الحد ، ولكن العمل صعب جدّاً ، ونحن لا يمكننا أن نضحّي بالطائفة كلّها من أجل أحد الخواجات حتى لو كانَ هذا الخواجة الرئيس والمؤسس الفعلي للطائفة .

لحظتها شعرتُ بأني لا أستطيع كظم غيظي أكثر ، فقلتُ لهُ :

- ويحك . . ويحك . . ماذا تقول؟ هذا الخواجة عماد الدين يا صبي ، وأنت تقول، عنهُ أحد الخواجات .

فنظر إلي غاضباً ، وتلاقت عيناي بعينيه مباشرةً ، وكانَت شفتاي ترتعشان من الغيظ ، فقلت :

- اسكت عن هذا وإلا سأثكل بك أمك .

فقالَ لي :

- الأوامر هي الأوامر ، وأنت لا يمكنك أن تأخذ الأوامر إلا من الخواجة عبّاس ، فهوَ كبير الطائفة الآن ، وعليك أن ترفع لهُ سيفك مبايعاً .

فقالَ لهُ الخواجة مجوّد الطائي لقد تمّ توزيعُ رسالةٍ عن الخواجة عماد الدين هذا اليوم ، اتسمت بالفطنة والمهارة لأنّ فيها الكثير من الحقائق عن حياة الخواجة عماد الدين وحيلة عائلته ، ولكنّها تصفه بأنّهُ يعترف اعترافاً بيّناً بالهرطقة ، وأنّهُ زنديق ، ويعادل مفهوم الزنديق لديه كلمة صدّيق ، وتصفه الرسالة بأنّهُ طموح لا رادع لهُ ، ومشعوذ دجال .

قلت لهُ :

- اسمع ، هذا يعني أن القاضي عبد الرحمن يعد العدّة لقتلهِ ، وأنا لا أستبعد أن الفتنة هذا اليوم هي لقتل القاضي ابن مؤنس ، وإحلال القاضي النيرمانيّ كي يقر بتصليب الخواجة عماد الدين .

سكت الشاعرُ سحيم ، غيرَ أنّ الخواجة مجود أضاف أن القاضي عبد الرحمن قبل ساعات كانَ قد قبض على رضاب

جارية الخواجة عماد الدين ، وهي التي يحبّها حبّاً جمّاً ، ويقال إنّهُ يريد تعذيبها أمامهُ كي يعترف لهُم ، ويدلني بمكان قاموس بغداد .

لم ينطق الشاعر سحيم بكلمة ، بينما شعرتُ ببدني يرتعش بأكمله لسماع هذا الخبر .

V
رياح التغيير

في الصباح بدت الأمور بالنسبة لي أكثر مأساويّةً ، كنتُ أشعر بأني سأعيش يوماً آخر من الكدر والحزن لو لم أفعل شيئاً للخواجة عماد الدين في حبسه ، كنتُ أشعر بنوع من الخجل بسبب هذا التخاذل ، فمهما كانَت الأسباب التي كان الخواجات يتذرّعون بها ، لا يمكن السكوت على كرامة الطائفة المهدورة ، فليس أمراً سهلاً أن يرمى رئيس الطائفة في الحبس ويواجه عقوبة الموت ، وتعذّب جاريتهُ أمامهُ ، ولا تفعل الطائفة شيئاً لإيقاف هذا الانتهاك ، ولا تتدخل ، خوفا على وجودها واستمرارها ، وخوفاً من انكشاف أمرها .

كانَ الشخص الوحيد الذي يمكنني الاتصال به ذلك الوقت هو الخواجة سحيم بن ماء الورد ، وكنتُ ناقشته مراراً وبغضب ظاهر :

- ما يحدثُ هو الاستغناء السريع عن الأخلاق والأعراف ، قلتُ لهُ ، ثمَّ أكّدتُ :

- أما هُنالك من وسيلة للدفاع عن الخواجة عماد الدين؟

- لا . . قالَ بشكل مرتبك .

- هل يمكن تصديق هذا؟
- هُنالك بعض المتردّدين . . . .
- يا إلهي . . ماذا تعني بهُنالك بعض المترددين ، قلتُ لهُ . لقد قامت طائفتنا على تقديس العمل البطولي ، وشجاعة الرجال ، والإعلاء من شأن الإرادة .

بعدَ ذلكَ خرج الخواجة سحيم وبقيتُ في منزلي وحدي ، كنتُ أروح وأجيءُ في الحجرة ، وأفكّر في نفسي بعملِ شيءٍ ما ، ذلكَ أنَّ الأمرَ قد تجاوزَ كلَّ حدٍّ ، فعلى فرضٍ كانَ كلامهُ واقعيّاً ، وأنَّ بضعةَ خواجات متردّين ، أو بضعةَ خواجاتٍ خائفين ، أو جبناءَ ، فهل يمكن قبول هذا الأمر في طائفة تؤمن بالعمل البطولي وتعلي من شأن الإرادة؟

كان الخواجة سحيم يعدّ هذا الأمر أمراً إنسانيّاً ولا يمكن تجاوزه ، غيرَ أنّ أهم ما في أيّ نظام أو طائفة ، وبالذات طائفتنا ، هو اتجاهُ الإرادة ، أيّ بمعنى آخر ، أنَّ الإرادة هي التي تميّز طائفتنا عن الطوائف الأخرى ، والأفراد الذين ينتمونَ إليها هم متميزون بإرادتهم الفولاذيّة التي يتمّ صقلها بالمعسكر وبمدرسة الحكمة أيضاً .

وعلى فرض وجود فئة في مكانٍ ما من الطائفة متردّدة ، ولكنَّ الطائفة أكثر اتساعاً بما تنطوي عليه من إمكانيّات جزئيّة ، إنها أكبر بكثير مما تنطوي عليه من مجاميع ضعيفة أو متردّدة أو خائفة ، ولدى الحكم على الأفراد ، وما إذا كانوا شجعاناً أم لا ، فمن الضروري التعرّف إلى طبيعة اتجاه الإرادة

في ذواتهم ، فإنْ كانَ ذاهباً باتجاه الحسم ، فهم شجعان في النهاية .

أبو علي السكّير

لقد أثّرت قضيةُ الخواجةِ عماد الدين بالكثيرِ من الناس ، فقد نقلَ لي الخواجةُ مجوّد الطائي ، وقد كان في سوق الثلاثاء في الصباح ، أنَّ أبا عليٍّ السكّير ، وهو شاعرٌ مشرّدٌ ، لا يعدّهُ الناس إلاّ عربيداً أو مجنوناً ، وقف منتصف السوق وشتمَ الوزير ، وشتمَ القاضي عبد الرحمن وأثنى بقصيدةٍ على الخواجة عماد الدين ، وعلى الطائفة الخواجيّة .

قلتُ له «أبو علي الصعلوك والمعربد لم يكن أحد أفراد التنظيم أو الطائفة ، وما فعله عظيم بحدّ ذاتهِ وأفضل بكثير مما فعلته الطائفة؟»

وقد سألتني جاريتي ذلك اليوم وهي مذهولة مما وصف لنا الخواجة مجود الطائي من شجاعة هذا الشاعر الصعلوك : «هل يمكن أن نصف بعض هؤلاء المشردين بالأخيار؟» .

قلت لها «نعم يمكن ذلكَ» .

وأنا صادقٌ في هذا الرأي لا لأنّهُ دافع عن طائفتنا ، ولكنّي أتحدّث بشكلٍ عام ، ذلك أنّ أداء بعض الناس في سلوكهم ينتمي إلى حيّز الرذيلة ، ولكنَّ اتجاه إرادتهم الهادف إلى التخلي عن الجبن ، يوصلهم إلى المجاهرة بالحقّ ، وهذا يعني أنّهُم في داخلهم يتبعون الفضيلة ، وحتّى أثناء ظهورهم

كأشرار ، فإنّ رذائلهم أوهى من أن تنال من بنيانهم الأخلاقي ، ولذلك فإنها ضروريّة لمن يحاول إبراز حقائق ذلكَ البنيان الذي يتصف به .

الحدث

إنّ التحولات الكثيرة في قضية طائفتنا تثبت ما كنت أقوله لا العكس ، وهذا ما جعل البعض مخدوعاً إزاء هذه التحوّلات ، ومنها الحدث المزلزل الذي وقع تلك الأيّام ، وهو انقلابٌ حقيقيٌّ للوقائع ، فقد حدث تحركٌ سريعٌ ومفاجئٌ للأحداث على نحو حسن . ومع ذلكَ كنتُ أتساءل هل تقف الطائفة الخواجيّة مكتوفة الأيدي ، لننتظر المبادرة من خصوم الطائفة؟

لا أحد ينكر ، أو يستسلم ، أو يحزن ، ذلكَ أنَّ حدثاً عظيماً قد اندلع في بغداد ، وقد قلب وجهة الأحداث مرّة أخرى عكس ما كانَ يتجه إليهِ قارب القاضي عبد الرحمن .

وكانَت هذهِ الأحداث غير المتوقّعة هي شرارةُ الأمل الحقيقيّة التي أنعشت روحي الخامدة منذ اعتقال الخواجة عماد الدين ، فبعد أن أمضيتُ ليلاً طويلاً من التفكير والسهاد ، مع أني لم أذق طعم النوم بشكلٍ حقيقي منذ يوم إلقاء القبض عليه ، ولكنَّ هذا اليوم كان بشكلٍ استثنائيٍّ .

استيقظتُ ليلاً ، وأخذتُ أروح وأجيءُ في حجرة المكتبة ، وكنتُ قررتُ في حمى التفكير المتناقض والمتضارب قتل

القاضي عبد الرحمن في الصباح، لا محالةَ، أو قتل القاضي النيرمانيّ، ومهما كانَت النتائج، وقد عزمتُ على شدّ اللّثام على وجهي وحمل خنجري معي والذهاب ضحىً إلى المحكمة، وهُناكَ وبعدَ أن تعقد، أحاول إيجاد ثغرة من بين الحرس المنتشرين، وسأندفع بكلّ قوّة نحو أحد هذين القاضيين وأغلّ الخنجر في قلبه.

قررتُ أن أنفّذ هذا الفعل رغماً عن كلّ القرارات المتشدّدة التي صدرت عن مجلس الخواجات في الطائفة، وقلتُ في نفسي سأواجه أيّ حكم على هذا، سواء أصدر من الحكومة أو من مجلس خواجات الطائفة، إذ سيعتبرني متمّرداً أو خارجاً عن النظام، بصورةٍ أكيدةٍ.

تحول الأحداث

في الصباح سمعتُ طرقاتٍ متواصلةً على الباب، وقد عادَ خادمي ليقولَ لَي إنَّ الخواجةَ سحيم بن ماء الورد لدى الباب، فقلتُ لهُ «دعهُ يدخلُ في الحال». لقد شعرتُ أنَّ الأمرَ قد تغيّر، ذلك أنّ رُسلَ الطائفة يمرّون بي في العادة تحت جنح الظلام، وبما أن سحيماً جاء في الصباح فلا بدّ أنَّ أمراً ما قد حدث.

دخل علي سحيم بن ماء الورد باسماً، وكانَ برفقتهِ شخصٌ آخر، اسمه زيد، وكانَ رفيقاً لنا في الطائفة، عرّفني عليه الخونساري في مدرسة طبرستان، ومن ثمَّ التقيتهُ في

بغداد عدّة مرّات .

وقد أبلغاني خبراً أسعدني جدّاً ، قالا لي إن الوزير معزّ الدين قد عُزل عن الوزارة ، وصار محلّه زياد بن هارون ، وإنّ زوجة الخليفة والحاجب وإحدى القهرمانات والوزير الجديد يريدون كفّ يد القاضي عبد الرحمن عن قصة الخواجيّة وعن التشهير بالخواجة عماد الدين ، وكلّ ما سيحدث للخواجة عماد الدين هو تعليقه على عمود التشهير كمهرطق وهي من تخيلات صاحب الشرطة ، فقط ، ومن ثمّ إطلاق سراحه .

**

لقد فرحت بهذا الخبر جدّاً ، وبعدَ أن ذهبا عدتُ إلى حجرتي وكتبتُ رسالتين واحدة إلى مجود الطائي وأخرى لابن المقيل أحدّثهما عن هذا الأمر ، ولشدّة فرحي أمرتُ أحد الغلمان «جميل» ، بمرافقتي إلى السوق على وجه السرعة .

في الواقع كانَ في نيّتي تسقّط أخبار المحكمة من هُناكَ ، وأفهم ماذا سيحدث فيما بعد ، وما هو مصير القضاة وما هو مصير الخواجة عماد الدين .

وكنتُ وأنا في الطريق إلى السوق قد صممت بيني وبين نفسي ، بأن لا أتخلى عن مقتل هذين الغدّارين مطلقاً . فحتّى لو استتّبَّ الأمرُ للطائفة ، وتمّ كفّ يد القاضي عبد الرحمن ، على الطائفة أن تأخذ على عاتقها جديّاً قتله ، لا يمكن ترك هذا القاضي طليق اليد ، فهوَ من جهته لن يسكت عن الطائفة مطلقاً ، ومن جهة أخرى يجب أن تضع الطائفة حدّاً للعابثين

بوجودها ومستقبلها ، ومستقبل مدينة بغداد من ورائها .

**

سرتُ على جوادي بهدوءٍ في شارع السراة ، وأنا أرقبُ العالم المحيط بي وقد تغيّر في ناظري ، كانَت الخصل الطويلة من ضوء الشمس الذهبيّة تتودّد إلى المنازل القريبة . وأغصان الشجر المبتل ، من مطر الليلة الفائتة ، تتمايل بخفّة وتقطر ماء ، وضياء الشمس الذهبي يتلألأ مرّة على هذهِ الورقة ومرّة على تلك ، فيؤلقها بتبرٍ ناعم ، وبعدَ أن وصلت إلى الجسر شاهدت نوارس تدور مدوّمةً على النهر ثمّ تلقي نفسها في الماء ، وشاهدت وعولاً تتمطّى عند أوتاد سياج قصر كبير على مقربة من رأس درب المولى ، فشعرتُ بهذا الجمال الذي انبثق على الفور . إنّهُ جذل رهيف يأخذ بروحي عالياً ، ونشوةٌ خفيفةٌ تعصفُ في بدني جعلتْ عيني تغرورقان بالدموع .

صراع أبدي

من دون شكٍّ أنّ صراعنا مع القاضي عبد الرحمن وأضرابه من جباة الضّرائب ومن وحوش المال والسلطة والنفوذ لا ينتهي ، وهو صراعٌ يحدثُ طوال التاريخ ، ولم ينته أبداً ، وهو ليس صراعَ بطلٍ من أبطال الطائفة ضدّ قدره ، إنما هو عقابٌ يأتي من قبل القوى التي تريد أن تستبدّ بالحياة وأن تصفّي خصومها ، وتنهي كلّ تهديدٍ لها ، لتبقى يدها طليقةً على الدوام ، فأكثر ما يخيف هؤلاء هو مبدأ الحريّة الذي تعتنقه

الطائفة ، فتحرير الناس من الخرافات ومن العبودية يثير طغاة المال والمستبدين .

**

وحين وصلت السوق وجدتُ سرادقاً كبيراً منصوباً ، وفيه كبار وجهاء بغداد يتباحثون بمصير الخواجة عماد الدين وما حدث للطائفة ، وقضيّة المحكمة وإنشائها وتشكيلها لقتل هذا الخواجة العظيم ، ومن الذين رأيناهم في السرادق والي بخارى ، ومريم بنت الحسن زوجة كاتب الدولة في ديوان الجيش ، والوزير بن هارون ، وأحد أحفاد نصر الحاجب الشهير .

وهكذا شعرتُ باطمئنان كبير .

بعدَها رأيتُ سحيم وقد كانَ مستبشرا فقالَ لي :

- أنت على خطأ . .على خطأ . . .

كانَ يعتقد أن هذا الصمت الذي أبدته الطائفة هو أشد حيويّة وأبلغ تعبيراً من أيّ ثرثرة حانقة ؛ إذ ينفي العقوبة التي استهدفتنا ، وينفي الحكم الذي وجّه لنا . إنّهُ تصدي بالروح ، حيثُ واجه الخواجة عماد الدين بروحه هجوم القوة الضارية .

قلت لهُ هذا صحيح فيما يتعلق بالخواجة عماد الدين ومنذ اللحظة التي شدّوا بها وثاقه على جذع النخلة الخرساء ، لقد شد وثاق خصمهِ إليها أيضاً ، وقد تحوّل هذا الجذع الساكن إلى صخرة صماء تحطمت عليها كلّ نصال الاستبداد واللاشرعيّة .

- ولكن ماذا بالنسبة لنا؟ هكذا سألتهُ .

- ماذا تعني يا خواجة نصر الدين؟

- أعني يا خواجة سحيم إنَّ ما حدث سيستمّر موضوعاً لقلقنا ؛ بل يجب أن نجعلَ منهُ ، بصورةٍ معقولةٍ نقطةَ بداية لا نهاية .

- لم أفهم . . ماذا تقصد يا خواجة؟

- أقصد أنَّ النجاةَ هنا هي مصادفةٌ ، نجاةٌ عرضيّةٌ ، ولا يمكن ترك الأمر هكذا ، ويجب تفسير الأمر بهذه الطريقة للخواجة عبّاس .

- سأنقل له ذلك .

- قلْ لهُ إنّ كلّ حدث هو عبارة عن بنيةٍ صغيرةٍ من المصادفات المختزلة والمختصرة لأبعد درجة ، أمّا المحرك الحقيقي الذي سيقود الأحداث فيما بعد هو رفض المهزوم الاعتراف بهزيمته ، فالصراع لا ينتهي بنجاة الخواجة عماد الدين قطعاً ، بل يبدأ ، لأنّ القاضي الذي يظن أنّهُ يطبق عقوبة إلهيّة ، سيعتبر نفسه منفيّاً أشد النفي ، وقد عومل من جراء ذلكَ بصورة ظالمة ، ثمّ يشرع في التمّرد ، في الواقع سوف يبدأ دوره .

VI
حلم غريب

في الليل كنتُ حلمتُ حلماً غريباً :

وجوه الطائفة شاحبةٌ حزينةٌ ، وهي تقفُ بين سهوبٍ صفر بعيدة ، وراء الأراضي المأهولة ، وبعدَ قليل تقدم موكبٌ : كانَ الخواجة عماد الدين مربوط اليدين ، يقودهُ القاضي عبد الرحمن رمز الاستبداد والعنف ، وهُنالكَ الجلاد حامل أدواته بيديه .

وحين استيقظت شعرتُ بأنّ أمراً ما قد حدث . لقد شعرتُ أنَّ هذا المشهد هو علامةٌ على مقتل الخواجة ، وفي الصباح لم أستطع تناول فطوري ، فخرجتُ من الباب وكانَ في مواجهتي أحد الخواجات ، يحمل خبراً حزيناً حزرت ذلكَ من عينيه المتورمتين ومن تعابير وجهه المزوّرّة ، طأطأ رأسهُ أمامي ولم ينطق بكلمة ، قلتُ لهُ :

- ما خطبُك؟ أنا متهيء لسماع خبر سيّء!

- أما عرفت ، لقد عزل الوزير بن هارون في الّليل ، وعاد الوزير معزّ الدين ، وقرّروا مقتل الخواجة عماد الدين هذا الصباح .

ثمَّ شرحَ لي الأمر بشكلٍ مقتضبٍ جداً ، إذ حدثتْ مؤامرةٌ أخرى ، وتمَّ عزلُ الوزير وأعيد الوزير السابق مرّة أخرى ، وهذا هو الذي مكن القاضي عبد الرحمن من استعادة موضوع الطائفة الخواجيّة ، بل وأعاد معها قصة قاموس بغداد على الملأ ، وجعل منها قضيّةً سياسيّةً ، وتدخّل بعض موظفي الدولة الكبار ولاسيّما في بيت المال لتأجيج القضيّة لا باتجاه الخواجة عماد الدين حسب ، إنما باتجاه الطائفة برمّتها .

**

عدتُ إلى المنزل لا أعرف ماذا أفعل ، بعدها جاءني الخواجة سحيم على فرسه ولم يقبل الهبوط عنها وانتظرني قبالة الدار ، فخرجتُ راكضاً لملاقاته ، ودون مقدّمات قال لي إنّ موت الخواجة عماد الدين أصبح أمراً مقضياً .

وحين غادر الخواجة سحيم ، لم أستطع البقاء في المنزل ، فتقلدتُ خنجري وأخفيته بين ملابسي وغادرتُ ، وحين وصلت السوق التقيتُ هناك مجوّد الطائي ، فقال لي إن قرار الإدانة قد تمَّ ، وختم من قبل الخليفة .

وقد سألته كيف ذلك؟ قال لي إنّ الفقيه محمد العمّاري أقنعه به .

وكنتُ للحظة الأخيرة عاقداً الأمل على صعوبة إقناع الخليفة بأمر الإدانة من الناحية الفقهيّة ، غير أن محمّد العمّاري قد قلب الموازين .

فهذا الفقيهُ الذي كانَ معتزلياً ، قد انقلبَ على المعتزلة ،

ثمَّ تحـوّل إلى أشـعـريّ ، ثمَّ إلى ظاهريّ ، وهو يتـقلّبُ تقلّبَ الحرباء ، لم يكنْ عالماً إنّما كانَ يخفي أخطاءه باللّباقة ، ويظهرُ نفسهُ محدّثاً ، ويلتزم قراءة المساند في مجالسهِ ، وهو الذي أقنع الخليفة الذي كانَ متطيّراً وارتيابيّاً ، في آنٍ واحد ، بتصليب الخواجة عماد الدين والتنكيل بالطائفة ، ثمَّ عاد طائراً على وجه السرعة ليبلّغ القاضي عبد الرحمن والقاضي النيرماني بالأمر ، ليعدّا مشهدَ القتلِ سريعاً قبل تغيّر الأحوال ، فكانَا يهجسان أموراً سريعةً سوف تحدث في الأيّام المقبلة ، وبعدَ ساعات كانَت قد حدثت في محلّة العتابين ثورة في السوق ، أقامها فقراء بغداد ، وقد دمّروا سرادقات الحنطة المحتكرة ، وضربوا على أيدي التجّار وعمّت فوضى عظيمة .

إدانة وموت

لقد عدتُ إلى المنزل خائباً .

جلستُ فاقدَ القدرة على الكلام ، أو التفكير ، أو فعل أيّ شيء . هُنالكَ خلقٌ كثير معادون للطائفة ، هُنالكَ نموذجٌ للمتملّق الكامل ، لمسدي النصائح المعسولة ، للأخلاقي المسرور الذي قد نستغرب مصادفته في الطائفة ، هذا يعني أن الجديّة النبيلة التي فرضتها الطائفة ليست قانوناً يفوق الحقيقة ، إنما هُنالكَ ثغرات تنفذ منها النفوس الضعيفة .

لقد أمضيتُ الليلَ كلّهُ هكذا ، كنتُ جالساً على ركبتيَّ مهدودَ القوى ، ومع بزوغ خيوط النهار الأولى على باسقات

النخيل المرصعّة جذوعها بالنحاس وخشب التك ، وعلى البرك القصديريّةِ الضخّمةِ في جنّةِ بغداد المحاطة بالأسوار ، كانَ هُنالكَ صمتٌ عجيبٌ يهيمنُ على المكان كلّهُ ، إنّه صمتُ الموت دون ريب ، وكنتُ أهجسُ من مكاني بروح الخواجة وهي ترفرفُ في مكانٍ قريب ، لن تكون هذهِ الروح راضيةً هذا اليوم ، مع أنّها لمْ تكن ولن تكونَ إلا بما يقربُ التمام ، لن تكونَ إلا حينما تكونَ آمنةً ، وهي ليستْ كذلك ، فالكراهيّة هي التّي ستتحرّك أخيراً ، العداوة القويّة هي التي ستقضي على ما عداها ، العداوة التي تجعل الروحَ تُكشط وتؤذى . هذهِ الكراهيّة هي التي تمّده اليوم بالألم الجسمانيّ ، هي التي تنهي ارتباط المتعة بالجمال ، وتنهي ارتباط اللذة بالصداقة .

**

وهكذا أعدَّ الجلادون مشهدَ القتلِ أمام الناس ؛ أيّ المشهد العلنيّ للتصليب .

وقد طلب القاضي عبد الرحمن إحضار الجارية رضاب موثوقةً لترى تصليب حبيبها بعينيها ، وقد أصرّ على ذلكَ على الرغمِ من معارضة صاحب الشرطة للأمر ، وقد أذعن فيما بعد .

وأكّد كلّ من ذهب ذلكَ اليوم أنَّ الصداقة والحبَّ اللذين كانا بين الخواجة عماد الدين وجاريته عميقان ومديدان ، فقد كانَت هُنالكَ إشاراتٌ ساميةٌ عن تعلّق كلّ منهما بالآخر في مشهد المأساة الأخيرة ، الجاريةُ وقد شقت عن صدرها حين-

رأت حبيبها وهو ينتظر لحظةَ التصليب ، والحدسُ المؤلمُ الذي انتاب الخواجةَ حين علّقتْ جاريتهُ التي شغفَ بها من صدرها لتجلدها يد الجلاّد عمر القاهر ، جلاّد سجون القاضي عبد الرحمن والوزير الظالم ، وهو يائسٌ في الدفاع عنها .

قالَ لي الخواجة مجوّد الطائي إنَّ القاضي عبد الرحمن والنيرماني عذّباها صنوف العذاب أمامهُ ، حتّى إنهما علقاها منكسةً من ضرعها ، فبالت ، فكانَ بولها يجري على وجهها ، كلُّ هذا وكانَ الخواجة عماد الدين ينظرُ بعينيهِ دونَ أنْ يفعل شيئاً ، وكانَ القاضي عبد الرحمن جالساً في صحنٍ كبيرٍ ، عند باب ممدود عليهِ ستارةُ ديباج ، على كرسيٍّ حديدٍ وفي يدهِ حربةٌ يقلبُّها ، وخدمهُ قيامٌ على رأسه .

في الظهيرة

لم أعدْ أحتملْ ، حلّت الظهيرةُ ، فركبتُ جوادي وتوجهتُ صوبَ مشهد التصليب .

هكذا إذن كانَ هُنالكَ جذعان ، شُدَّ الخواجةُ عماد الدين على الأول ، وفي مقابله شُدَّت جاريتهُ رضاب التي أحبّها في حياتهِ حبّاً جمّاً ، شُدّتْ وهي محلولةُ الشعرِ ، مشقوقة الصدرِ ، بينما كانَت جموعُ العامة المحتفلة بالتصليب حاضرة .

وهكذا استمرّ هذا التلاعب بالخواجة عماد الدين لتهديمهِ وتحطيمهِ قبل تصليبهِ ، فها هو يشهدُ تعذيب الجارية رضاب أمام عينيهِ وهو عاجزٌ عن فعل أيّ شي .

القاموس لن يتكلّم عن مكانه أبداً ، لأنّهُ يعرف جيداً أنَّ أمرَ مقتله قد اتخذ ولا عودة عنهُ ، كما أن موقع هذا الكتاب لدى الطائفة برمّتها لا يمكن التلاعب بهِ أو وضعه تحت ارتهان العواطف ، ومع ذلكَ كانَ هُنالكَ صخبٌ عامٌ في الطائفة ، فهُنالكَ شعورٌ مصطنعٌ من الودّ اتجه نحو الخواجة عبّاس كصانع معجزاتٍ حقيقيّ ، وأن الخواجة عماد الدين من السعداء غير المبالين بالطائفة ، بينما اتهم البعض النشاط الإعلانيّ للخواجة سنان .

**

لقد أُعلنَ الحكم ، وقد وقّعَ عليه الخليفةُ فوراً ، ومهرهُ بخاتمه ، وقد قالوا إنّ الحكم على الزنديق يفترضُ إباحةَ المالِ ، وسفكَ الدمّ ، وحكم الخلود بالنار ، واستعبادَ نسائه وأولاده..

وقد فسّر القضاةُ التصليب هو العرضُ على المصلّب ، حيثُ تمّ ربط الخواجة عماد الدين إلى خشبة القصاص ، أي على جذع النخلة ، ثمّ قاموا بنشر أذرع الخواجة ممدودةً ، وقد دقوا يديه بالمسامير وأخذتْ تنزفُ ، ورفعوا رأسه إلى الأعلى . وقالوا للناس بعدَ التصليب سوف نمدّده على النطع الجلديّ ونقطعُ رأسه .

**

لقد شهدتُ هذا المشهد بعينيّ ، لا مشهد قتل الخواجة عماد الدين فقط إنما شهدت صراعَ فكرتين تتنازعان بغداد ، فكرتي الخير والشر بطبيعة الأمر ، وربّما هو صراع البشريّة كلّها

منذ أوجدها الله على هذهِ الأرض .

وها هما الخصمان يلتقيان ، أحدهما حاسر الرأس مربوط إلى جذع النخلة ، وربّما هو الخير المربوط على الشجرة على مرّ العصور ، وذلكَ الذي يقف وهو منعزلٌ فيما وراء الظلم عن البشر وآلامهم ، منعزل كلّياً عن ضحاياه .

هذا هو إذن الصراع الذي يتفجّر في الحال ، ففي هذهِ الفوضى الكلّية في بغداد ، كنّا نحن أعضاء طائفة الخواجيّة نرى الشرارة اللامعةَ على حضور قصة هذهِ البشريّة مذ خلقها اللهُ على هذهِ الأرض ، حيثُ يغيب الحقَ والعدل كلّياً عن المشهد ، ولا يظهرُ بيننا وبين رموز الاستبداد إلا شبحٌ مخيفٌ له اسم مجرد يدلّ على سلطة مطلقة لا رادعَ ولا قانونَ أخلاقياً لها .

ساعات ونحن نقف على أقدامنا ، حيثُ تقدم المحاكمة للناس وعبر القوة الضاريّة ، نوعاً من العنف المحض ، ماذا سيحدث بعد ، جنودٌ مدججّون بالأسلحة ، وقضاةٌ يتمتّعون بسلطة الخليفة التي لا رادع لها ، وجلاّدون يظهرون دقةً كبيرةً في مراقبة الحشد ، ويظهرون المتعةَ العارمةَ التي يشعرون بها أثناء غرس المسامير في جسد الخواجة عماد الدين ، وهُنالكَ جمهورٌ يتلذّذ وهو خائف ، جمهورٌ يرتعدُ وهو يرى مشهدَ القتلِ فيتهيّج وينهالُ بصورةٍ وحشيّةٍ ومريعةٍ على الخواجة بالسخرية والشتائم المقذعة بصورةٍ خسيسةٍ .

كنا نتزاحم ، وأنا كنتُ أتزاحمُ بين الناس أيضاً ، كانَ

الجمهور كثيراً ، بعضهم يحملُ أسلحةً بيدِه ، سكاكينَ ، وعصياً وأطباراً ، وهم يصيحون ، يشدّون على رؤوسهم عمائم قذرة ، ويرتدون ملابسهم زنخة ، وهم يصيحون بأصوات عالية .

كنتُ أسألُ نفسي : من أين جاء القضاة والجلاّدون والشرطة بهؤلاء؟

هذهِ الوجوه لا تراها كلّ يوم في بغداد ، إنّها ذاتها غير مرغوب بها من قبل الشرطة ، إنّهم يطاردون هؤلاء المشرّدين أيّنما وجدوهم ، لأنّهُم يشوهون صورة المدينة . لقد حرّكوهم اليومَ فقطْ لمواجهة الطائفة ، من يدري وربّما في اليوم التالي سيتخلّصون منهم ، على العموم كانَ المشهد مصنوعاً ، وكانَ من بين الحاضرين بطبيعة الأمر الكثير من الخواجات المتخفّين ، وهُنالكَ قضاة دفعهم الفضول ، وجباة ضرائب ، وصيرفيون ، وشعراء ، وطلاب ، وإماء خارجات من السوق ، ونساء محلّة الطاق ، وهُنالكَ الكثير من الشبان الذين جاءوا على جيادهم وتوقفوا ينظرون المشهد من بعيد ، بينما كانَ الخواجة عماد الدين مربوطاً على الجذع ، نازفاً ، حاسر الرأس .

هذا المشهد يكشف لكلّ الواقفين عن قسوة الحكم الصادر لا على الخواجة فقطْ إنّما على ما يمثله اليوم من رمز ، ولم يكن الجميع من المتآمرين إنّما كانَ هُنالكَ الكثير من المتعاطفين ، هؤلاء الرجال الذين كانَوا ينظرون نحوهُ بحنانٍ أخويّ ، والذين كانَوا ينظرون وهم يتأوهون على آلامهِ ، وهو يقفُ بانصياعهِ القسريّ ، بينما تندّد دموعُ النساء بلا إنسانيّة الحكم ، وتنزعُ

عنهُ كلّ شرعيته ، حتى وإن كانَ مختوماً من قبل الخليفة ، الذي يمثل الحكم الشرعي على الأرض .

أمّا صمتُ الخواجة عماد الدين فهوَ صوتٌ آخرُ في هذا المشهد ، كنتُ أراهُ وهو هادئ الأعصاب أمامَ جلاّديهِ ، وهو يعبّرُ عن سلطة الحقّ والعدلِ بكلّيته عبرَ لزومه الصمتَ ، فلمْ يجبْ أحداً سواء أكانَوا يسخرون منهُ أم يرثون لهُ ، فهوَ لا يردّ لا على علامات الشفقة ولا على التهكّمات .

قطع الأرجل والأيدي من خلاف

لقد تبختر نحو الموت ، كما تبختر في الحلم ، إنّهُ ذاهبٌ في سبيل الشهادة رافعاً ذيل ثوبهِ ، وله ما يكفيه من الصفات القتاليّة الجسورة ، وهكذا كنّا ننظرهُ ، حين بدأ عمر القاهر ، جلاّده ، بجلدهِ ، وقد ضربهُ مئة سوط ما تأوّه ولا استعفى .

ثمَّ قطعوا يدهُ ، ثمَّ رجلهُ ثمَّ يدهُ ثمَّ رجلهُ ، وكانَت رضابُ ترفعُ رأسها لتتأوّه عنهُ ، ويسقط رأسها على صدرها ، كانَت الآه تأتي من فمها لا من فمهِ ، بينما كانَ رأسه مرفوعاً ، ينظرها .

ثمَّ ركض القاضي النيرمانيّ ليكتبَ على لوحٍ جلديّ :

هذا الكافرُ المشركُ الضالُّ ، عمادُ الدين بنُ أبي ريحانة النقّاش ، وقد قتلهُ الله على يد الخليفة أمير المؤمنين .

لمْ يتمكّن بعض الخواجات من حبس دموعهم ، وكنتُ أشعر أن كلّ الأرض تنفجر باكية عليه ، وستبكيه بلاد فارس ، والرها ، وغرناطة والصين ، وبخارى ، ولم تأنّ الجاريةُ رضاب

وحدها إنما سيئنُّ عليه الجنس البشري الفاني ، وجواري القصر ، والبدو في صحراء المدائن ، وقاع نهر دجلة السحيق وموجه . .

وحين طالب رئيس الشرطة بقطع رأسه ، اعترض القاضي عبد الرحمن ، وقالَ لقد طلع المساءُ علينا ، سنتركهُ إلى الصباح ثمَّ نقطعُ رأسه ونحرقهُ . غيرَ أنّ القضاة الآخرين اعترضوا ، وهكذا قد مدّدوهُ على النطع وقطعوا رأسه .

لم يكن حزّ الرأس صعباً ، لقد بتر الرأسُ ، لكنّ من مات هو الجارية رضاب ، فقد قالَ الحرس الواقفون هناكَ وقد صاحوا بالقاضي عبد الرحمن إن الجارية ماتتْ ، فقام وفكّ وثاقها فسقطتْ على وجهها ميتةً .

VII
تمّرد

هكذا كنتُ أنظرُ وجهَ المقتول وقد تدحّرجَ الرأسُ على النطع ، وجسدَ القتيلة وقد رموهُ إلى جانبهِ ، وأخذ الحرّاسُ يغسلون الدمَ الذي غطّى الأرضَ بجرادل الماء ، هكذا كانَ مشهدُ القتلِ . تمّ ربطه إلى جذع نخلة ذات حواف ناتئة ، تضربهُ الريح تحتَ وهجِ الشمس الحارقة ، وتركوا السياط تلسعهُ حتّى أفسدتْ جسمهَ ، وتركوهُ يوماً ليلفّهُ الّليل بمعطفهِ المرصّع بالنجوم ، وفي اليوم التالي أسلموهُ إلى حروق نار الشمس ، ثمَّ صلّبوهُ وقطعوا رأسهُ . هكذا صنعوا مشهد الموت ، ليفهموا الآخرين أنَّ سلطة جباة الضرائب وأولئك الذين يقدّسون طغيان الأفكار مقدّسة .

قلتُ في نفسي ، حسنٌ يجب أن لا يمرّ هذا الحدث كما أرادوهُ هكذا ، علينا أن نفسد هذا الحدث عليهم .

أخذتُ أتحيّن الفرصة لطعن القاضي عبد الرحمن ، وقد كانَ يسير ضاحكاً ومبتسماً وحوله نفرٌ من الحرّاس ، وقد وقف منتظراً القاضي النيرماني ليخرجا من المحكمة ويذهبا معاً ، وأخذتُ أسيرُ وراءهم ويدي على خنجري ، ناظرا يميناً وشمالاً

ومدقّقاً في إيجاد أيّ فراغ يتركهُ الحرس المحيطون به للانقضاض عليهِ ، فجأةً وضع الخواجةُ مجوّد الطائي يدهُ على كتفي ، وقالَ لي :

- أنت مجنون ماذا تفعل؟ سينقضون عليك .

لقد عرف أني أتحيّن الفرصةَ لقتل القاضي ، وسحبني من يدي إلى الخلف ، وهمسَ في أذني أنّهُ ومجموعةً من ضبّاط الحرس سيقطعون عليهِ طريق العودة ، وسيقتلونه هو ومن يدافع عنهُ ، فتراجعت إلى الخَلف إلاّ أنّي طلبت منهُ مصاحبتهم .

قال لي : اذهب أنت إلى منزلك ، وحين نحتاجك سندعوك حتما .

رفضت في البداية ، إلا أنّهُ أقنعني ، ذلك أن قاموس بغداد في منزلي ، لو حدث أيُّ شيء سوف يذهب الحرس السلطاني إلى منزلي ويعثر عليه ، فأدرت جوادي وعدت إلى منزلي .

في الطريق التقيت بالخواجة بشير بن عمر ، وكانَ مسلّحا ومع مجموعة من الشبان الحليقي الرؤوس والمسلحين الذين جاءوا الآن من معسكر التدريب ، وقد قرّروا مهاجمة المحكمة ، وقالَ لي إنّ تمّرداً قد حدث في الحرس السلطانيّ ، حيثُ رفض بعض الضباط الموالين للطائفة ، تنفيذ المهمات ، وقاتلوا ببسالة قرب قصر الخليفة ، وكانَوا ينتظرون أمراً من رئيس الخواجات ، الخواجة عبّاس بالانقضاض علِى القصر ، غيرَ أنّ الخواجة عبّاس لم يعط الأمر ، وقد خشي مجلس الخواجات من مغبة هذا العمل . وقد طالبوا باجتماع عام للتنظيم ، وكانَ بعض قادة

العسكر رجوا من الخواجات العفو . كما فعل قادة حرس الخليفة وتعـهـدوا بوأد الفـتنة ، إلا أنّهُم لم يدركـوا عـواقب الأمـور ، وأصبحَوا مأسورين تحت عين السلطان .

**

وقـبـل وصـولي إلى منزلي سـمـعت صـوت جـواد ورائي ، التـفتُّ فرأيتُ الخـواجـة مجود الطائي على جواده وكـانَ شـاهراً سلاحه إلى أعلى ، قال لي إنه ومجموعة من الحرس السلطاني قـد قـتلوا القـاضي عبـد الرحـمن والـقـاضي النيـرمـاني وبعض حرّاسـهم ، وقـد هرب الآخـرون وإنه الآن يتبع رئيس الشـرطة والجـلاد عـمـر القـاهر في منازلـهـمـا ، وقـال إن الخـواجـة بشـر بن محمـد وكان شجاعا جدا ، قد حمل سـلاحه وهاجم المحكمة ، وهنالك جمعٌ من أبناء الخواجات ومن الفتيان الموالين للطائفة المجهزين بعدّة وافرة من الأسلحة يستعدون لمهاجمة الوزير ، غير أن الخواجة عبّاس يرفض إعطاء أي أوامر بالمواجهة .

**

وعند مـروري من نهـر دجلة عـائداً إلى المنزل ، كنتُ رأيتُ فـردوس بنت عيـسى ، وهي من العـائلة النصـرانيّـة البـغـداديّة الشـديدة الثراء آل عيسى بن فرخانشاه القنائي ، ووالـدها كانَ يدير بيت المال والمال الخاص ثمانية أعوام ، وأخواها من أربعة كـتـاب نصـارى كـانَوا يخدمون عند الوزير ، وبدت لي صـورتهـا الأخيرة مأساويّة ، فقد رأيتُها باكـية لاطمة وقد حلّت شعرها الأسود الكثيف ، وشقّت عن صدرها وهي تصرخ متوسلّةً ولدها

الضابط في الحرس السلطانيّ أن لا يقتل أخاه الأكبر المتهم بالخواجيّة .

**

حينما عبرتُ الجسرَ إلى الجهة الأخرى من بغداد ، وجدتُ كل شيء صامتاً حول هذه المدينة العظيمة ، كل شيء أخرس ، ويبدو أن الصرخة الأخيرة للخواجة عماد الدين هي الصوت الأخير الذي رجعته أصداء دجلة ومحلّة الحربية والقصر القديم في الرصافة . . . . وقد تركتْ بغداد خلفه كهذه الأطلال وهي تتألّق نوراً تحت أشعة الصباح العالية ، فكانَت ظهيرة مقتله ذائبة في شفافية مبهمة ومشوّشة ، وكأنَ الدم مسح السماء بسطوع متفجر وكوني ، بل حجبت الغيوم في الصيف بغداد ككرة ناريّة متعددةَ الألوان ، مضمومة في المركز ، ومشتّتة في السماء .

مذبحة الطائفة

عرفتُ في الصباح بأن يوماً عظيماً مرّ على الطائفة ، فقد توالت اغتيالات أفراد عديدين منّا ، بعضهم من مجلسها الأعلى ، وبعضهم من مجلس الحكماء الذين شكّلوا من الطائفة عملاً استثنائياً في معركة حريّة الفكر ، وتحرير الفرد والعقيدة من التعسّف .

فقد شكّل الوزير معز الدين بن علي ذلكَ الوقت محكمةً برئاسة قاض آخر ، بعدَ مقتل القاضي عبد الرحمن ومقتل

القاضي النيرماني ، وهذا القاضي هو الآخر شديد العداء للطائفة ، وربّما هو الأكثر غلاً بين القضاة والفقهاء ، وقد بطش بأعضاء كثيرين من الخواجات ، متهماً إيّاهم اتهامات شتّى ، مثل الهرطقة ، والزندقة ، والمروق ، وسجن كثيراً من الخواجات في ظروف سيئة للغاية .

وجاءت الأوامر أن ألزم منزلي أيّام المجزرة .

**

وفي الواقع كنتُ جلستُ قرب النافذة حذراً وترقباً متسقطاً أخبار المجزرة عن طريق أحد فتيان الطائفة ، بشكل غامض ومتقطّع . كانَ الشتاء بارداً ، والريح العاتية تقتلع الأغصان الهشّة من جذورها . وتخلع الأوراق المتجعدة وتقذفها إلى السماء . كنتُ أنظر من النافذة إلى حقل المنزل ، هُنالكَ بضع دجاجات جاءتنا بها خادمتنا الفارسيّة جلنار ، تجثم في طرف الحقل ، في قن صغير مفروش بالتبن ، كانَت تقوقئ قليلاً ثمّ تغفو وهي تغمض عيناً واحدة . في أسفل الطريق يبدو النهر مضطرباً حيثُ لا مركب ولا شراع في الأفق ، فأردت أن أفعل شيئاً علي أنسى هذا الاضطراب والاهتياج الذي يعصف في داخلي ، فناديت على جلنار بأن تأتي لي بكتابي الموضوع في الحجرة الأخرى ، حيثُ كنتُ من يومين أنسخ كتاب الفيلسوف الفارابي ، «آراء في أهل المدينة الفاضلة» وهو يستوحي آراء أفلاطون والفلسفة الإغريقيّة في مدينة مثاليّة كنا نرجو أن تكونَ بغداد مثلها ، فهرعت جلنار وقد حملته لي ، وهي تلمح

في عيني الزائغتين شيئاً غريباً ، دون أن تتمكن من أن تسألني عنهُ .

**

في المساء مرَّ الخواجة مجوّد الطائي بي في منزلي ، جلسَ معي ساعةً ، وحدّثني بالتفصيل عمّا حدث ذلك اليوم ، قال حدثت معركةٌ حقيقيّةٌ في صفوف الحرس السلطاني ، وقد قطع الولائيون رؤوس عشرين من حرس الخليفة ، وكادوا أن يفتكوا بالخليفة ذاته لولا أن الخواجة عبّاس امتنع أن يعطي أي إشارة بالمواجهة .

- أين حدث هذا؟ سألتهُ .

- في باحة قصر الوضّاح ، بعد أن دار الصراع قريباً من ديوان الخليفة .

واستأنف الحديث وقال لي إنَّ بعض الخواجات الشباب قد التحقوا من معسكر تدريب الطائفة بأبناء الخواجات من الحرس السلطاني ، وقاتلوا قتالاً شديداً ، وسدّوا الطرقات ، ثمَّ دارت معاركُ بين بعض الموالين للطائفة وبعض الموالين للقضاة ، في محلّة الظفريّة ، وفي طسوج كلواذى .

ثم حدّثني عن بعض فتيان الطائفة الذين حزّوا رقبتي القاضي عبد الرحمن والقاضي النيرماني ، ثمَّ ذهبوا في اليوم ذاته ، إلى منزل رئيس الشرطة طالبين منه التدخّل لفكّ نزاع في محلّة العبّاسيين ، وبعدَ أن خرج قبضوا عليهِ وقتلوهُ وقتلوا حراسهُ الخمسة معه . ثم قال لي ذهبت مجموعة أخرى

للسجن وحررت مجموعةً من السجناء بينهم الخونساري والأسود بن الدهان .

فقفزتُ من الفرح ، وقلتُ له بارك الله بهم لقد أثلجت صدري ، وأين هما الآن .

- في منزل أحد الخواجات يتعالجان بسبب التعذيب .

- أريد زيارتهما .

- سأمرُّ عليك في وقتٍ مناسبٍ وأصطحبك معي .

وما إن كانَ يكلّمني هكذا حتى سمعنا طرقاً على الباب الخارجي . فانزعج وجمع الأوراق التي معهُ وأخفاها تحت حشيّة الأريكة . نهضتُ واقفاً ، فجاءني خادمي وقالَ الخواجة سحيم في الباب ، قلت لهُ فليدخل .

دخل سحيم منزعجاً ، خلع سيفهُ ووضعهُ بجوار الأريكة ، وصافحنا ، فنهضتُ وأفسحتُ لهُ مكاناً بجواري ، كانَ يرتدي عمامةً كبيرةً ملفوفةً حول طاقيةٍ طويلةٍ تبدو قمّتها ظاهرةً في أعلاها . ووضعَ حول عنقهِ طوقاً من حديد ، وهي علامةُ الحرب عند الشراكسة .

خلعَ عمامتهُ وألقاها على التخت ، ومسحَ رأسه وجبينه بكم قفطانهِ . أحضر لنا الخادم مشروباً بارداً ثمَّ وضع أمامنا صحناً من الفواكه .

قالَ إنّهُ حضر اجتماع مجلس الخواجات في منزل الخواجة القالَي ، وحضر معه العديد من مجلس الخواجات .

- ماذا حدث؟

- قرّروا قتل الخواجة سنان . . .

- ولكنْ عليهم أن يأتوا بالدليل الحقيقيّ الذي يدين الخواجة سنان أليس كذلكَ؟

- طلب بعض الخواجات الدليل ، ووضعوا اشتراطات . . أن يحصلوا على كشفٍ حقيقيٍّ بالجريمة ومن قام بها ، بمعنى هل هو خائنٌ فعلاً؟

- يجب أن يكون هُنالكَ إثبات .

**

بعدَ أن انصرف الخواجاتُ وضعتُ الكتابَ أمامي . فصار الصمتُ حولي مخيفاً ، لم أستطع القراءة ولا النسخ ، وعلى الرغم من شعوري بالبرد الشديد إلا أنّي لم أقو على إضرام النار في الَوجاق ، كنتُ مضطرباً ، ومهدداً ، وقد أخفقتْ كلّ جهودي في استلال أيّ جواب عن خيانة الخواجة سنان .

فجلستُ دون حراكٍ ، وأخذتُ أحدّقُ على نحوٍ ثابتٍ إلى شيءٍ لم أستطع تمييزهُ بدقّةٍ ، وقد أراحني هذا الأمرُ وأبعدَني عن التفكير المقلق ، ثمّ عدت بعدَها إلى النومِ ، ما دام ليس لدي ما أقوم به سوى ذلكَ ، موقناً أنني عندما أستيقظ سأرتدي عمامة التجّار الصغيرة البيضاء ، لتنحدر ذؤابة منها إلى كتفي ، وسأتقلد عباءةً رماديّةً ذات حزامٍ ، وسأذهب إلى السوق .

الفصل الثالث

الجريمة والفنّ

I

رسالة الخواجة عباس إلى أعضاء التنظيم

بعد حادث التصليب كتب الخواجة عباس رسالةً طويلةً إلى أعضاء التنظيم، وقد وصلتني عن طريق الخواجة سحيم صباحاً، وقد قال فيها أشياء كثيرةً، فبعد الصلاة على النبي والتسليم عليه، وشرح ما حدث بالضبط للطائفة، تناول أمر الخواجة سنان، وقال :

كنتُ مخدوعاً ببعض الخواجات فيما مضى، كنتُ أنظرُ لهم نظرةَ التبجيلِ العظيم، والشعور بالقداسة والرفعة، وكنتُ أرى فيهم أشباه أنبياء على الأرض، أو حكماء، أو ملائكةً هابطين كرحمةٍ من الله تعالى إلى العالمين، يريدون للبشريّة الخيرَ التامَ، والفرحَ الدائمَ والتّمتع بالفنّ، والعناية بالكيان الخاصّ للإنسان، وخلق عالم ليس فيه ضرٌّ ولا ظلمٌ ولا أحزان، ومرّتْ عليّ فتراتٌ أخرى كنتُ تارةً أحسدهم على نقاء النفسِ والشرفِ، وتارةً أعطف عليهم لأنّهم يعيشون في عالمٍ لا يفهمهمْ ويخونهمْ، ويظلمهمْ، ويحقدُ عليهم .

ولكن بعد خيانة الخواجة سنان لاح لي أكثرهم -ولا سيما الذين اتّبعوهُ- بغيضين، مقيتين، مصطنعين، أنّهم لا يريدون

للعالم كما وعدوا أن يعيش في طفولة خالدة ، وروضة عظيمة ، بل يريدون الهيمنة على العالم ، وأن يسحقوا الكيان الخاص للإنسان بقوانينَ مجرّدة ، وأفكار فجّة ، وعواطف رخوة .

إنّهم ينكرونَ كلَّ ما يعتمل في حياة الإنسان من نزاهة وشرف ويستبْدلونها بكلِّ دناءة وخسّة ، إنّهم يفوّتون على البشريّة فرصة التمتّع بأفكار القاموس وتأمّلاته الصوفيّة التي توصلنا عبر الفنِّ إلى كل نبضة حيّة من نبضات الحياة ، توصلنا إلى كلِّ إحساس عظيم ، إلى كلِّ عاطفة صادقة ، إلى كلِّ فورة قادمة من الفؤاد مباشرةً ، لقد فوّتوا على البشريّة فرصة أن تعيش عبر الفنِّ هذا العلاج التأمّلي ، ليدخلوه في عالم مصطنع ، معقّم ، منفصل عن الحياة ، عالم نصف حقيقي .

إنهمّ لا يريدون إلا أنْ يتربّعوا على القمّة ، بينما يعيش أهل بغداد أسفلهم بجبن ، بعالم من الرذائل ، بعالم من الزيف ، بعالم بلا عواطف تقريباً ، بلا فكر ، بلا فنٍّ ، بلا قوانينَ ، بلا دستور ، يريدون من البشريّة أن تعيش حياتها الغريزيّة بلا تفكير أو تأمّل ، محرومة من الأشياء الخطرة الجسورة ، بلا تدخّل في الاقتصاد أو السياسة أو العدل ، مبعدون عن الشأن العام ، يعيشون عيشةً جبانةً ، ويتغلبون على الملل بالانهماك في الطعام والفجور .

لا أخفي على أحد أبداً ، أنا من أتباع الخواجة عماد الدين ، وكانت أفكاره هي التي أثّرت بي أعمق الأثر ، هذا لا يعني أني لمْ أكن أقدر فلاسفة آخرين ، ولكني كنتُ ممتنًا جدًا

للخواجة عماد الدين ، وما كنتُ أعرف أن أمر الاختلاف سيقود إلى الانشقاق والخيانة ، وربما لهذا الأمر كنتُ حزيناً ، كما أن رؤيتي الأخيرة للخواجة عماد الدين قد عزّزت رأيي به بقوة .

وهكذا أقول ، لا يمكننا أن نهمل أفراداً كباراً قد خدموا هذا التنظيم الهرمي خدمةً فائقة ، فالخواجة عماد الدين رغم الاتهامات الكثيرة التي وجهها له الخواجةُ سنان إلا أنّهُ وسّع بما لا يدع مجالاً للإنكار حياتنا الفكرية ، وإذا نظرنا إلى أصل تأريخ حياتنا في التنظيم ، ونظرنا إلى كلّ مرحلةٍ من مراحل تطور هذا البناء ، وكل تغيير جوهريّ في عمارة بغداد ، وكلّ فنٍّ زيّن قصور هذه المدينة ، سنجدُ أنّه هو صانع هذا التناغم الفريد ، وأنّه أظهرَ بما لا يفسحُ مجالاً للشكّ ، أنه يستحقّ لقبَ الحكيم ، ذلك أنّهُ بنى مجدهُ على مذهب الفضيلة ، واستنبطَ من الصفائيين أسساً روحية مشابهةً لذلك البناء ، بناء مدينة بغداد وهي في أزهى عصورها .

والخواجة عماد الدين هو الذي تبنّى كتابة قاموس بغداد ، القاموس الذي سيشتملُ على السرّ الأعظم والذي سيحمي بغداد من الانهيار والتلاشي ، غير أنّ اعتراض الخواجة سنان لا يمنحه الحق بخيانة التنظيم .

ولا يمكننا إلاّ أن نعذر الخواجة عماد الدين في ذلك ، فهو من طبقة الصنّاع ، وفي الواقع أنّ الصنّاع في بغداد تميّزوا بحذرٍ عظيمٍ إزاء المؤامرات العسكريّة الداخليّة ، والغزوات المحتملة

التي ستشنها القبائل التترية الوثنية القادمة من الشرق أو التي ستشنها الجيوشُ الصليبيّة الكافرة، والقادمةُ من الغرب، فاحتاطت هذه الطبقات الموسرة بشكلٍ كافٍ، وأرادت أن تخضعَ الصنّاع والحرفيّين وموظفي الدولةِ الصغار وضبّاط الجيش والشرطة لها خضوعاً تاماً، عن طريق الأسرار، وكتابة قاموس المدينة، وبيان الروابط والعلاقات بين المكونات الماديّة والروحيّة لبغداد.

لقد عرفتُ الخواجةَ عماد الدين عن قربٍ، ويحزُّ بنفسي ما آل إليه مصيرُه، بلْ أقولُ صادقاً قد أدمى قلبي يومُ مقتلهِ على يدِ ثلّةٍ من الحرس السلطاني في بغداد، وقد كنتُ أتأمل روحه في السماء وهم يدقّون يديه بالمسامير على الجذع ومن ثم قطعوا يديه وأقدامه وجزوا رأسه على النطع.

لقد وُشيَ بالخواجةِ عماد الدين عند الوزير معزّ الدين ابن علي بأنّه كبيرُ الطائفةِ النقشيّة الباطنيّة التي كوّنها بعضُ صنّاع بغداد. وكانت الوشاية قد عصفت ببغداد عصفاً، وأدت إلى حرب ضروس ضدّ أعضاء الطائفة، والموالين لها، لا بسبب اتهامها بالزندقة والكفر والمروق حسب، ولكن اتهامها بالانشقاق أيضاً، فكانت الوشاية التي انتشرت في عموم بغداد، أن طائفة الخواجيّة تقولُ بانتقال السلطة إلى الحرفيين والصنّاع والمبتكرينَ والبنائينَ في حكم بغداد، لا إلى الخلفاءِ والملوكِ والعسكرِ، فشن قصر الخلافة في بغداد حربين ضدّ الطائفة، حرباً لاغتيال أعضائها، وحرباً لتجريدها من أفكارها.

وهكذا لم يكن مقتل الخواجة عماد الدين بن أبي ريحانة النقاش، في واقع الأمر، إلا بدايةً لسلسلة من الضحايا، وإن الحريّة الفكرية لم تكن يوماً دون ثمن أبداً، بل لا تفصح الحرية عن نفسها دون تضحية ذات معنى، ولا يستمد التاريخُ معناهُ إلاّ من هذه القوى المزلزلة للأخلاق السائدة، والتي تتّصف بالإنكار، والمزعزعةِ للاستمراريّة والديمومة.

وكانت الطائفة تعرفُ أنّ هنالك وشايةً وصلت إلى الوزير عن الخواجة عماد الدين، ولم يكنْ يعرف أحدٌ من الطائفة مصدر الوشاية، إلاّ أنّ هناك أنباءً وصلتْ بعد اغتياله، أنّ الواشي هو الخواجة سنان، أحّد الحكماء الثلاثة الذين يرئسون الطائفة! هكذا كنا نقول مستنكرين.

بالنسبة لنا نحن في الحلقة الأكبر، في مجلس الخواجات كانت دهشتنا عظيمة، بل كانت صدمةً بالنسبة لنا، أما عند البعض فقد كان الأمرُ نسبةً لهم غير مستبْعد، ذلكَ أنّ الخواجة سنان كان يشعرُ بمنافسةٍ شديدةٍ مع الخواجة عماد الدين لا على رئاسة الطائفة فقطٍ، إنّما في كتابة القاموس أيضاً.

رسالة من مجلس الخواجات

وبعد هذه الرسالة، وصلتني في الظهيرة رسالة من مجلس الخواجات، تقول فيها إن الخواجة عبّاس حلّ محلّ الخواجة عماد الدين، وقد تخلّى مجلس الخواجات عن الرئاسة الثلاثية

للطائفة بسبب الظروف الجديدة، الظروف الصعبة التي تمر بها الطائفة من قتل واغتيال وتهجير:

بعد هذه النكسة العظيمة التي منيت بها طائفتنا، اجتمع سرّاً مجلس الخواجات وهو أعلى الهرم في النظام، كان ذلك في أوّل أيّام رجب، وفي منزل الصانع سلمان بن محمد الواقع عند باب الطاق، في محلّة دار الروم من الرصافة، وقد أمروا بأن يكون الخواجة عبّاس هو كبير الصنّاع، ورئيساً للفرقة الخواجيّة خلفاً للخواجة عماد الدين، ووضعوا في يده خاتم الطائفة وعلى ماسته نقش لاسم الله كبير الصنّاع وباني الكون، وقد ركع جميع مجلس الخواجات في بغداد أمام يده الممدودة لتقبيل الخاتم، وسمّوه الخواجة الرئيس.

**

هكذا تنتهي هذه الرسالة، ومن الواضح أن في هذا اليوم بالذات تم اتخاذ قرار اغتيال الخواجة سنان، فقد خطب الخواجة عبّاس طويلاً بمجلس الطائفة، وبعد يومين من تقلده هذا المنصب أرسل لي رسولاً لمقابلتي في منزله، وأمهلني أربعة أيام لتنفيذ مهمة اغتيال الخواجة سنان، غير أنه وبعد أيام قليلة قد تهدده الموت والقتل من كل جانب، حتى سمعت أنه اختفى، هكذا انسلّ من بين الأحياء إلى عالم آخر، وقد تبعنا خياله الشريف الذي مرَّ مثل نورٍ بين الظلمات، غير أنّنا لم نجدْ عند الجسر من جهة الرصافة وعلى ضفّة نهر دجلة سوى ملابسه:

عمامته وقفطانهُ وسبّاطهُ من جهةٍ ، ومن جهةٍ أخرى مخْصرته ، ومسبحته ، وخواتمهُ الشريفة .

هكذا إذنْ رحلتْ روحهُ إلى العالم الهرقيالي ، العالم اللّطيف الذي يضمّ أرواح الحكماء والفلاسفة والفنّانين ، وسيعود بروحه يوماً ما إلى جسد أحد فنّاني بغداد .

II

تبليغي بأمر اغتيال الخواجة سنان

كنتُ حزيناً جداً ذلكَ اليوم ، في البداية وقفت حائراً في البسطة السفليّة لمنزلي ، ثمَّ بعدَ ذلكَ تمشيتُ بشكلٍ متوجّس في مماشي الدار ، متخّذاً هيئةً غير عابئةٍ بما يحدث ، كنتُ أتخطّى كما لو كنتُ أتشمّمُ الأزهار في الحديقة ، ولكنّي في الواقع كنتُ قلقاً بعدَ الأنباء الرهيبة التي وصلت عن المجزرة التي لحقت بطائفتنا ، فجعلتُ نفسي أتمشى كما لو كنتُ أتفقد المنزل :

كانَ كانَون المطبخ مشتعلاً ، وعلى مقربة منه جارية من جواري المنزل تطبخُ عليه ، وكانَ باب المخزن مفتوحاً تبدو منه قلل الزيت والسمن والعسل والقمح . وبجواره انهمكت خادمة في شيِّ لحم الضأن ، وأمامي في الحديقة يسرحُ الدجاج ، وينطُّ البطُّ في الماء ، وتلتقطُ العصافير الحبَّ عن الأرض ، وفي الركن البعيد انحنت جاريةٌ أخرى على طست الغسيل .

بعد ساعة عدتُ إلى حجرتي وأخذت أقلّب كتاب الفارابي ، وفي هذهِ اللحظة سمعتُ طرقاتٍ على الباب .

جاءني خادمي وقالَ لي :

- رسول في الباب لك يا سيّدي .

- دعهُ يدخل . قلتُ له .

- رفض يا سيّدي الدخول ويريدك في الباب .

توجستُ وأخذتُ أتحسّسُ مقبض خنجري ، ذهبتُ إلى الباب لأنظره أوّلاً ، وجعلتُ خادمي يتقدّمني .

في الباب شاهدتُ شاباً أعرفهُ ، وهو ابن أحد الخواجات .

- السلام عليك يا سيّدي .

- عليك السلام . قلت لهُ . ابتسم وقالَ بصوت قلق .

- هذهِ رسالة لك يا سيّدي .

سلّمني الرسالة واختفى مباشرةً من الباب .

كانَت الرسالة من مجلس الخواجات ، قرأتها وطويتها ، ثمَّ دسستها في جيبي ، وصعدتُ حالاً إلى حجرتي ، ارتديت قميصي فوق السروال ، ولففتُ عمامتي حول رأسي ، وأردتُ الخروج من المنزل ، تطلّعتُ في حذرٍ أوّل الأمر إلى الخارج ، ثمَّ تناولتُ مقود فرسي ، صعدتها بحركةٍ واحدةٍ ، وسرتُ في الطريق .

الذهاب إلى منزل الخواجة عبّاس

في الطريق كنتُ خائفاً ومتوجّساً ، كانَ عبد الله بن محّمد وهو أحدُ تجّار سوق السبت ، قد ظهر أمامي بعمامتهِ وقفطانهِ الأسود يتقدّمهُ خادمهُ وهو يحمل كيساً على ظهره ، وعندما افترقا صاح بهِ عند عطفة الطريق :

- ابعثْ لي مع صبي الدكّانَ بعض الخبز . واختفى في منزله .

كانَ الوقت ظهراً ولم يحن آذان الظهر بعدُ ، فانحرفتُ شمالاً نحو النهر ، ومررتُ بخمّارة تجّار السمك ، كانَ بابها موارباً تتصاعدُ منهُ أبخرةُ الخمر ، ورائحةُ الطعام ، وأصواتُ التجّار العالية وهم يتداولون شؤون السوق ، وكان الغناءُ في الخمّارة يُسمعُ من بعيد .

اجتزتُ الخمّارةَ ووصلتُ الميدانَ المقابل لجامع السلطان مسعود ، وكانَت تعلوهُ أربعةُ مآذن ، ثمَّ اتجهتُ يميناً ، كانَ دكّان عبد الله المزيّن مفتوحاً ، وهُنالكَ أحد التجّار قد خلع نعالهُ ، وسار فوق البسط المنقوشة بشكل مربّعات ، وجلس تحت يد الحلاّق ليجزّ لهُ شعرَ رأسهِ ، إلى جانبه دكانٌ آخر أشبه بالرواق سقوفه خشبيّةٌ ، وواجهتهُ محلاّة بآيات من القرآن الكريم بالخطّ الكوفيّ .

كانَ الآذانُ قد حلّ ، ودخل المصلّون في صحن الجامع : وجوههُم منبسطةٌ ، وعمائمهم كبيرةٌ ، ومسابحهم طويلةٌ ، وكنتُ متوجّساً خائفاً ممّا سيقولهُ الخطيبُ هذا اليوم حول الفرقةِ الخواجيّة ، ثمَّ تجاوزتُ الجامعَ ، وكنتُ أسمعُ من المصلّين كلمة آمين ، ودخلتُ محلّة العبّاسيّة من أعلاها ، وكانَ ثمّة زحامٌ حول سوق الورّاقين ، وقد عرفتُ ظهر أمس من جاري أبو سعيد الرومي ، أنَّ ثمّة رسائلَ كثيرةً تكتبُ هذهِ الأيّام ، وتوزّع في سوق الورّاقين في مهاجمة طائفتنا ، والتحريض عليها .

عند رأس جادة السوق رأيتُ جنوداً من الحرس السلطانيّ ، وعددهم عشرةٌ ، كانَوا يتوثّبون على جيادهم عابسين ، لحاهم سود غزيرةُ الشعر ، ووجوههم السمر متجهّمةٌ ، ومعهم ضابطان طويلان من التركمان ، كانَوا متأهبّين بدروعهم وسيوفهم المعقوفة حيثُ يضعون أيديهم على مقابضها المفضّضة ، وكانَت سراويلهم الطويلة التي اشتهروا بها حمراً دون أن يردّوا فوقها القفاطين ، وقد منحتهم قلنسواتهم الجلديّة السود التي تهبط عند حنوكهم مشهداً مرعباً ، أما جيادهم الخفيفة والسريعة فقد كانت مشنفة الآذان متأهبة لشيء ما .

حين رأيتُهم يقفون متوتّرين هكذا ، تراجعتُ . شعرتُ بأنّ لديهم غارةً يريدون القيام بها ، فعدتُ نحو طريق النهر مرّة أخرى ، وهو الطريق الذي يحيطُ بالمدينة ويلتفُّ حولها ولكنّهُ لا يخترقها ، وقد أخذتُ أسيرُ بحذر ، وكأنّي أتنزّهُ على الطريق المملوء بالخمّارات والباعة . وهنالكَ شوارعُ تتخلّل صفوفَ الدكّاكين وتمّتدّ إلى النهر ، تكشفُ عن مشهدٍ أقرب ما يكون لمشهد الريف ، وعند الجسر كانَت جمهرة الصِّبيان يجرّبون ركوب الجياد ، ويضربون بالسيف ، ويلعبون بالنشاب ، وعند الضفّة قواربُ عديدةٌ ، وسفنٌ شراعيّةٌ تقطع النهر ، وثمّة جارية سوداء تملأ القلل من مياه عذبة على هيئة عين ، وثمّة سقاءون آخرون يحملون على حميرهم قللا فارسيّةً مزخّرفةً ، يسوقونها نحو مركز المدينة ، لبيعها على الناس المتجمهرين عند سوق الورّاقين ، أو سوق السمك ، أو عند الميدان حيثُ يقف التجّار

هناكَ بانتظار قوافلهم ، أو لتحميل بضائعهم على الجمال الذاهبة إلى خراسان أو شيراز .

**

عند مركز تحميل السفن الذاهبة إلى واسط التقيتُ الخواجة نابار ، وهو نصرانيّ من أهل الحيرة ، كانَ صانعاً ماهراً للدور ، وقد شيّد ذلكَ الوقت أكبر خمّارة في واسط ، وهو أحد أعضاء الطائفة أيضاً ، عملَ في مجلس الحكماء ، وعمل على قاموس بغداد مع الخواجة عبّاس الطغرلي .

سلّمتُ عليهِ وكانَ كئيب الوجه حاد الملامح ، قالَ لي بعدَ هجعة من الليل استيقظَ على طرقات الباب ، وحين فتح وجدَ مجموعةً من الحرس السلطانيّ ، كانَوا يريدون تفتيش الدار فأدخلهم ، وقد هجموا كالسيل على الدار ، وقد حطّموا ما مرّوا به ، وهدّموا الأبواب كلّها تقريباً ، وقد دخلوا صحن الدار بخيولهم ، وتفرقوا بصحنه ومقصوراته ، وربطوا خيولهم فيه ، وهشّموا خزائنهُ ومكتبتهُ ، ونهبوا ما وجدوهُ من المتاع والأواني والقصاع ، والودائع وحملوا كلّ ما وجدوهُ بالدواليب والخزانات ، وكسّروا سراجاته ومصابيحه وأوانيه وألقوها بصحنه ، ثمَّ عرّوا كلّ خدمه وجواريه وأطلقوهم في الشارع .

**

استدرتُ من طريق النهر ودخلتُ المدينة من جناحها الأيمن .

كانَت الشمس ترتفع آنذاك في الأفق ، وبدا نهر دجلة

مغموراً بالسَّديم ، كانَ أشبه ما يكون ببحر أبيض ساكن ؛ وخلفه تلال الصحراء وكثبانها الرمليّة مثل محيط ذهبي ، وعلى الضفّة الأرجوانيّة الداكنة تتكسر أمواجه المتحجرة .

وقفت قليلاً لأرقب الشمس وهي تصعد خلف الصحراء المتاخمة لبغداد ، وهي تفرّقُ قطعاً كبيرةً من الضباب الرقيق ؛ كانَت الحقول مقطعةً بالقنوات مثل مروج خضر بتخوم متعرّجة ، وهُنالكَ اللون الأرجوانيّ للشمس وهي تبرزُ مآذن بغداد وأمامها النهر حيثُ تمّر القوارب الشراعيّة من بعيد ، وعلى الضفّتين غابات النخيل وهي تهسهس للأمواج الفضيّة .

**

نصف ساعة على جوادي حتى وصلتُ منزل الخواجة عبّاس . هبطتُ من جوادي دون أن يستقبلني أحدٌ ، وما إن دخلتُ المنزل ، حتى رأيتُه يقفُ عند النافذة ساهماً ، حالماً ، وكأنّهُ يفكرُ بأمر بعيدٍ جدّاً ، وحوله بعض أعضاء مجلس الخواجات ، وقد أُدركتُ لحظتها أن أمراً جماعيّاً قد اتُخذَ قبلَ أيّام ، وهذا الاجتماع المصغّرُ قد عقدَ لتبليغي بالأمر ، والطلب منّيَ تنفيذه .

وعند دخولي مباشرةً ، وقبل أن ألقي عليه التحيّةَ أو قبل أن أثني ركبتي أمامهُ ، وأقبّل خاتمَ الولايّة بخنصرِ يدهِ الأيسر كما تنصّ عليهِ تعاليمُ طائفتنا ، التفتَ الخواجة عبّاس إليّ وقالَ بصوتٍ خفيض :

«اقتله» .

وهكذا أبلغني بأوامر صدرت عن الطائفة بقتل الخواجة سنان كما أخبرتكم ، وأمهلني أربعة أيام للتنفيذ قبل اختفائه الشريف في العالم الهورقيالي . ثلاثة أيّام بقيت في منزلي ، أما اليوم فهوَ يوم المهمّة العظيمة . المهمّة التي كلّفني بها الخواجة عبّاس ومن معه من مجلس الخواجات المعظم .

وكانَ ذلكَ قبل اختفائه الشريف في العالم الهورقيالي ، وخلاصه من هذا العالم الأرضي وتناقضاته ، ذلكَ أن العالم الهورقيالي هو وطنه . بغداد الموعودة هي الرحلة التي سيمنحه إيّاها غيابهُ وخلاصهُ ، ولا يفهم هذا الخلاص ، في عقيدتنا ، إلا كفضاء سليم للأرواح النبيلة ، وكقوة إيجابيّة شافية ومنقذة ، لا هروباً سلبيّاً من اضطربات هذا العالم ومن تناقضاته ، بل إنَّ اختفاءه هو نوعٌ من التسامي العلويّ ، وغالباً ما تصنعه المعرفة ، حيثُ يظل فيه الإنسان مخفيّاً عن شرور الآخرين .

إنّ هذا العالم الذي نعيش فيه هو عالم غير حقيقي ، فعالم المثل هو الذي نمشي فيه حقّاً ، وهو عالم لا يموت ، أما هذا العالم الزائل ، فهوَ محض سراج سينطفئ حتماً أمام أعيننا ، والنهار الطالع فيه هو ليلٌ ولا أكثر ، ليلٌ أمام عمائنا الأسود كلّنا .

أما الفنّ ، فتظهر أهميته هنا ، دون شك ، إنّهُ الجوهر الكشاف للحياة ، هو القوة الأصليّة لهذا العالم الصامت ، هو

العمق المحسوس الذي يظهر قوّة الله وخلقه ، وما يمنح هذا العالم شفافيته ، إنّهُ القوة التي تجعل الأحجار والأخشاب والمعادن والألوان والأصوات متألقة ملؤها حركة .

III
مهمّة أكيدة

خرجْتُ من منزلي اليومَ لأمرٍ واحدٍ فقطْ ، هو قتْلُ الخواجةِ سنان ، وبأمر من الخواجة عبّاس .

امتطيتُ حصاني متوجهاً إلى منزلهِ الذي يقعُ في محلّة أبرز عندَ بابِ الطاق ، من جهةِ سورِ بغداد ، وكلما خطوتُ خطوةً كنتُ أشعرُ بأنّي أضيعُ كما لو سرحتُ في مدىً واسع لا حدّ لهُ . كما لو كنتُ أواجه النورَ من جهة الشرقِ وهو يواصّلُ الارتعاش فوق الجسر من جهةِ نهر دجلة ، ويرقدُ فوق العشب المبلول ، وكأنَّ الفضاء يكبرُ هذا اليوم ويتسعُ ، حيثُ قطرةٌ منهُ كافيةٌ لأن تتسلّل إلى فمي ، وإلى ما تحت الجفونِ ، وتجعلني كمن ضاع في سكرِ النسيم متحرّراً من القلق الأخرس المحروس بألف فكرة ، وبألف همّ ، ومأسوراً بعقيدة كبيرة .

فقلت لنفسي :

-عليّ أنْ أفكر بأمرٍ واحد فقط ، هو قتلُ الخواجة سنان .

أفكر بأمر الاغتيالً ولا أُفكر بقصيدةٍ طويلة ، ولا بينبوع يفيضُ ماء ، ولا أفكّر برائحةِ الحنطةِ الوفيرةِ ، ولا بأسطورةِ الخبزِ ، ولا ببهجةِ الاستيقاظِ من النومِ ، ولا ببهجةِ القلب أمامَ

فنٍّ، كما كانَ يفعلُ بعض الخواجات . . .

عليَّ أن أفكّر فــقط ببطولاتنا نحنُ ، أفكر ببطولات الطائفة ، ناسياً الحكمة التي تعلّمناها من المعسكرات السرّية ، أو من مدارس الفنّ والفلسفة التي درسنا فيها في بغداد ، بأنّنا مثل الآخرين وهمٌ ، وأننا سنهرمُ مثل الخيول ، وسنموتُ وحيدين مثلها في العراء .

يوم المهمّة العظيم

اليوم هوَ آخرُ أيّام رَجَب الشَتويّة الباردةِ ، السماء يغطّيها الغمامُ ، وعند ضفّة النهر بضعةُ فرسان ينتصبونَ على سروجِ خيولهم المطهمةِ ، وريشُ خوذِهم يرفرفُ في الهواء . والراياتِ العبّاسيّةُ السودُ والحمْرُ تسمو بوهج عظيم القيْمة ، وقبابُ بغداد الزرقُ وأسطحُها الذهبيّةُ تتلاشى خلفَ غلالةٍ من الضباب الخفيف ، وقبل وصولي إلى الجسر أخذت السماءُ تمطرُ بصورةٍ متواصلة ، فانتحيتُ بفرسي جانباً قرب سياج منزلٍ قديم في رأس درب المولى ، لأرقبَ شوارعَ بغداد المرصوفة بالآجرّ ، والّتي تتفرّع مثل شعاعٍ نحو قصر الخليفة ، والمسجد ، ودواوين الحكومة .

**

الشوارعُ خاليةٌ بسبب البرد والمطر ، ما خلا بضع جوارٍ جواري خارجات من سوق السبت قد تبلّلت عمائمهنّ الملوّنةُ الصغيرة ، فأطلقنَ ضحكاتهنّ العاليّةَ لقطرات المطر التي سالتْ

على وجوههنّ ، وأنعشتْ أرواحهنّ اللاهيّة .

ومن بعيد كنتُ لمحت جارية رومية بجوار ينبوع صغير في الميدان ، تحمل كوزاً نحاسيّاً في طست ، وعلى مقربة منها بضع نساء يتضاحكن حول زير الماء ، كانَت ترتدي جلباباً أحمر من القماش الشيرازي وترفع شعرها إلى أعلى كعادة الإماء ، حين اقتربت منها ، كانَت نظراتي قد التقت نظراتها ، غير أنّها احمّرت خجلاً ، وأنزلت عينيها إلى أسفل .

**

أرخيتُ لجام فرسي التي سارت بهدوء مطمئنّ ، وكأنَّ خطواتها الهادئة قد أثقلتها بسرّي ، كنتُ أفكر بهذا الأمر العظيم وأنا أنصتُ إلى إيقاع صوت حدوةِ فرسي الذي انبعث مكتوماً من حجر الطريق المبلول ، إنّهُ حجرُ أصبهانَ الأبيض الذي جلبه الخلفاءُ العبّاسيّون من فارس على الجمَال ، ورصفوا بهِ طرقات المدينة كلّها تقريباً ، ليحدَّ ببياضهِ المحزّز خضرة شجرِ بغداد الوارفِ الذي يشبهُ الحبرَ ، ويخفّف سواده بتوازنٍ صارم ، ويبعث عندما يبتلّ رائحته القويّة .

لقد اشتهيتُ تلك اللحظة أن أتوغّل في الغابات الواقعة خلف السور من وراء باب السلطان ، فقد كنتُ كئيباً بشكلٍ لانهائيّ ، وأشعرُ بقالَبٍ من رصاصٍ سميك يقبضُ على قلبي ، وبين وقتٍ وآخرَ كنتُ أتحسسُ خنجري المسمومَ الذي عليّ أنْ أغلّه ، في صدر الخواجة سنان بن ميمون ، بأمرٍ لا يمكن لي طبقاً إلى قوانين الطائفة مخالفته ، وبين لحظةٍ وأخرى ، كانَ

يتراءى لي وجهُ الخواجة عبّاس الطغرلي ، رئيس الطائفة ، وهو يتلو عليّ هذا الأمر .

الوصول إلى منزل الخواجة سنان

عند محلّة الديوان على مقربة من سور بغداد ثمّة بيوت طينيّة لفلاحين نبط ، وثمّة أطفال يلعبون تحت أيكة نخيل ، وعند الساقية ثورٌ أبيضُ يجرُّ المحراث ، وخلف السياج الطيني تلعب بعض الحملان ، وعند هري التبن يرقد على الأرض جملٌ . كنتُ أنظر الأرض وقد أخذ لونها يزدادُ اخضراراً ، فأمامها سهلٌ منبسطٌ وأخضر ، وأسفلهُ مربعاتُ تربةٍ سود هي ما حرثه الثورُ من الحقول ، وهُنالكَ في الترعة الكبيرة بعض الجواميس وهي ترعى ، وقد خضتُ بعدَها في بركة كبيرة من الطين والماء ، وصلت إلى ركب الجواد . وبعدَ ساعة كنتُ أشرفت على حافات البساتين ، وقد لاح لي قصر الخواجة سنان من بعيد .

حين لاح أمامي لم يعد بإمكانيَ كبحَ عواطفي ، نخزتُ الجواد بمهمازي فانطلقَ يعدو وهو يرشرش ماء المستنقع . أخذتُ في الصراخ رغماً عنّي ؛ تسلقتُ التلَّ بسرعة ، دارت حولي سحابة رمل كدوامة ، ثم هبطت وتوقفت أمام المنزل ، ونزلتُ من حصاني بسرعة .

الدخول إلى منزل الخواجة سنان

كان الباب الخشبي مرصعاً بالنحاس والفضّة ، ومنقوشاً بأجمل ما يمكن من نقوش .

لم أكن مستغرباً من هذا الفنّان الذي برعَ براعةً عظيمةً في نقل نقوش الخواجة يحيى الواسطي على جداران القصور ، وعليّ الآن أن أوقف هذا النهر المتدفّق من الجمال بخنجري ، وأجعل تدفّق الدمّ بديلاً منه . طرقت البابَ عدّةَ طرقاتٍ فلمْ يفتحْ ، استدرت من جهة السياج وعبرت ، كان الباب عبر السياج مغلقا ، فاستدرت بحذر على محيط المنزل ، كل شيء كان مغلقاً وكأن الدار مهجورةٌ ، لا خدم ولا جوار ولا عبيد في المنزل ولا أحد .

لم يكن هناك غير كوة صغيرة في الأعلى ، فوضعت خنجري في فمي ، وصعدتُ نحوها ، مددتُ رأسي وجدتها تقودُ إلى بسطة السلم ، فولجتها بحذرٍ وهبطتُ دون أن أحدث صوتاً .

كان باب الحجرة مفتوحاً ، فولجته ، فجأة رأيتُ جاريتهُ واقفةً على حدّ الباب الخشبي الكبير ، وظهرها متجه نحو الشباك الذي يكشف بعض الطريق ، وحينَ صرتُ في مواجهتها ردت فضلة من خمارها على فمها ، كانت غارقةً في دموعها ، فسألتها عن الخواجة سنان بكلمات مضطربة ومتلعثمّة ، لم تجبني بشيء مفهوم ، غير أن عينيها كانَتا مغرورقتين بالدموع ، ثمَّ قالَت لي بصوت أجش حزين إنهُ هناك .

- هناك . . . أين؟

غير أنها لم تجبني ، وأشاحت بوجهها عني وأجهشت في البكاء ، فاضطربت أمامها مرّة أخرى ، وبخطوات متعثرة ، دخلتُ الحجرة المقابلة .

كانَت الحجرةُ شبه معتمة ، وعلى مقربة من الدكة كانَت هُنالكَ مشاعل بلهب قصيرة ، وكانَ المخصي بلونه الأسود واقفاً عند الدكّة متعرقاً وجسده يلمع تحت شعاع اللهب ، وكان الخواجة سنان مسجى بملابسه البيض وهو مشرفٌ على الموت ، جسدهُ النحيل ، وجهُهُ الشاحب ، عيناهُ الغائرتان في محاجرهما ، كانَ من دون شكّ في تلك اللحظة يحتضر .

كلّما كنتُ أقترب منهُ كانَ مشهد موته يتضحُ أمامي ، حتى صرت أمامهُ مباشرة ، توقفت .

كانت الدكة الكبيرة مفروشةً تحتهُ ، وخلفهُ حوض كبير من الماء الساخن يتصاعد البخار الأبيض ببطء منهُ . ومع البخار تضوع رائحةٌ طيبةٌ في فضاء الحجرة كلّها . نظر إلي بعينيه الغائرتين وبشفتيه المرتجفتين تمتم قليلاً وطلب مني أن أجلس عندهُ .

فجلستُ على الدكّة ، وقد حاذى جانب من فخذي رداءهُ الأبيض ، في تلك اللحظة بدأت أراهُ جيداً ، كانَ وجهُهُ الشاحب جميلاً ، شعرهُ الطويل ينسدل على كتفه ، ولحيتهُ الطويلة تنحدر على عنقه . كانَ يتنفس بصعوبة ، وعيناهُ تذهبان يميناً وشمالاً ، وجهُهُ شاحب متعرق ، وهُنالكَ زرقة على

شفتيه ، ويداهُ ترتجفان ، ولكن ماذا حدث؟

هذا هُو السؤال الذي كانَ يلحّ على تفكيري في تلك اللحظة؟

لقد أدهشتني حجرتهُ ، فقد رسم على الجدار طاووسين لا يمكن أن يحول شخص نظراته عنهما ، وها أنا قد جئتُ لأقتلهُ ، وحينَ رأيتُ براعتهُ في رسم الطاووسين ذُهلتُ ، كدت أسقط من الدهشة على وجهي ، لم أكن أتمالك نفسي وأنا أنظر إليهما ، كانَ هو ينظر إليَّ ، يريد عينيَّ أن تلتقيا بعينيه ، غير أنّي لم أستطع . تلتقي عيناي بعينيه قليلاً ، ثمَّ تذهبان رغماً عنّي إلى الطاووسين على الجدار خلفه .

كانَ قد شيدهما بالموزائيك الملوّن ووضعهما على بلاطة من الفخار المزجج ، أحاطت بهما هالةٌ فوق خلفيّة من العشب ، وعلى جانبي الهالة رؤوسٌ لخيولٍ عربيّةٍ بيض ، أما أطراف البلاطة فقد كانَت مزخرفةً بالكتابة باللونين الفيروزي والأزرق ، وعلى مقربة من النحت وضع فخاراً مزجّجاً لإبريق من رأس ديك ، مزخرف برسم حرٍّ مع أغصان وأوراق شجر باللون الأسود تحت التزجيج الفيروزي .

إنّها قطعةٌ من أجمل ما رأيتُ ، بحيثُ أنها شغلتني طويلاً عن النظر إليه وهو على فراش الموت . كنتُ أنظر إليهما مسحوراً ، ثمَّ أعود لأنظر إليه ، وقد شعر بأني كنتُ منسحراً بصنعته عنهُ ، فلم يغضب . إنّما نظر إليّ ونظر إلى الطاووسين ، وقالَ لي بصوت خفيض ومتلعثم :

- صنعتهما مؤخراً ، كي أموت وأنا أنظر إلى ألوانهما .

- ماذا حدث . . .قلتُ لهُ .

سكت قليلاً وقال لي :

- لقد بعثوك لتقتلني أليس كذلك؟

- . . . .

- أعرفُ ذلك ، وكنتُ أنتظرك ، إلا أنّهم لم يطيقوا صبراً فبعثوا شخصاً آخر لقتلي قبل وصولك ، لأنّهم ما كانوا متأكدين من تنفيذك للأمر ، لقد طعنني في خاصرتي . . .

- لماذا خنت الطائفة؟

- لم أخن أحداً . . .ما قلته كان صحيحاً . . .

- كيف؟ سألته فقال لي : «الأسرار . . .» ثم أخذ يلهث . . . لم يعد قادراً على الكلام . . . ففهمت أراد إن يقول أنّ الأسرار تجعل الناس تفكر بأخطار ومؤامرات ، لكن لم يفهمه أحد .

لدي رغبة في تصديقه ، وها هو الآن أمامي مشرف على موته ، أو هو ميت بالأحرى ، كما أنني لدي تلك اللحظة رغبة بتكذيب الخواجة عباس لا أدري لماذا ، فمن أين أتت عصبيته تلك الأيام ، ومشيته السريعة الممدودة ، وأصابعه المعقوفة ، وعيناه الحادتان ، وكل تلك العلامات التي تميز الرجل الخبيث ، ألهذا لم يقبل التدخل لإنقاذ الخواجة عماد الدين إذن؟ لقد شعرت لحظتها باليأس ، يا إلهي لقد كنا مخدوعين إذن ، أكل هذه الأعوام التي مرت ونحن نريد بناء المدينة الفاضلة

والإنسان الكامل كانت عبثاً . نحن نريد بناء المدينة الفاضلة ، والمدينة الفاضلة لا يبنيها إلا الإنسان الكامل ، من أين نأتي بالإنسان الكامل؟ الإنسان الكامل لا يخرج إلا من مدينة فاضلة ، ومدننا فاسدة لا تنتجه .

نهضت ، وقلبي مملوء بالحسرة ، ومشوش التفكير ، كان وجهه يشحب ، ويداه ترتجفان ، وربما في طريقه إلى غرغرة الموت الأخيرة ، كانَ سريرهُ جميلاً . يداهُ خشنتان . أصابعهُ ثخينة ، إنها يد بناء . كانَت لحيتهُ كثة ، وعيناهُ الكبيرتان تضيقان من التعب وهو ينظر إلي . أما شراشفهُ فقد كانَت مزينة بخيط ذهبي منقوش عليها بيت شعر ، وعمامتهُ البغداديّة المذهبة معلقة على عمود السرير النحاس ، وإيزارهُ المنمنم والمذيّل بخيط رفيع من الذهب الخالص يصل إلى صدره ، وهُنالكَ آية من القرآن الكريم بالخط الكوفيّ على رقعة سوداء من الحرير ، وخلفهُ طاووسان ملوّنان يزينان جدار الحجرة وراءه .

IV

العودة الخائبة

خرجتُ من منزلهِ وأنا أنظر إلى قطّتين جميلتين ووديعتين في ميدان السلطان قرب باب الطاق ، فكّرتُ أنّنا لا يمكننا أن نجدَ حيواناً واحداً على الأرض يمكنهُ أن ينحطَّ بالطريقة التي عليها انحطاط البشر . . . البشر كم هم مخيفون ، ليس هُنالكَ روحٌ ولا قلبٌ ولا عقلٌ ، إنها وجوه فظة حانقة مدفوعة هنا وهناكَ بقوّة الأشياء العمياء ، جاهزة بحقدها الأبديّ ، وتسكرُ من دماء بعضها البعض . . .

**

إنها ظهيرة السبت وكانَت البضائعُ الطالعةُ إلى الشام ومصر وخراسان تحمّلُ على الجمال ، يحملُها عبدانٌ سودٌ ، وروميون صهبٌ ، وكنتُ أسترقُ السمع للشائعات بين الناس ، فهم يتحدّثون مع بعضهم عن الفرقة الخواجيّة ، يقولون إنَّ بعض خواجات بغداد يعبدونَ الشياطين في خلواتهم ، ويدّعون أنَّ الشيطان ربُّهم ، وآخرون يقولون إن بعض هذهِ الفرقة مّمن يعبدونَ فروجَ النساء ، وإنَّ لديهم يوماً يعيّدونَ فيهِ ، ويعدّونهُ يوماً مقدّساً في الطائفة ، وفيه يشربون الخمرَ ، ويطفئون الضوءَ ، وكلُّ واحدٍ

منهم يأتي امرأة حتّى لو كانَت امرأة غيره ، أو أمّه أو أخته . . .

أدركتُ لحظتها أنَّ القصرَ السلطانيّ أرادَ أن يموّه على جريمتهِ باختلاق الشائعات عن هذهِ الفرقة ، وهكذا كانَت .

الاتصال بالأسود ابن الدهان والخونساري

بعد يومين كنتُ أرسلتُ كتاباً للخونساري وابن الدهان ، وقد اجتمعا في الليل عندي في منزلي ، واتفقنا بإعادة الطائفة إلى الحياة ، وأصبحنا نحن مثلث الحكمة بدلاً عن الخواجة عباس والخواجة عماد الدين والخواجة سنان ، وقلت لهم سنفعل أيّ شيء من أجل قاموس بغداد ، وسنسير حتى النهاية ، لا بد لهذه الطائفة من الاستمرار ، لقد ارتدينا أحلى ما لدينا من ملابسنا ، ارتدينا أزهى الملابس كي نموت ميتةً شريفةً . سنموت بشكل أحسن بكثير مما أراده لنا أعداؤنا ، سنشعرهم بتفوّقنا ، وبنقصهم . ما أفقرهم هم ، وما أغنانا نحن . فحتَّى الخواجات الذين كانَوا يعيشون في حيّ الفقراء من محلّة قطفتا في بغداد ، منهم من كانَ بلا وسادة أو سرير أو حصير أو أيّ شيء ، وأرواحهم لم تكن صدئة ، وتلك الظلامة لم تكن لصيقة بهم . يا لأعداء الخواجات إنّهُم مخلوقات مسكينة ، حاقدة ، وتعيسة الحظ!

ذلكَ أن المرء لا يكرهها هي ، بل يكره التفكير بها ، فبسبب شرفنا ونزاهتنا أمسينا طيفاً من تلك الأطياف التي يصارعها القضاة والفقهاء في الليل ، طيفاً من تلك الأطياف

التي تقف حيالهم وتمتصُّ نصف دماء سلطتهم ، دماء المستبدين والطغاة .

**

ها هم الخواجات الآن في الكرخ وفي الرصافة ، يشيدون بغداد كأجمل قطعة من الدنيا ، قصور ومنازل ومدارس وبيمارستانات تحوطها الأشجار من كلّ جانب ، وهم الذين دعوا الناس ليسكنوا في محلات بغداد ، اليهود في قطيعة سونايا ، والنصارى في قطفتا ، والفرس والأروام والأقباط في الكرخ ، والعرب المسلمون أخذوا ينحدرون من كلّ مكانَ إلى المدينة الجديدة .

فهل كانَت بغداد في ذهن من شيدها كبغداد في ذهن من تخيلها؟

القاموس مرة أخرى

هكذا أخذ خواجات بغداد يتوافدون في الليل إلى منزلنا لكتابة قاموس بغداد ، ففي مشهد الليل الثريّ والعميق يخرجُ الخواجات من منازلهم إلى منزلنا ، وفي الغرفةِ الكبيرةِ يبدأ زمنُ الفلسفة ، فصياغةُ كلٍّ فكرةٍ فيهِ لا يمكن أنَ تكونَ إلاّ قاسية وقاطعةً ، والجهد الذي تتطلّبه قوةَ الكلمات شبيهٌ بالأشجار الضخمة التّي تصمد أمام العاصفة ، نحن نريد إكمال عمل الخواجات الذين أمضوا عشرين عاماً في نسْخه وفي تزويقه ، وكتابة شروحه وتعليقاتهِ ، وتضمين ما يجمعهُ مجلس

الخواجات من أفكار ليكون فريداً من نوعه ، معمولاً من جهد الصنّاع والحرفيين والمهندسين .

إن ما نكتبه اليوم هو نوعٌ من الانتساب الفوري للعالم المحيط بنا ، وفي المدينة التي نعيش فيها ، قريباً من المزارعين النبط وهم يجرّون المحراث الثقيل لشقّ الأرضِ ، وقريباً من الرعاة السريان الذين يأتون بخطى بطيئة وحالمة من الحيرة إلى بغداد ، ومن رحم العمل الذي يؤدّيه بنّاءٌ لحمّامٍ أو مهندسٌ لقصر في حيٍّ من أحياء بغداد .

إنّها الفكرةُ التي ترقدُ في رحم حياة البنّائين ، ومن ركن يومهم ، إنّهُ عالم الأسئلة القديمة منذ فيثاغورس ، حيثُ ترجمناهُ نحن العرب محمولاً بالنغم الخاص لفنّنا وفكْرنا ، عاملينَ على فهم قانونه الخفيّ ، ومقدمين لهُ بداهته الخاصة ، إنّه ذاكرة المدينة من خلال الحكايات القديمة التّي تبرزُ في القاموس من جديد ، وقد حافظت على لغتها القويّة والموحية .

**

إن ذاكرة هذا القاموس هي أعظمُ من كلّ كتبِ التاريخ المزعومةِ ، ووحدُهم الخواجاتُ الذين حذّروا من أنّ بغداد يتهدّدها خطرٌ كبيرٌ ، وقادمٌ لا محالةَ ، خطرٌ ناشطٌ من الغربِ ومن الشرقِ ، وثمّةُ نذير مزعج يتهدّدها ، وفتنةٌ صاخبةٌ وناشطةٌ تتّقدم نحوها ، فهي مدينةٌ عظيمةٌ ، ولكنّها من السهل أن تكونَ فريسةً للبدع القاتلة ، ولصراع الطوائف ، وللعنف ، وللثرثرة الكاذبة .

**

هلْ أقولُ إنّي كنتُ أسعدَ أهلِ الأرضِ طرّاً ، فقد عشتُ في زمن الخواجات في بغداد ، ونمتُ في منزل كانَ فيه هذا الكتابِ المقدّس : قاموس بغداد . ذلكَ أنّ وجودهُ في منزِلنا كانَ واحدةً من النعم التّي عليّ أن أشكرَ اللهَ عليها ما حييتُ ، فهذا القاموس كانَ يستريحُ في منزلنا كما لو كانَ الله يأمرُ الأنعامَ أن تستريح في مراعيها ، ويأمرُ الشجرَ والنباتَ أن يورقَ ويزدهر ، ويأمرُ الطيرَ أنْ يرفرفَ في مناقعه باسطَ الجناحين تسبيحاً بحمدهِ ، والأغنام ترقص نشوانةً في الحقول ، والكلّ يحيا بإشراقه العظيم .

مثال بغداد

هذا القاموس هو كتابٌ قديمٌ يقولُ إنّ الله قد خلقَ بغداد على صورةٍ أو مثالٍ لها في السموات ، وما على الخواجات إلا مطابقة بغداد مع هذا المثال ، عليهم انتشالها من الخراب وتحويلها إلى مدينة عظيمة ، عليهم تحويلها بالعمل والبناء من كومة بلا شكلٍ ولا هيئة إلى مدينة تشعّ بالضياءِ والأنوارِ ، تحويلها من أطلالٍ مهدّمة ، وتلال نصبتْ عليها بعضُ أكواخ العرب ، إلى مدينة عظيمة تعرضُ على نحو مهيب أسوارَها الصرحيّة المشيّدة ، تعرضُ مسجدَها الأزرقَ بأعمدته البيض ، وآلافاً من قبابها الرائعة التّي يسقط عليها ضياء الشمس الخريفيّة ، تحويلُها من سديم وغبار إلى مدينة فنّ تنبثقُ بكبرياء يبهرُ العيونَ ، حيثُ تعرضُ واجهات منازلها وقد لوّحها الزمن

والشمس بلونٍ أصفر ذهبيّ ، كما هي صروح المدن المقدسة .

**

إن هذا القاموس هو الذي جعلنا ندركُ عظمةَ مدينتنا ، وجعلنا نراها في أبهى جلالها ، حيثُ أسلحتها المدّعمة بالفكر والفلسفة تنتشر ، وحيثُ الأرضُ ممدّدةٌ أعناقَها لها ، ومجمرّات العطور تحترقُ في كلّ منزلٍ من منازلنا وتنشرُ شذاها في هواء السماوات ، إن هذا القاموس سيجعلُ من وجوهنا الخاطئة وجوهاً طيبةً مفعمةً بالبساطة والسلام ، وسيجعل من الضيافة صولجانا في كلّ راحٍ من راحات شباننا .

نعم نحن على هذهِ الأفكار بانتظار الربيع ، وهو قادمٌ على بغداد .

كلُّ يوم يمرُّ ونحنُ نكتبُ قاموسَ بغداد نشعرُ أنّ ازدهار الأشجار يسمعُ قدومه من بعيدٍ ، وأنّ الرعد والسحاب هو وعدُ الله بخلق المدينة-المثال ، إنّنا بانتظار هذا الحضور الذي يتلبّسنا فرحهُ وبهجتهُ ، والأملُ الذي يطولُ أو يقصرُ مع طول الربيع أو قصرهِ ، إنّنا نسمعُ مع اكتمال كلّ فصلٍ من فصول القاموس أمواجَ الهواء وهي تتكسّر حول دجلة ، نسمع أصوات الملائكة ، وذهبَ أشعّة الشمس الذي يشبهُ ذهب القرابين المقدّس .

هكذا يخبرنا قاموس بغداد :

في بغداد انفتحت السماءُ ، وقذفتْ على الأرض بروحها المتجسّدة وكلامها المتفجّر لتحرق حتى نهاية الكون الجورَ والخطأ ، وتختبرُ على نار البوتقة فضاءنا وخطايانا ، وتضيءُ أمام

الله الواحد المقدّس بخوراً لا تنطفئ أبداً ، بخور الإنسانيّة المتجّدد ، عطر الإحسان والحقيقة الكونيّة .

بغداد ٢٠٠٧-بروكسل ٢٠١٠

علي بدر
روائي عراقي

صدر له

* **بابا سارتر**، رواية، رياض الريس، بيروت/ ٢٠٠١، ط٢، القاهرة / ٢٠٠٥، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٣ بيروت/ ٢٠٠٦، ط٤، بيروت ٢٠٠٩.
  - جائزة الدولة للآداب في بغداد.
  - جائزة أبو القاسم الشابي في تونس.
* **شتاء العائلة**، رواية، دار الشؤون الثقافية، بغداد/ ٢٠٠٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ط٢ بيروت/ ٢٠٠٧.
  - جائزة الإبداع الروائي في الإمارات.
* **صخب ونساء وكاتب مغمور**، رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ٢٠٠٣، ط٢/ ٢٠٠٧.
  - منحة من مؤسسة الكوندور الثقافية.
* **الوليمة العارية**، رواية، دار الجمل، كولونيا/ ٢٠٠٤، ط٢، بيروت/ ٢٠٠٩.
* **الطريق إلى تل المطران**، رواية، دار رياض الريس بيروت/ ٢٠٠٥، ط٢، دار الشروق القاهرة/٢٠٠٨.
* **خرائط منتصف الليل**، رحلات، أبو ظبي/ ٢٠٠٦، ط٢، بيروت/٢٠٠٩.
  - جائزة ابن بطوطة للرحلات في أبو ظبي.

* **ماسنيون في بغداد** ، دراسة ، دار الجمل ، كولونيا/٢٠٠٥ ، ط٢ ، بيروت/٢٠١٠ .

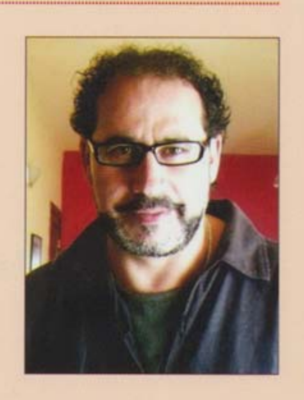
– شهادة تقديرية من -جامعة نونتر في باريس .

* **مصابيح أورشليم** ، رواية عن إدوارد سعيد ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت/ ٢٠٠٦ ، ط٢ ، بيروت/٢٠٠٩ .
* **الركض وراء الذئاب** ، رواية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ٢٠٠٧ ، ط٢ ، بيروت/ ٢٠١٠ .
* **حارس التبغ** ، رواية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت/ ٢٠٠٨ ، ط٢ ، بيروت / ٢٠٠٩ .
* **ملوك الرمال** ، رواية ، دار كليم ، دبي/٢٠٠٩ .
* **بطاقة دخول إلى حفلة المشاهير** ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت/ ٢٠١٠ .

CRIME, ART, AND DICTIONARY OF BAGHDAD



الجريمة، الفن، وقاموس بغداد



◆ *الرواية :*

بعد وصول الرسالة الثالثة والخمسين من رسائل أخوان الصفا على ظهر السفينة (مراد) مرسومة بريشة الرسام يحيى الواسطي، ينشب نزاع بين رؤساء الطائفة الخواجيّة وقضاة بغداد، وبعد وشاية تصل إلى القضاة، يحكم الوزير العبّاسيّ بالموت على رئيس الطائفة عماد الدين، وهو أحد أعضاء مثلث الحكمة الذي يتربّع على رئاسة الطائفة مع الخواجة عبّاس والخواجة سنان، غير أنّ الخواجة عبّاس يتّهم الخواجة سنان بهذه الوشاية فيرسل أحد أعضاء الطائفة من المشهورين بالولاء له، وهو الخواجة نصر الدين، لاغتيال الخواجة سنان، وفي طريقه إلى تنفيذ هذه الجريمة يستعيد الخواجة نصر الدين قصّة الطائفة الخواجيّة، وهي طائفة سريّة نشأت في السنوات الأخيرة من العصر العبّاسيّ، تؤمن بالفنّ والحكمة الأزليّة، وتستوحي أفكارها من السلسلة الذهبيّة للفيثاغوريّين الإسلاميّين مثل الفارابي، وجابر بن حيّان، وثابت ابن قرّة، وتعتمد، في نظامها، على قاموس بغداد، وهو كتاب سريّ موضوع في صندوق من السفرجل المزخرف بالذهب والفضّة، تعدّه هذه الطائفة أعظم تركة في الحكمة والفنّ، لاحتوائه على أسرار بغداد وقصّة بنائها. تستعيد هذه الرواية قصّة المدارس والحركات السريّة في بغداد العبّاسيّة، مكتوبة بأسلوب يحاكي فنّ المنمنمات والزخرفة العربيّة الإسلاميّة .

◆ *علي بدر :*

روائيّ عراقيّ حصلت روايته (بابا سارتر) على العديد من الجوائز، وترجمت إلى عدد من اللغات الأجنبيّة.


ISBN 978-9953-36-101-0
9 789953 361017

